السيد مجتبى الموسوي اللاري

الإسلام

والحضارة الغربية

تعريب

محمد هادي اليوسفي الغروي

شبكة الفكر
alfeker.net

الإسلام

والحضارة الغربية

السيد مجتبى الموسوي اللاري

الإسلام

والحضارة الغربية

تعريب

محمد هادي اليوسفي الغروي

اسم الكتاب: الإسلام والحضارة الغربية
المؤلف: السيد مجتبى الموسوي اللاري
المترجم: الشيخ محمد هادي اليوسفي الغروي
المطبعة: الهادي - قم
العدد: ٥٠٠٠ نسخة
تاريخ الطبع: ذو القعدة / ١٤١١ هـ. ق - ١٩٩٠ م

مقدمة المؤلف

إنّ العالم المتحضّر اليوم، بماله من ظاهر جميل، والذي لا زال كل يوم يعرف المجتمع البشري بآفاق جديدة.. قد ابتعد عن محور حقائق الحياة بمقياس واسع وهو بمنطقه المبني على أساس أصالة المادة والثروة، يتنكّر لثبات القيم في المجتمعات الإنسانية. وإن كيفية التربية الفكرية والروحية للناس في كل من المعسكرين العالميين (إن كان لا يزال هناك معسكران) بحيث يجعلهم في غفلة عن المعاني الخالدة. فالإنسان الذي كان دائماً وعلى أساس خصائصه الذاتية الباطنية قد حدّق النظر ليبصر عالم المعنى، عطف التفاته اليوم الى العالم المادّي السيّال، واخذ يتلقى الجانب المعنوي للطبيعة وحقيقة نفسه الملكوتية وكأنها مزاعم موهومة، ولهذا فقد أصبح الربح واكتناز الثروة والرفاه المادّي غاية الامال لكل الرجال تقريباً. ومع هذا الاسلوب من التفكير الذي يسود العلاقات الفردية والاجتماعية وبشتّى الاشكال و الصور لا ينبغي لنا أن ننتظر السعادة الحقيقية للبشرية، إلّا ان تتكسّر هذه الاصنام المختلقة بيده، ومع تغيير الجو الفكري يبدأ الانسان مرة أُخرى يبحث عن إلّهه الحق.

نحن لا ننكر النمو التقني، وسرعة الاتصالات، وكل التسهيلات والإمكانات التي أهدتها إلينا هذه الحضارة الحاضرة، و انّ فوائدها ومزاياها مما لا يمكن لاحد ان يغض عنها النظر والبصر، ومن هنا امّنت البشرية لنفسها شروطاً أفضل للحياة...ولكننا لا يمكننا أيضاً ان نغضّ النظر عن حقيقة كبرى هي ان روح الانسان تجد نفسها أمام حقيقة كبرى لا نهاية لها، وأن تبديل سعادة الإنسان المعنوية الى صرف رفاه مادي لا يمكنه ان ينسي الإنسان لمدة

مديدة حاجته الماسة والعميقة الى راحة الضمير والطمأنينة و أن ينسى أهمية الدين ورسالته الكبرى وأن يغفل عما هو بحاجة إليه حاجة ذاتية.

إن المدارس الاجتماعية لعصرنا الراهن بالرغم مما لها من دعاوي تقدمية وإنسانية، بعد أن أشعلت حريق حربين عالميتين وقتلت الملايين بكل قسوة وبلا رحمة...لم تجد بعد لدرء خطر مماثل آخر أيّ طريق معقول، و من الممكن أن تستعر أوار حرب أخرى مرة أخرى بأية محاسبة خاطئة عسكرية أو سياسية، فتخرج نفس هذه الوسائل الموحشة النارية المشبعة بالقوة السرية الذرية عن الانضباط بيد المسوولين عنها، فتحترق البشرية بنارها التي هي اجّجتها واشعلتها، وتنعدم بالكلّية.

ومن المؤسف ان الامم الشرقية ولسنين طويلة أخذت تشعر أمام النهضة الصناعية والتقدم التقني والتفوق الاقتصادي الغربي بحقارة وانبهار، بحيث افتقدت كل قواها الروحية المبدعةوأصبحت كمجتمع طفيلي لا روح له، يخضع ويذعن لكل ما يدخل عليه من أبواب الغرب، وبعذر جبر التاريخ أو ضرورة العصر. و هو (هذا المجتمع الشرقي) لا معرفة له بهذه الحضارة الحديثة من الناحية الفكرية والثقافية، فهو لا يدرك تلك الضغوط النفسية والفراغ الروحي الذي يواجهه الغربيون، فهو يزعم أنّ عليه أن يسلّم كل ما لديه من حقائق خالدة وأبدية لهذه الموديلات الفكرية والميول العصرية، مهما كانت هذه الميول غير أصولية وأسلوباً غلطاً وغير منطقي في التفكير.

ولا ريب في أن المجتمع الذي يشعر في نفسه بالضعف والمهانة، فهو وبتأثير من هذه العقدة المميتة لا يبدأ ـ لتجديد حياته وجبر ضعفه وتأخره ـ بأيّ سعي ومحاولة. ولا سبيل الى احياء الاستقلال الفكري والروحي في الناس سوى احياء القيم الانسانية وتعبئة كل الامكانات لهذا الغرض بالذات.

ومن ناحية أخرى، فان أفكار الجيل الحاضر، التي وقعت في موقع الصدام بين مختلف الافكار المعاصرة، تتسمم كل يوم بشكل وآخر. وفي هكذا ظروف فان تكليف علماء الإسلام خطير وحياتي جداً، إذ عليهم أن يفتحوا سبل الهداية على وجوه الجيل الحاضر على أساس علمي ومنطقي دقيق، وأن يضعوا في متناول أيديهم الثقافة والمعارف الاسلامية الواسعةوالشاملة.

وفي هذه الاعوام الاخيرة وان كان قد تحقق نشاط ملفت للنظر من قبل العلماء على هذا الصعيد، و لكن الايديولوجية الاسلامية لم تجد طريقها بعدُ الى أفكار أقشار واسعة من الشباب المثقف، وقد بقى هذا التراث القيّم والعظيم خفياً عن أنظار كثير منهم.

وفي هذا الكتاب تقابلت الافكار المادية للعالم الغربي مع منطق الإسلام العظيم، مع مقايسة بينهما بأسلوب جالب وجاذب. فهذه المجموعة تتعهد بتحليل مسائل متنوعة اجتماعية وسياسية واقتصادية في الحضارة الغربية وفي الإسلام، وبالإفادة من الادلة المذكورة في الكتاب بإمكان القارئ أن يدرك بوضوح: أنّ الإسلام وفي سبيل ضمان الامن والدعة للمجتمع لا يعده لتقبّل الحضارة الشاملة والتقدم بها فقط، بل هو في تعاليمه القيّمة يُولي عناية خاصة بتفاهم الامم المختلفة المسلمة من ناحية، والإبتعاد بهم عن العصبية أمام ساير الامم من ناحية أُخرى. وهو يقرر بذلك بين الامم والشعوب أواصر قريبة جداً، ويدعم العوامل الاساسية للتقدم الحضاري، وهو بالتالي يحتوي على كل العناصر الايجابية والبنّاءة لبناء ثقافة انسانية وعالمية ضمن حضارته الشاملة.

لم يحدث في الاسلام ـ خلافاً للمسيحية ـ بين مباحث الدين والعلم نزاع وصِدام، بل يشهد التاريخ أن هناك علماء كبار تقدموا بخطوات ملفتة للنظر في ظل الإسلام وفي حدود الشرائط الزمانية والمكانية لهم في مختلف العلوم والحقائق التجربية، وكانوا بالنظر الى بحوثهم العلمية واستنباطهم للقواعد الانسانية روّاد العالم خلال خمسة قرون. والذي يسّر للمسلمين السبيل الى هذا الرقيّ المادي ومكّنهم من ذلك كان هو الإسلام، الذي رغّب المسلمين ما امكن في اقتناء العلوم والفنون حتى شوّقهم الى ذلك، ونفث بذلك نعمةً جديدة في عصر كان أسيراً بيد العصبيات القومية والدّينية (الباطلة) واستبدل بروح التعاون العلمي والحضاري تلك العصبيات السائدة في العالم القديم.

واليوم كذلك يتمكن الإسلام في هذا العالم المستسلم لسير المادة، من أن يبدي للبشر رسالته السماوية الخالدة، فالإسلام يحمل رسالة من صميم الواقع للإنسان الخالد غير الفاني، ورسالته هي الدعم والتأييد لتلك الحقيقة التي كانت ولا تزال، ولذلك فان رسالته هذه غضّة طريّة وجديدة، ويستطيع الإنسان في كل عصر أن يجد فيها معنى حياته وهدفه، وباتجاهه نحوها واتباعه لها ينجو من أمواج حياته المادية الفاقدة للهدف والروح.

إن المجتمع ـ أيّ مجتمع ما ـ لو سعى وجاهد لتطبيق هذا البرنامج السماوي السامي لانفتحت بوجهه أبواب السعادة الواقعية، ولحصل بفضله على حياة سليمة ومنتظمة.

وانا لا أشك في ان قراءة هذه المجموعة سوف تفيد لتنوير الاذهان والتعريف بكيفية الحضارة الغربية والإسلامية، لتصحيح نظرة الشباب الناشئ والجيل الحاضر في هذا المجال. وآمل من القراء الكرام أن يولوا مباحث هذا الكتاب الذي يطبع للمرة الرابعة العناية وان احتفاء مختلف الطبقات بهذا الكتاب لخير شاهد على مجتمعنا المسلم ولا سيما جيل الشباب أخذ يخطو نحو الحق والواقع خطوات جادة إلى حد ما، وهم يطلبون اليوم ما يعرّفهم بماهية الحضارة الحاضرة وجوانبها المختلفة.

السيد مجتبى الموسوي اللّاري

قم المقدسة، صيف عام ١٣٥٤هـ.ش

القسم الأول

سير الحياة، والحضارة الانسانية

كلما حاول العلماء البحث أكثر في طليعة الحياة على وجه الكرة الارضية تطاول صعيد البحث مع تاريخ ظهور الحياة الى أدوار اعمق واكثر توغلًا في القِدم، ولهذا السبب فقد أصبحت هذه المسألة تتسم بالاسرار ويُضاف في إبهامها وتعقيدها.

مع أنه لم تمض على ظهور الإنسان في الارض مدّة طويلة بالنسبة الى عمر الارض وتواجد الحياة فيها، مع ذلك ليس بأيدينا اليوم معلومات واضحة عن تطورات حياة الانسان والادوار التي مرّت على البشر ما قبل التاريخ. واستطاع علماء الآثار ببحوثهم في بطون الاتربة بما لديهم من أدوات ووسائل وبما اكتشفوا من آثار باقية من القرون الخالية، أن يقدموا لنا معلومات قيّمة عن أوضاع حياة الإنسان في مختلف الادوار. فهم على أساس بحوثهم هذه يقسمون عصور ما قبل التاريخ الى أدوار عديدة[1].

فالإنسان في العصر الحجري كان يحاول الصيد لدفع جوعه واستمرار حياته بأسلحة ساذجة كالاخشاب والاحجار، وهو في اضطراب دائم خوفاً من السباع والوحوش، فكان يلجأ الى زوايا الكهوف صيانة لنفسه من ضرّها وشرّها. كانت الانواء الجوية وتحولاتها تخيفه وترعبه، وكان يخاف من الظلام ويرهبه. فهو في ذلك العهد كان يُعدّ صيّاداً يبحث عن

(١) يقول علماء الآثار: لقد مرّت على البشرية أدوار مختلفة وتواجدت حضارات متطوّرة سادت ثم بادت ولم يعد بالإمكان إلّا اكتشاف آثار مبهمة عنها ومن الممكن أن يكون هذا الدور الاخير قد بدأ من آدم عليه السلام.

القدرة للانتصار على صيده، وكان يستعمل كل إمكاناته في سبيل ظفره بعدوّه، يصنع لنفسه من الحجر فأساً ومعولاً ورمحاً في أشكالها البدائية الاولى.

وعلى طول هذا الدور استطاع أن يُشعل ناراً فيطبخ بها طعامه، وينتصر بها على ظلام الليالي. ومرت قرون هكذا حتى خلّف المراحل البدائية للعصر الحجري القديم.

ومع دخوله الى العصر الحجري الجديد أحدث تغييرات في جوانب مختلفة من حياته. وان كانت أدوات أعماله ووسائل حياته لا تتجاوز الحجر، إلّا انّها خرجت عن صورها الساذجة السابقة الى اعتدال أكثر.

فهو من تكديس الاحجار والاخشاب صنع كوخاً لسكناه، وبالإفادة من الطين المختمر والشمس والنار صنع لنفسه أواني خزفية. وتوفّق الى حلّ رموز الزراعة وتأهيل الحيوانات والدواجن الاهلية، فهو يعرف اليوم كيف يزرع البذور ويربّي الاشجار، ويصيد بعض الحيوانات بالسهام والاقواس ويصيد السمک بالرماح، وترک خلف ظهره العصر الحجري تدريجيّاً، وترک ذكر مصيره للمستقبل، ودخل دور الصهر والحديد والمعادن.

وفي هذا الدور بدأت قصة الحضارة تنمو تدريجيّاً، وتصوّرت حياة الإنسان بصورة جديدة، ودخلت مرحلة أُخرى.

فلم يَعدُ هو بعد حيواناً جائعاً يسعى وراء طعامه دائماً، والحوادث المختلفة سببت في ان يعطف نظره عن بطنه الى العالم من حوله، وكلما زيد في فتوحاته في حروبه مع الطبيعة ضوعفت بنفس النسبة حوائجه. وبكلمة فان ذلک الموجود الذي انتصب قائماً في ساحة الوحوش اختار طريقاً انتهت به الى هذه الحضارة الحاضرة اليوم، وبينما كان محصوراً بين جدران الجهل توفّق الى ان يجد للخلاص سبيلًا الى عالم العلم والمعرفة.

إن الذي كان ولا يزال يميّز الإنسان عن الحيوان كان شيئاً روحياً ذاتياً هو العقل والإدراک الذي هو من أعجب ظواهر الحياة، فوراء عينيه كان عقله، وكان يحسّ في باطنه بقوة تجذبه الى طرق بديعة وجديدة، وفي كل خطوة يخطوها كان يشعر في باطنه باضطراب من حبه للاستطلاع الى جانب ضوء خافت من الاعتماد والثقة بالنفس. وكل ما أحدث التاريخ وغيّر من أُسلوب حياة الإنسان كل ذلک من الاعمال العجيبة لهذا الشيء المرموز غير المرئي والذي لا يوصف أي «العقل» فالإنسان في ظل هذه الموهبة يشاهد الاشياء بدقة ويفكر فيها

بإمعان ويتعلّم منها بالتجربة، ثم يدّخر معلوماته في مكان غريب محيّر في المخ باسم القوة الذاكرة، فينتفع ويفيد منها في الماجريات والحوادث المستجدة.

في الالف الرابع قبل ميلاد المسيح تقدم البشر في مختلف شؤون الحضارة: فظهرت لديه الكتابة بالالف والباء والصناعة والتجارة، وتأسس المهم من عناصر الحضارة. ففي هذا الدور مدّ يده للبناء بل المعمارية بالاحجار الكبرى المقدّرة، واستخدم الصفر والنحاس ثم الحديد لصناعة الادوات ووسائل الحياة. وتأسس الدين الإلّهي الكبير، فظهر إبراهيم عليه السلام في أرض بابل، وأمره الله أن يتكفّل بهداية المجتمع البابلّي الضال، والافكار غير المنطقية. ولذلك فقد قام أصحاب تلك العقائد وذووا تلك الافكار بالإصطفاف أمامه لمقاومته، وكانت جبهة نمرود هي الاقوى التي كانت ترى دعوة إبراهيم خطراً جاداً يهدد كيانها، فقام نمرود بتوظيف كل طاقاته وقدراته لمضادته. ولكن إبراهيم بنشره لدعوته التوحيدية وكفاحه المتتابع ضد الطغاة الظالمين حطّم بالتالي القدرة الشيطانية لنمرود. وبعد أسفار طويلة حيث انتهى به المطاف الى أرض الحجاز أسّس بيت التوحيد بمساعدة ولده إسماعيل عليهما السلام.

وبعد عهد الحديد نصل الى الدور التاريخي الاول والمرحلة التاريخية الاولى.

استطاع التاريخ أن يسجّل الحوادث منذ سبعمئة وخمسون سنة قبل ميلاد السيد المسيح. كان قد مضى قرنان على تأسيس السلطة الرومانية إذ بدأ زرادشت بنشر أفكاره في إيران. وقد نشر كل من لائوتسه وكونفوسيوس في اليابان والصين، وبوذا في الهند أفكارهم الدينية الفلسفية، وتربّى أرسطو وأفلاطون في اليونان. و في حين كانت الروح المادّية قد نفذت الى كل حياة الناس أمر السيد عيسى المسيح(ع) باصلاح المجتمع، كي ينقذ البشرية من مخالب مادّية اليهودية، فقام بتهذيب أخلاق الناس ونفوسهم لنفي الفساد والضلال.

ومن المظاهر الظاهرة لهذه الدورة وسائل الإرتباط والمواصلات، والبنايات والصناعات، والطب (اليوناني القديم) والقرون الوسطى تبدأ من سنة ٤٧٦م وهي تحفل بحوادث كثيرة، فالكنيسة تحكم أفكار المجتمع علاوة على قدرتها الروحانية، والجهل والتشتت والتوحش وسفك الدماء من سمات هذه الدورة في اوربا،وفيها تتأسس الحضارة الإسلامية في الشرق

الاوسط، وسنبحث عنها في القسم الثاني.

وابتدأ دور التجديد من سنة ١٤٥٣م مع دخول السلطان محمد الفاتح الى استانبول وسقوط سلطة الروم الشرقية، وقامت دول عظمى كبريطانيا وفي فرنسا والمانيا والنمسا. وباكتشاف البوصلة القطبية قطعوا مياه البحر الاطلنطي واكتشفوا القارة الامريكية. ومن مظاهر هذه الدورة النهضة الفكرية والعلمية، وتأسيس العلاقات الدولية وتعاظم الدول الكبرى.

وبعد الثورة الفرنسية في سنة ١٧٨٩م أصبح العالم عالم الصناعات، وتقدمت الإكتشافات والإختراعات بسرعة، وتجدّد كل شيء، وبدأ العالم الاوروبي بهذه الثورة الاوروبية فصلًا جديداً في تاريخه.

تقييم الحضارة الغربية القائمة

هذا العالم الذي تربيّنا نحن فيه ونعيش في كنفه، قد بلغ بقافلة الإنسانية الى مرحلة محيّرة من مسيرته الاجتماعية. انّ البشر اليوم يعيش مرحلة التطور والثورة الفكرية، وقد تجهّز بالقوة العلمية العظيمة، وهو كل يوم يدرس حوائج الحياة في حدود أفكاره ثم يحاول قضاءها، وعلى أثر انتاج هذه المصنوعات وتقدم العلوم قد ارتفع حظ وافر مما كان يبديه إنسان الامس أمام المشاكل من عجز وضعف وهوان، إذ انّ العلم قد رفع قسطاً وافراً من تكاليف الإنسان عن كاهله ووضعه على كاهل الماكنات الصناعية، وبالتالي فهو يفيد اليوم من مزايا الحياة أسهل وأيسر، وكذلك فان تواجد الوسائل والادوات العلمية قد وفّر على البشر إمكاناته للبحث عن أسرار العالم الرحب وزاد في كمية فعالياته ونشاطاته.

وبدهي أنّ دوران نشاطات الحياة قد اتّخذت سرعة غريبة على أثر تكاثر فرص الاعمال، فالزمان الذي كان ينقسم الى الليل واليوم للعمل والنوم، ولم يكن للوقت قيمة، يقاس اليوم بمقاييس الدقائق والثواني، وتتحقق الاعمال العلمية الملفتة للنظر في مدة قليلة.

قبل اكتشاف قوة البخار والبرق كانت السفن تتحرك بالرياح، أمّا اليوم فان البشر يفيد من السفن البخارية الكبرى على أثر تطوّر المكائن الكهربائية والبخارية، ويفيد كذلك لاسفاره وحمل أثقاله من السيارات والسكك الحديدية والطائرات الضخمة بدل الدواب ذوات الاربع، فيطوي المسافات الكثيرة في مدة قليلة. وأفكار البشر اليوم لم تعد محصورة في الارض بل تعدّت آفاق الارض مادّةً ببصرها الى الكرات الاخرى لتسخيرها، وبالتالي فقد جعلت

آفاق السماء وأعماق البحار ساحة لتجوالها.

مر على البشر عهد لم يكن له عن هذا العالم العظيم من المعلومات سوى شيء ناقص بل لا شيء، بينما اكتشف اليوم حقائق محيّرة بشأن عالم الوجود، وقد رفع الستار عن وجه عجائب العالم والاحياء الميكروسكوبية بقدرة العلم والبحث الدراسي ومن خلال المختبرات، وقد جُهزت المختبرات بأحدث أنواع الوسائل والادوات، والميكروسكوبات الالكترونية تبدي الموجودات أكبر من حجمها بآلاف المرّات.

والخلاصة: ان المزايا والنتائج التي قدمها العالم الغربي في العصر الحاضر لشعوب العالم ليست مما يمكن التغاضي عنه، وليس بإمكان أحد أن ينكر كل وسائل الإنتاج وتوفير منابع الثروات وكل التسهيلات التي ظهرت في هذه الحضارة المعاصرة.

وبالنظر الى الصحة والطب فان هذا التطور والتقدم ملفت للنظر جداً، فقد كان هذا العلم في السابق يطوي أدوار ضعفه وعجزه، فلم يكن يجد لكثير من الادواء أدوية، وكان الاطفال قبل أن يقدموا الى ساحة هذه الدنيا هدفاً لمختلف الامراض الفتاكة، فكان بعضهم يُسرحون الى ديار الموت والعدم، والبعض الآخر ممن أصابه المرض بضربات مؤثرة عليه أن يقضي عمراً مليئاً بالاتعاب والآلام، ولا نستطيع بعدُ أن ننسى أو نتناسى الخواطر المؤلمة من الامس القريب.

إن حياة البشر وإن كانت منذ أن قدم الى هذه الكرة الترابية متغيرة متحوّلة، ولا يختص هذا التغيير بزمان خاص، ولكن سرعة الابتكارات والإبداعات العلمية والفنية له في العصر الحاضر بحيث أصبح لهذا المقطع الزمني ميزة خاصة حتى سُمّي عصر انتصار العلوم والفتوحات العلمية ويلزم أن نضيف هنا نقطة أُخرى هي أنه مع كل هذا الرقي والتقدم العلمي المحيّر ومساعي علماء العلوم الطبيعية بهدف التعرف على أسرار هذا العالم، مع ذلك لم يُقرأ لحدّ الآن من أسرار هذا الكتاب سوى بعض الحروف الهجائية الاولى.

ومع كل الاسف علينا أن نعترف بأن في الحضارة الغربية الحاضرة ـ مع كل ما لها من مظاهر ملفتة للنظر ـ قصوراً ونقاط ضعف كثيرة ليست هي من حيث الكبر والاهمية بأقل من جوانبها الإيجابية، وكما علينا أن نقدّر العلم والثقافة والحضارة التي وفّرت للمجتمع وسائل الرفاهية والتي فتحت في كتاب البشرية فصلًا جديداً، كذلك لا نتمكن من أن نغض

النظر عن افتقاد الفضائل التي ترتبط بها السعادة الإنسانية، وعن الإنحطاط الذي أصاب المجتمع المتحضّر نتيجةً لهذه الحضارة بالذات.

إنّ الصناعة الغربية قد ارتقت الى أوجها، والإبداعات البشرية تتحقق في هذا المجال بكل شمول وسرعة، ولكنّ الحياة الروحية للناس قد بلغت حدّ الصفر، فبنفس النسبة التي تقدم العلم تنزّلت الافكار، وتوسعت عوامل الاختلاف والتنازع.

إنّ الغرب قد ترك القيم الروحية والإنسانية، وقد تقبّل أن يتكبّل بربقة عبودية الماكنة، ولا ريب في أن عبيد الماكنة لا يتوصّلون الى السعادة والراحة الحقيقية. إن العلم الصناعي ينظّم الحياة وهذا النظام يستلزم الرفاه، ولكنه لا يخلق السعادة، فالسعادة ليس من صنع العلم بل هو أمر آخر، إذ العلم الصناعي لا يعرف النافع والضار والحسن والقبيح وإنّما بإمكانه أن يميّز الصحيح عن السقيم. ولو كان نظام الحياة للبشرية نظاماً علمياً فقط لكانت الحياة جحيماً لا يطاق، وحتى «راسل» كان يقول: يجب أن نحارب هكذا نظاماً.

في حين جاءت الحضارة للبشرية بهدايا قيمة، جاءت معها كذلك بانفلات من القيود مع آلاف المفاسد والجرائم المهولة والمهلكة، وأصبحت نيران الاهواء والشهوات اللّانهائية تهاجم لحمة الارواح وسداها بلا هوادة ولا رحمة، وبذلك فقد سلبت الناس الراحة الروحية والفكرية والامان. فالعلم الصناعي ليس لم يسرج في ساحة الحياة المعنوية سراجاً بل أضافها ظلاماً وعتمة.

إنّ هذا الفتح والإنتصار العلمي الصناعي كان كالفتوح الحربية لها خسائر ومصائب لا تُجبر، وكل زهرة تتفتح في حديقة هذه الحضارة تنبت الى جانبها أشواك مهلكة أيضاً. السيارات والطائرات والمصانع والمعامل ووسائل العمليات الجراحية وأدوات الراحة والرفاهية هي هدايا قيّمة لهذه الحضارة الحاضرة، ولكن نفس هذه الحضارة جاءت للبشرية كذلك بالقنابل المدمّرة والغازات السامة القاتلة والطائرات الحربية والصورايخ والاشعة المهلكة، الى جانب الجرائم الاخلاقية الجنائية.

في العالم المتحضّر يكون العقل نفعياً يخدم المنفعة، وكأنه لا يدرك شيئاً سوى النسب المادية، ولذلك فقد انعدمت الفضيلة المطلقة، وتناسى الناس كثيراً من المفاهيم الاخلاقيـة، وهذه جراحة في روح البشرية لا تلتئم.

مع أن بيئتنا بعيدة عن ساحة الحركات والفعاليات الصناعية، إلّا أن مظاهر الحضارة قد تطرقت الى مجتمعنا ولا سيما الشطر الثقافي منه، وهي تسيل علينا بسرعة وبشدة، ذلك ان الحدود الدولية منفتحة اليوم بوجه كل الافكار والاخلاق الاجنبية، فالعادات والتقاليد تنفذ من دولة الى دولة. والعلوم والافكار الصحيحة وان كانت بدورها مشمولة لهذا القانون نفسه، إلّا أن المفاسد الاخلاقية والروحية لتناسبها مع الميول الشهوانية والغرائز الطاغية، فهي تؤثر أثرها أسرع وأعمق، ولذلك فمع عدم مشابهة مجتمعاتنا مع المجتمعات الغربية بالنظر الى التقدم العلمي والصناعي، نرى فيها أتم نماذج المفاسد الغربية وانفلاتها.

إن أكبر هزيمة أخلاقية لمجتمع ما هو أن يفقد قوة تمييز الخير والشر والحسن والقبيح، فان هكذا مجتمع سوف لا يظفر بالسعادة أبداً.

نأسف أن بعض المنبهرين بحضارة الغرب إنّما انبهروا بظواهرها، وهم لا يرون مصائب العصر الحاضر والإنحطاط الاخلاقي فيه. إنّ العالم المتحضّر يعرض الجوانب الظاهرية السطحية لحضارته في احتفالاته، ولذلك فان هؤلاء المنبهرين حينما يذهبون الى تلك البيئات يفتقدون قوة التفكيك والتمييز بين القضايا والجهات، فيرون كل أساليبهم غير الحميدة وخصالهم غير الصحيحة صحيحاً، ويفتقدون أنفسهم أمام المظاهر الخلّابة والعظيمة صورياً بحيث يشعرون بالنسبة الى أي اختلاف يرونه بين آدابهم ورسومهم وكلامهم وبين مثل ذلك في الغرب، يشعرون بنقص في جانبهم مُخجل، وبدل أن يبحثوا ويحقّقوا عن عوامل تقدمهم وبلوغهم الى تلك الغايات، يرجعون و هم يحملون هدايا من مفاسدهم الروحية و جرائمهم اللاأخلاقية. هذا الإنبهار الذي هو من أبرز العيوب وأكبر الادلة على فقدان الشخصية والاستقلال الفكري، والذي يلازم الجهل بجمال الثقافة الوطنية والدينية وبلاغتها، هذا الإنبهار، يؤثّر أثره التحريفي بالنسبة الى العقائد الدينية، فهم من حيث لا قدرة لهم على أن يحلّلوا القضايا بدراسة عميقة شاملة فيميّزوا الخير والشر والحسن والقبيح من الاعمال والامور، لذلك ينكرون كثيراً من الحقائق رأساً.

إنّ الامم الاوروبية توفّقوا لان يصلوا الى هذه الحضارة الباهرة من دون أن ينسلخوا عن دينهم وآدابهم ورسومهم، واليابان أيضاً مع احتفاظها بآدابها ودينها ورسومها ومميزاتها وخصائصها طارت نحو الحضارة كالبرق الخاطف حتى اصطفّت في عِداد الدول المتقدمة،

تمكنت هذه الدولة من أن تُخرج نفسها من ضمن الدول المتأخرة وتأخذ مكانها الى جانب أكبر الامم المتحضرة في غضون ستين سنة، ولم تصبح مصابة بمرض الإنبهار والهزيمة النفسية أمام الغرب فلم تقلّد الغرب واوروبا عمياء، بل جاهدت للإحتفاظ بدينها وقوميتها وآثار أسلافها بتعصب شديد، فكما كانت تعمل قبل قرون لا زالت اليوم أيضا تحترم دينها القديم «البوذي = شنتوا» ذلك الدين الذي لا تخفى سخافته على أي عاقل لبيب.

و لكنّ مثقفينا غير الواقعيين الذين ليست لديهم قاعدة فكرية صلبة، وهم عاجزون عن تحليل أوضح المسائل الاجتماعية وادراك أبسط الدساتير الدينية، يستقبلون أي انتقاد في اعتقادهم الديني بكل فخر و سرور! كي يثبتوا أنهم مثقفون تماماً! إنّ هؤلاء المغفّلين لايتمكّنون من أن يفكّروا بحرّية بشأن حقائق الامور وواقعيات الحياة فيدركوا الحقيقة بتجوال أذهانهم وبالبحث والتنقيب. بينما من الملفت للنظر أنّ النشاط الفكريّ للبشر في مختلف شؤون الحياة المادية والتحولات العجيبة والتطور العظيم الذي حدث في ساحة حياة البشر، إنّما هو نتائج أتعاب علماء منهمكين بالجهاد العلمي في زوايا المختبرات وهم بذلك يسخّرون قوى الطبيعة بقوة العلوم وبأيديها، وانّ الانتصار في ساحة الحياة إنّما هو نتيجة سعي دؤوب لا لهذه المظاهر الحضارية. أفهل يمكن أن يكون التقدم في الصناعات والاختراعات من نتائج الإنفلات والإنغماس في الشهوات والاهواء؟ أضف الى ذلك أن التطور في العلوم المادية والمعنوية ليس على وتيرة وشاكلة واحدة، بل هو في جهتين مختلفتين بل من الممكن أن يكون التقدم في جهة منهما متزامناً مع التقهقر في الجهة الاخرى.

أحد أساتذة الجامعات الاوروبية قال في مؤتمر علمي بطهران: «إنّ الغرب يحتاج في المعنويات الى الشرق، وإنّ المعنويات في الشرق أغنى من الغرب بكثير، فلو كان الشرقيون يفيدون من صنائع الغرب فان على الغرب أن يفيد من المعنويات في الشرق كذلك».

إنّ المجتمع البشري يحتاج لحياته الى أُصول أُخرى سوى التكنولوجيا والثقافة الصناعية، ولو أن نظاماً سياسياً اجتماعياً فصل المجتمع البشري عن الفلسفة الاصيلة للحياة، وأصبحت الحياة تقضي سيراً حثيثاً في سبيل المعاش على وتيرة واحدة عارية عن أهداف مشتركة مقدسة، لسادت حياة الجماهير البشرية خشونة ظالمة.

نأسف أنّ دنيا البشرية اليوم تقضّي دور الطفولة، وهي لم تبلغ حدّ رشدها كي تتمكّن

من أن تفيد من الذخائر الثمينة الدفينة في بطن الطبيعة، ومن رأسمالها الوجودي في سبيل سعادتها، ولنفس السبب فهي كالاطفال تتأثر بعواطف الطفولة أكثر من أن تتقيد بالحقائق العقلية في أكثر شؤون حياتها، فالاحاسيس قد استخلفت العقل والمنطق، ولا زال العقل البشري في قيد الاوهام ومخالب الخرافات، أعم من أن تظهر هذه الاوهام والخرافات في صورة عبادة الاصنام، أو أن تبرز في ساحة حياة الامم المتقدمة والمتحضرة في صورة التعبّد بالعلوم المادية التجريبية فقط. والبشرية اليوم بعد ما شاهدت من التجارب المرّة في طول الانحرافات الجديدة، أدركت أنها إما أن تخضع للهداية الى الصراط المستقيم أو أن تذهب الى الفناء والدّمار. يقول العالم الاجتماعي الشهير «سوروكين»:

«كل من الجوانب المهمة للحياة والحضارة للمجتمع الغربي قد أصبح في اضطراب غير عادي، فإن هيكل هذه الحضارة وروحها مريضان بشدة، ولا نتمكن من أن نجد نقطة غير مصابة في هيكل الحضارة الغربية أو عصباً في شبكة أعصابها يؤدي وظيفته تماماً إلّا بعسر وحرج شديدين. نحن نعيش اليوم في برزخ بين العصرين: بين نهاية عصر الثقافة المادية العظيمة بالامس المحتضرة اليوم، وبين طلوع الحضارة المعنوية المبدعة لغد أفضل. نحن من حيث حياة الفكر والعمل نعيش في أواخر دقائق اليوم الطويل للحضارة المادية، التي كانت تلمع لستة قرون، ولا زالت الاضوية الخافتة لشمس الاصيل تشّع على جلال عصر قد آذن بوداع، ولكن هذه الاضواء ليست ساطعة، وأنوارها لا تبعث على الامل. وفي ظلال الغروب التي تتزايد ظلمتها يصعب على سالكي الدروب أن يميّزوا اتجاهاتهم، وإنّ الامسية الطويلة لغروب الحضارة تتراءا أمامنا بكل ما فيها من كابوس وأشباح وظلال وظلام مرعب مرهب وبما فيما من ارهاب ودهشة مؤلمة. وباحتمال قوي فآن وراء هذا الليل المهول سيستقبل الناس القادمين صبحٌ صادق لثقافة جديدة، ثقافة جامعة ومعنوية»[1].

الـلبعيد عن النظرة الواقعية جداً أن نقبل بكل تقاليد الآخرين وطقوسهم ونتّبعها بتقليد أعمى، فالمقلد ما دام هو مقلداً يخضع لنير الحاجة الى من يقلّده، والإبداع منبع الاستقلالية كما أن التقليد يسبّب التطفل ويخرّب الاستقلال. نعم لو كان التقليد اقتباساً بحيث إذا أخذ

(١) بالفارسية: خداوند دو كعبه: ١٩.

شيئاً بإحدى يديه عرضه بيد أخرى بعد الاصلاح والترميم الى عالم العلم والصناعة، كان ذلك اقتباساً حسناً ممدوحاً.

لا شك أننا كلّما أصبنا في أفكارنا وأخلاقنا بالاضطراب والقلق أو التأخر والتقهقر، فذلك بعامل اختلاط الافكار التقليدية والخامدة، ويشتد هذا الخطر أكثر تبعاً لنسبة ابتعادنا عن الحالة الاخلاقية والتاريخية لانفسنا.

يقول أحد المفكرين الإسلاميين الكبار:

«نحن لا نقول ان علينا أن نختار العزلة الاجتماعية والفكرية، وأن نجتنب مسيرة الحضارة التي تتقدم الى الامام لا محالة، نحن أعضاء هذه القافلة وشركاء هذا الركب، بل نحن المسلمين الذين قدّمنا رأسمال ضخم من الحضارة الإنسانية للمجتمع الإنساني، وبأفعالنا الإيجابية ونشاطاتنا الكبرى تأسس هذا البناء العظيم. ولكننا – مع الاسف – لا نهتم اليوم بهذا الامر ولا نحتفظ بفخر التقدم ولا نقدّر ذلك من أنفسنا. وانّما يتقيّم هذا التوفيق الذي توفّقنا نحن إليه فيما إذا خلصت قلوبنا وأفكارنا عن الشعور بالاستعمار والرّقيّة واستبدلت عنها أفكار الاحرار! ولكنّ الويل من عادتنا على التكدّي المذلّ حيث نقف على أعتاب أولئك أيدينا على صدورنا كالعبيد، ولا نردّ هذه العوارى الى أصحابها. يا حبّذا لو كنّا نفعل ما هم يتبعونا فيه.

وللحضارة هنا معنيان: أحدهما أن لا نفتقد حظّ إسهامنا الممتاز في بناء الحضارة وأن نحتفظ بأسلوبنا الثابت الذاتي الذي ينبع من أصول حياتنا، علاوة على ساير التجارب الإنسانية في مصداقيات الحياة.

والمعنى الثاني: أن نختار الظواهر الخلّابة التي قد أعدّها الآخرون لانفسهم بما لها من مميزات معينة، من دون أن نفكّر بشأنها أو ندرسها أو أن ندخل فيها من حضارتنا شيئاً.

فالحضارة الاولى تعني حضارة منسجمة مع الافكار الانسانية . ولكن المعنى الثاني لها هي حضارة تليق بالقرود المقلّدة»[1].

إن الروح المادية وإن كانت قد بلغت بين الامم المتحضرة الى حدّ الإفراط، ولا هدف

---

(١) بالفارسية: اسلام و ديگران: ٤٢.

عملياً للفرد الاوروبي في حياته سوى أن يجعل حياته نفسها بمثابة الهدف النهائي، ولكن -في نفس الوقت- هناك كثير من الناس متقيّدون بمعتقداتهم الدينية، ولهم به ارتباط وعلاقة خاصة، اعني نفس الدين المحرّف المسيحي المختلط بأنواع الخرافات فلم يعد يقدر على قضاء حوائج الناس النفسية والمعنوية، ومن العجيب أن هكذا دين يسود العالم المنحط وهو يشكّل الكادر الروحي والمعنوي للحضارة الغربية.

فأيام الاحد نرى جميع المؤسسات والحوانيت معطّلة، وتصل الى الآذان من كل مكان أصوات نواقيس الكنائس التي لها جرس خاص، ويجتمع في الكنائس مختلف طبقات الناس فيصغون الى كلام القسيس بكل متانة، وتُعرض من التلفاز برامج دينية خاصة على أنظار المشاهدين. والملتزمون دينياً يتقيّدون بأن يذهبوا بوليدهم بعد الميلاد الى الكنيسة ليتم مرسوم تسميته على يد القسس وليقرأ في اذنيه تراتيل دينية خاصة!!

ورجال الدين موضع إكرام الناس فيسمّونهم «الاباء الروحيين» ولتأمين الميزانية الثقيلة للمؤسسات الدينية تأخذ الدولة من الناس ضرائب، والناس مأخوذون بدفعها الى الدولة سواء شاؤوا أم أبوا، والدولة تجعل ما تأخذ لذلك تحت تصرف الكنيسة، وهكذا يُدار جهاز الروحانية المسيحية بميزانية كافية وتجهيزات تامة.

وتراقب المنشورات برعاية لجنة خاصة باسم «لجنة المنشورات» تلعب الكنيسة فيها الدور الاساس، وتُبرمج البرامج الدراسية الابتدائية والثانوية تحت نظارة رجال الكنيسة، وطلّاب المدارس حتى السنة الدراسية التاسعة يُجبرون على الحضور في الكنيسة يوم الاحد، وأن يشاركوا في الحضور في البرنامج المعدّ لهم والذي يُعدّ من دروسهم في التعاليم الدينية، والعجيب أنّ على الاطفال الابرياء الذين لم يرتكبوا ذنباً أن يذهبوا الى المحل الخاص بالمذنبين فيعترفوا بالذنب أمام القسّيس!

والافلام السينمائية تُراقب قبل النشر من قبل لجنة متشكّلة من رجال الكنيسة والاطباء وعلماء النفس وعلماء الاجتماع والاقتصاد، فتلاحظ من جميع الجوانب الدينية والنفسية والاجتماعية والاقتصادية، فاذا لم تُرد صدر الاذن بنشرها.

كان – مع الاسف – كاتب هذه السطور طريح فراش المرض في إحدى المستشفيات الكاثوليكية في ألمانيا اضطراراً، وكانوا يباشرون بمراقبتي الطبيبة والخدمات

بصفتي عالم دين إسلامي، وكان في كل غرفة من غرف المستشفى تمثال من السيد المسيح عليه السلام ونقوش عنه وعن أمّه السيدة مريم العذراء البتول عليها السلام، وعصر كل يوم كانوا يدعون لشفاء المرضى بانتظام.

وفي بعض الايام كنت أرى أنهم يوقدون شموعاً عند تمثال السيد المسيح عليه السلام. انظروا: يوقدون شموعاً عند التمثال في وضح النهار وذلك في مركز من مراكز العلم والمعرفة! ثم قارنوا: لو أوقد رجل من عوام الناس شمعاً في ليل مظلم على مرقد إمام أو ابن إمام في بلادنا كيف يصبح عرضة لاستهزاء الشباب المثقف! ويتهمونه بالرجعية والتأخر؟! بينما أولئك يحترمون حتى عقائد الاخرين.

لا أنسى حينما كنت بحاجه الى تزريق الدم، سألني رئيس المستشفى: أيّ دم يجوّز الإسلام تزريقه في المسلم؟ فهل يجوز للمسلمين أن يفيدوا من دم غير مسلم؟ وعلى أي حال فإنّا سنحضر لكم الدم وفقاً لدستور الإسلام!

وفي المجتمعات المتقدمة يعترف الناس بحدود للحرية، ولا يسيئون الإفادة من الادوات الحضارية، فالتلفزيون مثلًا يبث سلسلة من الدروس أو الالعاب الرياضية أو الاوضاع الطبيعية وأسلوب المعيشة من بلاد بعيدة نائية، والخلاصة أن أكثر بثه مما يفيد من المعلومات العامة.

لا يحق لاحد عندهم أن يرفع صوت الراديو بحيث يزاحم الجار أو العابرين بحجّة الحرية الشخصية، ولا يحق لصاحب أي بيت أن يعقد مجالس خاصة للسهرة حتى منتصف الليل فيجعل بذلك مجاوريه تحت الضغط والالم الروحي، بل لا يُسمع صوت الراديو من أي ناحية من المدينة.

ولا زلت أتذكّر أنه وفي يوم من الايام أخذ يرن في الفضاء قرب الفندق الذي كنت أُقيم به هناك صوت من راديو، وكان لاول مرّة أسمع صوت الراديو في ذلك المحيط أو تلك البيئة، وكان ذلك صوت موسيقى إيرانية! وحيث كان الموضوع لي جديداً تماماً كنت أنتظر كي أبحث عن ذلك في فرصة مناسبة فاطّلع على الامر. واتّفق أن زارني أحد الإيرانيين الساكنين بتلك النقطة المجاورة بعد ذلك بيوم، فاغتنمت الفرصة وطارحته الموضوع، فسكت المواطن العزيز لحظة ثم اعترف – ولا تعجبوا من ذلك – بتبسّم ممتزج بخجل أنه هو الذي فعل تلك البدعة يوم أمس!

حقاً من المؤسف أن الإفادة من هذه الادوات والوسائل قد انحرفت عن مجاريها الصحيحة والاصولية وأصبحت بوضعية فاضحة[1] فالجميع يعلمون أن المناظر التي تشاهد من التلفزيون كيف وكم تؤثر في الانحطاط الخلقي للمجتمع وتترك آثاراً غير محمودة، علينا أن نعترف أن النتيجة الوحيدة لمشاهدي هذه البرامج الخاطئة وغير الصحيحة إنّما هي الخسارة المعنوية والضياع والضلال فقط. وأصوات الراديوات أيضاً تسمع من كل زاوية وجانب، فهي في كل لحظة تعذّب الاعصاب والروح الإنسانية.

إن المخترعين والمكتشفين لم يحددوا أي ضمان لكيفية الإفادة من أدواتهم، بل لم يكن ذلك من الممكن لهم، ولم يصدق أولئك أن هذه الادوات التي من الممكن أن يفاد منها إفادة صحيحة تستعمل يوماً في بلادنا مثلًا في سبيل إيذاء الناس واختلاق الآلام لهم.

إنّ جميع الظواهر الصناعية وكل الوسائل والادوات العلمية داخلة تحت هذا الامر، وعليه فالذي ينبغي بل يجب أن يلاحظ بعناية هو كيفية الإفادة من هكذا وسائل، وذلك يرتبط بنوع وكيفية تربية تلك الشخصية التي تتصرف في هذه الادوات، فان لكثيرٍ من الناس أسلوباً خاطئاً في التفكير بل كثير منهم بلا منطق ولا تفكير أو ظالمون فيه أصولا! و من سوء الحظّ والتعاسة أن سلوكاً كهذا يسري الى الافراد الآخرين ممن لهم أمزجة مستعدة تماماً كالامراض المسرية المُعدية، ثم هم يتسابقون في الإفادة الخاطئة من هذه الوسائل، وكأنّ كلا منهم يريد أن يكون له الحظّ الاكثر والسهم الاوفر من هذه المسابقة في تعذيب الآخرين. أجل هذه هي كيفية الإفادة في مجتمعاتنا من تطور وسائل الحياة المادية. وعلينا أن نبحث عن أصول هكذا نماذج مؤسفة في إنعدام العلم والمعرفة الواقعية بينهم، فهل بالإمكان أن نقول: لا دخل لجهل الناس في ا يجاد هكذا وضعية؟ أفليس عاراً على مسلم أن يبتعد الى هذا الحدّ عن مراسيم الإنسانية وآدابها والاصول الاخلاقية فلا يعرف أي حد لحريته؟! هذه هي نوعية خاصة من حبّ الذات المفرط واللّاحدّية يُعمل بها هنا باسم الحرية! ولا نريد أن نقول بأن الحياة الاوروبية خلو من هذه النقائص والنواقص، على العكس من ذلك، ففيها نقائص ونواقص كثيرة سنبحث بشأنها بتفصيل، ولكنهم يراعون هذه الامور على الاقل[2].

---

(١) و (٢) يلاحظ القارئ الكريم أن هذا الكلام إنّما هو عن الواقع السيّئ قبل انتصار الثورة الإسلامية في إيران.

عوامل انتشار المسيحية

ليس للمذاهب والاديان الموجودة في العالم في هذا العصر الحاضر أعم من كونها سماوية أم لا أيّ نموّ أو تقدم، لما حدث فيها من تحريفات ونواقص مختلفة، بل هي تتقدم يوماً بعد يوم نحو الإنحطاط والسقوط! نعم للمسيحية بين الاديان محاولات ومساعي في كل العالم ملفتة للنظر، ويقابلها الإسلام، بحيث أصبح في العصر الحاضر الإسلام والمسيحية يتقابلان في جميع العالم.

وتقدم المسيحية ليس وليد عامل خاص، بل هناك عوامل عديدة تعاضدت فأوجدت للمسيحية موقعية حسّاسة. إن سعة دائرة التبليغ والدعاية عامل قوي لتقدم أيّ دين بحيث يصبح بالإمكان أن تسيطر تلك الدعايات على أفكار المجتمع فتجرّها الى هدف شاخص، فالإنسان يتأثر بالتلقين طبعاً ويؤثر التبليغ في روحيته وحياته أثراً عميقاً.

وعلى أثر النهضة العلمية والاجتماعية الاوروبية «رونسانس» في هذه القرون الاخيرة، التفت رجال المسيحية الى هذا الامر بصفته أمراً حيوياً، فبادروا الى تبليغ ممتد وواسع، وهم بالإفادة من عناصرهم المنتظمة يسعون بكل قواهم الى أن ينشروا دينهم في جميع نقاط العالم.

فمن ناحية شملت مساعيهم الشاملة وأمواج دعاياتهم الدينية جميع الامم المتحضرة، ومن ناحية أُخرى: فان اتّجاه الناس المفرط الى الماديات قد حدّد من نفاذ أفكارهم وسلبهم قوة الغور والتحقيق في الامور المعنوية، فان الظواهر الخلّابة للماديات قد غطّت كالستائر القاتمة السوداء على أفكار الناس فلم تدع لهم مجالا للبحث عن الحقيقة، و ليستطلعوا

ويفحصوا عن الدين والامور الروحية. ومن ناحية ثالثة: فان نشاطنا التبليغي محدود جداً، ونحن فاقدون لما هو ضروري من وسائل وأدوات التبليغ والدعاية، فمع وضعنا القائم هذا لا نستطيع أن نعرض الإسلام و تعاليمه المقدّسة وصورته المشرقة الى العالم المتقدم اليوم، ولا نتمكن من أن نبين ما فيه من مميزات وخصائص.

منذ قرون لم يقم المسلمون بمساعي مهمة لنشر الإسلام، والنهضة التي حدثت في القرون الاولى توقّفت تدريجيّاً على أثر عدم صلاحية عدد من الزعماء ومُدراء الامور في الحكومات الإسلامية،حتى حدث انشقاق عظيم في الجبهة الإسلامية الواحدة، فافتقدت الدول الإسلامية لنفوذها العالمي بسبب الهزائم السياسية التي مُنيت بها، بل تقطّعت الى قطع متناثرة تحت مخالب الاستعمار الغربي قطعة قطعة!

نظام قيادة الكنائس وما فيها من فجائع!

حيث لم يكن للمسيحية أصول وقوانين وأسلوب خاص لإدارة الامور الاجتماعية وكانت من هذه الجهة مصابة بالفقر والحرمان لذلك كان النظام الروحاني المسيحي لا يتدخل في الامور الاجتماعية والسياسية والحكومية.

دام هذا الوضع حتى القرن السادس الميلادي. ولكن منذ سنة ٧٥٦ ميلادية حيث اقطع ملك فرنسا قسماً من الاراضي تحت تصرفه الى البابا، بدأ عهد السلطان والجلال الماديّ للروحانية المسيحية، وقوي جهازهم الديني مالياً واقتصادياً، وبرزت مصادمات بين رجال السياسة والقادة الدينيين من أجل بسط النفوذ سواء شاؤا أم أبوا، واشتدت الحروب بين البابوات والامپراطور على الحكومة المطلقة على اوروپا.

والناس كانوا يرون الكنيسة مظهر روحانية المسيح ولذلك أصبحوا من هواة رجالها وأنصارها، وكذلك زادت قدرة الكنيسة ونفوذها يوماً فيوماً حتى بلغ بها الامر أن أثبتت حكومتها على اوروپا بلا منازع.

كان يحكم كل مدينة من المدن المسيحية أحد «الاساقفة» حتى قبل بروز الخلافات الدينية المذهبية الواسعة والممتدة بينهم، ومن عدة مدن تتشكل ولاية كان رعايتها بعهدة خليفة البابا، ويتعهد البابا بالرئاسة العظمى للنصرانية، فكان يتدخّل في كل الامور الدينية ونصب الخلفاء والاساقفة وعزلهم. الى أن فكّر خلفاء قسطنطينية في أن يخرجوا من تحت نفوذ البابا ويؤسسوا لانفسهم حوزة حكومة مستقلة ومنفصلة.

وبعد عدة حروب شديدة بين الباب وخلفاء قسطنطينية تحقق الفصل الكامل في سنة ١٠٥٢ ميلادية،فانقسمت المسيحية الى قسمين: تبعت اوروبا الشرقية خلفاء قسطنطينية وسمّوا أنفسهم بأرثوذوكس، وبقيت اوروبا الغربية من بولندا الى إسبانيا في طاعة البابا وسمّوا أنفسهم بالكاثوليك، وكان هذان المذهبان يكفّر احدهما الآخر لما بينهما من أساليب متباينة.

ومن أوائل القرن السادس عشر الميلادي قام «لوثر» ومتابعوه ونشروا لواء الاعتراض بشأن بيع الجنة وصكوك الغفران، ويريدون تصفية الكنيسة ونفي المفاسد والمعايب عنها. ولاقى إقدام «لوثر» بالغاء أُصول القُسس وضد البابا في اوروبا انصاراً كثيرين، ونتيجةً لهذه التطورات فقد انقسم دين السيد المسيح عليه السلام الى ثلاثة اقسام متباينة، كان المذهب الثالث باسم «البروتستانت».

وقبل القرن السادس عشر وبالذات في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الملاديين زادت البدع بين المسيحيين الكاثوليك فى اوروبا، وأحدث تقدم وانتشار العقائد التي كانت مردودة بنظر البابا تشويشاً واضطراباً للبابا والآباء الكاثوليك، وللمنع عن تقدم وانتشار هذه العقائد صدر عن البابا في سنة ١٢١٥م مرسوم، تشكّلت بموجبه دائرة باسم «انگيزسيون= محكمة تفتيش العقائد» في كل مدن الممالك الفرنسية: إيطاليا وإسبانيا والالمان وبولندا، وسائر الدول المسيحية، كان يدعى إليها المتهمون منهم بالبدعة فيحاكمون ويعاقبون.

كانت هذه الدائرة الملعونة بمالها من قدرة شيطانية تمنع عن أي تفكير متحرّر، واحدثت اختناقاً غريباً للافكار العامة بحيث لو كان يتهم أحد بأنّ له نظرات وعقائد تخالف نظرات وعقائد الكنيسة، كان يُجرى بشأنه أنواع التعذيب الجهنّمي، بل قد كان يُتهم بعض الاموات بعد موتهم بالكفر والإلحاد فكانوا يحاكمون صناديق عظامهم بتشريفات خاصة يشرح «ويل دورانت» خصائص محاكم التفتيش فيقول:

«كان لمحكمة تفتيش العقائد نظام خاص للمحاكمة: فقبل أن يتشكّل ديوان المحاكمات في أيّة مدينة كانوا يبلّغون الناس «مرسوم الإيمان» من على منابر الكنائس، فكانوا يريدون منهم: أن من كان له علم بملحد لا دين له أو مبتدع في الدين فليبلّغ ذلك الى سمع محكمة التفتيش، فكانوا في الواقع يرغّبونهم في النميمة واتهام الجيران والاصدقاء والاقرباء. وكانوا يعِدون السُعاة والوشاة بالسرّية التامة والحماية منهم. أما من كان يعرف

ملحداً ولا يُفشي سرّه او كان يؤويه ويتستر عليه كان يُبتلى بالتكفير واللعن!

وقد كان الاموات أحياناً يتهمون بالكفر والإلحاد فكانوا يحاكمونهم بتشريفات خاصة، فيصادرون أموالهم ويحرمونها عن وراثهم، والذين يخبرون عن إلحاد الاموات كانوا يعطونهم من ثلاثين الى خمسين بالمئة من أموال الاموات!

وكانت طرائق التعذيب تختلف من مكان الى مكان وزمان الى زمان، فكانوا أحياناً يشدّون أيدي المتهم بالحبال الى خلف ظهره ثم يشنقونه بها، وأحياناً يشدّونه بحيث لا يقدر على الحركة ثم يقطّرون في فمه ماءً حتى يختنق، وأحياناً يشدّون عضديه وساقيه بحبال ثم يحكمونها أو يشدونها بحيث تنبت في لحمه وتدخل فتصل إلى عظامه»[1].

وفي سنة ١١٤٠م كفّر البابا «أنيوسان» الثاني ملك فرنسا: لويس السابع.

وفي سنة ١٢٠٥م وقع خلاف بين «ژان» ملك بريطانيا والبابا «أنيوسان» الثالث، حيث هاجم «ژان» على «الاساقفة» فأصدر البابا حكم تكفيره، فلم يمض شيء حتى اضطرّ ژان أن يصدر مرسوماً يقول فيه: «أخبرنا الهاتف الغيبي أن نمد يد الحاجة والتضرّع من دولة بريطانيا وإيرلنده الى عيسى والحواريين وأولياء النعمة علينا البابا اينوسان وخلفائه الكاثوليک، فنحن منذ الآن نمتلک هذه الممالک المذكورة من جانب البابا والمقام الروحاني وبصفتنا نائبين عنهم في السلطة.

وقد تقرّر رأينا أن تأخذ منّا روحانية الرّوم كل سنة بقسطين ألف ليرة إنجليزية من فضة. ولو خالفنا نحن أو أحد أعقابنا مدلول هذا الكتاب كنّا محرومين عن حق السلطان على هذه الممالک»[2].

وكتب مارسل كاش يقول: «في هذا العهد شنقوا خمسة ملايين شخصاً بجرم التفكير بخلاف حكم البابا، أو أودعوهم سجوناً مظلمة مرطوبة حتى الموت. ومن سنة ١٤٨١ حتى سنة ١٤٩٩م أي في ثماني عشرة سنة احرقوا بحكم «محكمة التفتيش» ألفاً وعشرين شخصاً حيّاً،

---

(١) نقلاً عن الترجمة الفارسية لتاريخ التمدّن من ويل دورانت، ١٨: ١٥٣.

(٢) بالفارسية: تاريخ تحولات اجتماعى ٢: ٣٤١.

وشقوا نصفين ٦٨٦٠ شخصاً، وعذّبوا ٩٧٠٢٣ شخصاً حتى الموت»[1].

«وفي القرون الوسطى وبحكم محكمة تفتيش العقائد ومن العلماء والمفكّرين فقط احرقوا ثلاثمئة وخمسين ألفاً أحياءً»[2].

«فيكتور هوگو» الكاتب والشاعر الفرنسي يسخر من أرباب الكنائس ومحاكم تفتيش العقائد فيقول:

«ليست حياة الكنيسة من تاريخ التقدم الإنساني بل ان حياتها خلف صفحات التاريخ، فهي التي جرحت «برنيلي» بضربات السياط لقوله بأن النجوم لا تقع من مواقعها! وهي التي حكمت على «كاميلاند» بالسجن مع الاعمال الشاقة سبعاً وعشرين مرّة، لقوله: بأن هناك غير عالمنا هذا عوالم عديدة لا تُعد، ولإشارته الى الهدف من الخلقة في كلماته. وهي التي عذّبت «هاروى» لانه أثبت أن في عروق البدن مادةً سيّالةً باسم الدم تجري فيها، وليس في العروق دم ساكن لا حركة له. وهي التي سجنت «كريستوف كلمب» لاكتشافه أرضاً لم تتنبأ بها التوراة والإنجيل، فان اكتشاف أرض غير متنبّأ بها في كتب العهدين كان يُعد عداءً لدين الكنيسة. وهي التي كفّرت «پاسكال» باسم الاصول الدينية و«مونتي» باسم الاصول الاخلاقية و«مولر» باسم الاصول الدينية والاخلاقية»[3].

وقد أفادت الكنيسة من قدرتها ونفوذها ضدّ المسلمين فاحدثت مذبحة موحشةبحجة إنقاذ بيت المقدس من يد المسلمين، وهي الحروب التي تسمّى بالحروب الصليبية والتي بدأت من سنة ١٠٩٥ وبعد ثمانية حروب انتهت في سنة ١٢٧٠م.

وكان العامل الاصلي في هذه الحروب حقد البابا والقُسس معه وتعصّباتهم العمياء، وبأنواع الحيل والخداع أثاروا شعوب اوروبا ضد المسلمين.

وقبل بدء الحرب أقام البابا «اوربون الثاني» مؤتمراً من القُسس والقادة الدينيين المسيحيين، وفي ذلك المؤتمر اُتخذ القرار النهائي للحرب مع المسلمين، وأمر البابا كل

---

(١) بالفارسية: تاريخ تحولات اجتماعى ٢: ١٤٣.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين ٦: ٥٩٨.

(٣) بالفارسية: تاريخ آزادى فكرى: ١٤٧.

الاساقفة والقسس بأن يسيّروا الناس للحرب ضدّ المسلمين، وكان هو بنفسه أيضاً يحرّض الناس على الحرب في فرنسا.

وتحرّك أول جيش عظيم قوامه مليون شخصاً لإنقاذ بيت المقدس من المسلمين! وكان هذا السيل البشري العظيم وكأنّ كل اوروپا قد تحرّكت نحو آسيا ينهب كل من لقيه في طريقه من غير النصارى، ويحرق، ويغرق، ويمثّل بالقتلى، ويقتل المقاتلين وغير المقاتلين وحتى النساء والصبيان. ودخلوا بيت المقدس بعد ثلاث سنين سنه ١٠٩٩م في حين لم يبق من ذلك الجيش العظيم سوى عشرين ألفاً. وهكذا استولى النصارى على بيت المقدس في هذه الحروب بعد قتل أكثر من مليون شخصاً بالحروب الداخلية والامراض والطاعون والمقاتلات الشديدة مع القبائل المسلمة وغير المسلمة في الطريق.

ومن أجل أن يتعرّف القرّاء الكرام جيداً على وحشية هذا الجيش الديني! ننقل هنا لكم كلمات «غوستاف لوبون» المؤرّخ الفرنسي الشهير، فقد كتب هذا يقول: «انّ قبائح أعمال المجاهدين الصليبيين وسلوكهم في كل هذه الحالات، قد جعلتهم حقاً في عِداد أفتك وحوش الارض وأشدهم حمقاً، فقد كان سلوكهم على وتيرة واحدة تماماً مع المعاهدين معهم وأعدائهم و الرعايا الابرياء والمقاتلين والنساء والاطفال والشيوخ والشباب! أي كانوا ينهبونهم جميعاً ويقتلونهم بلا أيّ تفريق».

ثم ينقل عن الراهب «روبرت» الذي كان حاضراً بشخصه في هذه الوقائع يقول: «إن جيشنا كان يتحرك في الطرق والميادين والسطوح، وكان كاللبوة إذا قُتل شبلها يلتذّ من المجازر العامة، كان يمزّق الاطفال قطعة قطعة، ويقتل الشيخ والشاب في صف واحد، ويشنق عدة أفراد بحبل واحد لا لشيء إلّا للتسريع في العمل. كان جيشنا ينهب كل ما يجد في طريقه، ويشقّ بطون الموتى ليستخرجوا من بطونهم النقود والمجوهرات. وذات مرّة أحضر أحد أمراء العسكر «بوآمون» كل من اجتمع في القصر(؟) فقتل النساء والرجال الشيوخ والعجزة والعملة الابرياء، وبعث بالشباب للبيع بأنطاكية»[1].

وكتب قائد هذا الجيش الدموي «جود فروآدوبويون» في تقرير له الى البابا: «إذا أردتم

(١) بالفارسية: تاريخ تمدن اسلام و عرب: ٤٠٧.

أن تعلموا ماذا عملنا بالاعداء (المسلمين) الذين وقعوا بأيدينا في بيت المقدس فيكفيكم أن تعلموا أن أفرادنا كانوا يحملون عليهم في معبد سليمان ورواقه في لجّة من الدماء، وكان الدم يبلغ ركبة الفرس»[1].

هذه نماذج من سلسلة من الفجائع التي ارتكبها المسيحيون بالنسبة الى المفكرين والعلماء الاوروپيين في القرون الوسطى وكذلك بالنسبة الى المسلمين في الحروب الصليبية.

وبالتالي فقد فجّر هذا الضغط والتعذيب في محاكم التفتيش في الدول الاوروپية العلماء والمفكرين، فبدأوا بثورة ممتدة ضد الكنيسة للنجاة من هذا الاختناق والظلم الموحش.

وتدريجياً بلغ النضال بين العلماء وأرباب الكنيسة الى أوج شدته، وكانت العلوم الطبيعية – مع كل الاختناق الفكري وتفتيش العقائد والافكار الذي أحدثه رجال الدين للمفكّرين – تتقدم يوماً فيوماً، وبالتالي فقد اضطّر أرباب الكنيسة الى التأخّر والتقهقر عن مواقعهم، وخلا الجوّ للاحرار والعلماء وهواة العلوم والمعارف.

و سبّب هذا الضغط وتلك الجرائم المخجلة لرجال الدين في أن يبرأ جمع من العلماء من الاديان بصورة عامة، وأن يتوهموا أن الدين يدافع عن الجهل والاوهام وأنه يحارب العلم ويكافح المعرفة!

وبالتالي ـ ومهما كان ـ فقد اوردت تلك الفجائع المخجلة والسلوك الوحشي لمحاكم التفتيش، أوردت ضربة مهولة على هيكل الاديان السماوية، واحدثت شعوراً سيئاً ومنافرة في الافراد الجاهلين بحقائق الدين بالسنبة الى كل الاديان.

وكذلك فان سلوك الكنيسة مع الناس التُعساء البؤساء والمحرومين، من أجل الحصول على الثروة والقدرة، أحدث ردّ فعل عنيف في روسيا ضدّ الدين، وساعد كثيراً لإنتصار الحركة الماركسية هناك، وسبب في أن يبدأ قادة الشيوعية كفاحاً ممتداً وطويلًا ضدّ الدين، وأن يصفوا الدين بأنه مستمسك للمستثمر لاستثمار الطبقة العاملة.

كتب منهم «فرد أوف» بهذا الصدد يقول: «إن الكنيسة في روسيا القيصرية كانت تمتلك أموالًا منقولة وغير منقولة لا تعد ولا تحصى،كانت أملاكها الخصوصية تصل الى

(١) بالفارسية: تاريخ البر ماله ٣: ٢٢٦.

ملايين الهكتارات وودائعها في البنوك تصل الى مئات الملايين من الروبل الذهبي، وكانت الكنيسة والمعابد تنتفع من المراتع الواسعة والغابات، وكان لها أرباح طائلة من صيد الاسماك والتجارة والصناعة وغيرها.

وكانت الكنيسة - وهي أكبر الرأسماليين وأكبر المالكين للاراضي وأكبر أصحاب البنوك في روسيا - تستثمر الفلاحين وتستغلهم بلا رحمة، وكانت تعاقب على كل الإقدامات العمالية التي كانوا يقومون بها لإصلاح أوضاع العمل لديهم، وهكذا ولّدت حقداً حقاً في العمال والفلاحين ضد رجال الدين والذين كانوا يسمّونهم «أنصار الرقّية في زيّ القسس»[1]

هذه هي المسيحية التي كانت في يوم من الايام الحامي المدافع عن الآداب والسنن البالية ومظهراً من مظاهر الرجعية، ومع كل سوابقها التاريخية المشرقة! هي اليوم تستفيد من كل الإمكانات العلمية والحضارية من أجل تحكيم قواعدها.

نحن غافلون أو نتغافل أن هناك للكنيسة الكاثوليكية أربعة آلاف هيئة تبشير! تنتشر في مختلف النقاط، وتبذل هذه الجمعيات التبشيرية مساعيها ومحاولاتها الدعائية لنشر المسيحية حتى في النقاط المجهولة من الكونغو و التّبت والمناطق التي يقطنها الوحوش في افريقيا، بما لديها من مؤونة كافية. وإن ميزانية كنيسة بريطانيه في السنة مبلغ يعادل تسعمئة مليون توماناً!! ولو قارنّا هذا الرقم فقط مع كل ما نصرف نحن من المبالغ على التبليغ لاستولى علينا الاسف الشديد.

انّهم ترجموا أناجيلهم الى أكثر من ألف لغة، وفي سنة ١٩٣٧م فقط نشرت ثلاثة من دور نشرهم فقط ما يقرب من أربع وعشرين مليون نسخة من الإنجيل في أمريكا فقط!

و للفاتيكان جريدة باسم «اوسرفاتوري رومانو» تنتشر في اليوم بتعداد ثلاثمئة ألف نسخة يومياً بالإضافة الى ما يقرب من خمسين نشرية ومجلة شهرية تطبع وتنشر شهرياً في عدة ملايين نسخة وقد أسسوا لحد الآن (قبل عشرين عاماً تقريباً) ٣٢ ألف مدرسة ابتدائية وثانوية وجامعة ومستشفى. ولهم في العالم أربع دور إذاعية قوية خاصة بالتبشير المسيحي

(١) بالفارسية: مذهب در اتحاد جماهير شوروى: ٧.

احدها في مركز الفاتيكان وأخيراً افتتح الرابع في أديس أبابا. فهم يبشّرون بثلاثة طرق رئيسية: ترجمة الاناجيل ونشرها، بناء الكنائس، وإرسال الجمعيّات التبشيرية الى مختلف النقاط في العالم.

وكتبت جريدة «رودرز دايجست» تقول: «إن تجديد النشاط بشأن دفع الزكاة «العشر» التي هي من السنن الكنائسية القديمة، أوجد تطوراً في إحياء الكنيسة البروتستانية الأمريكية روحياً ومادياً.

بدأوا منذ سنة ١٩٥٠م فيما لا يقل عن عشرة حوزات دينية بهذا الأمر وتوصّلوا منه الى نتائج عجيبة، فقد بلغت النشاطات والفعاليات في كثير من الجمعيات التبشيرية الى ثلاثة أضعاف ما كانت عليه، فقد بنيت بها مئات المباني للكنيسة وحصل بها الدعم المادي للهيئات التبشيرية المهاجرة في داخل البلاد وخارجها، والاهم من كل ذلك أن أفراد الجمعيات المسيحية أيضاً أدركوا أن العمل بهذه السنة القديمة كم له من الآثار الدنيوية والاجر الاخروي»!

إنّ الجهاز الديني المسيحي لا يخاف اليهود ولا الهنود ولا البوذيين، إذ يعلم أن هذه الاديان بسبب ارتباطها بأقوام معيّنة لا تقدر على النفوذ الى خارج محيطها. وإنّما هم يشعرون بالخطر من ناحية الإسلام الذي عرف الصديق والعدوّ أن أسلوب تفكيره وآيديولوجيته حيّ وكفوء. حتى قال البابا الاعظم فيكلمته الافتتاحية لمجلس الاساقفة في الفاتيكان: «إن الخطر الذي يهدد المسيحية والغرب في افريقيا من ناحية الإسلام أكثر من خطر الشيوعية للغرب في أفريقيا»[1].

ومع أن تبليغات المسلمين لا تتجاوز الصفر في الخارج اي في الدول الاجنبية، فان

---

(١) إن المجلس المذكور يعقد تقريباً في كل قرن مرة من رجال المسيحية قسسها في قارات العالم الخمس، والغرض من عقد هذا المؤتمر حلّ مشاكل عالم المسيحية. وقد اجتمع أخيراً في هذا المجلس سبعة آلاف رجل من القادة الدينيين الكنائسيين في العالم، في الفاتيكان مقر سلطة البابا وتباحثوا حول المشاكل التي تواجها الكنيسة. عقد هذا الموتمر في خلال سنة في ثلاث دورات كل دورة في مدة شهرين! وقد اعلنت المصادر الرسمية للكنيسة الفاتيكانية أن ميزانية هذا الموتمر ما يقرب من ستمئة و خمسين مليون ليرة إيطالية!!

الإسلام بما فيه من معارف واسعة وبما له من قدرة حركية هي من امتيازات الإسلام، يتقدم في بعض نقاط العالم و خصوصاً أفريقيا، إذ أن الإسلام خير ملجأ للسود المظلومين و لا تتغاظى الكنيسة عن هذا الخطر عليها.

وقد نشرت مؤسستان بلجيكيتان تحقيقاً تقول فيه: «في بداية العشرين الميلادي كان في ناحية من الكونغو اربعة آلاف مسلم فقط، وقد بلغ اليوم عددهم في كل من: «مانية» و« كيوو» و «استانلي ويل» الى مئتين وست وثلاثين ألف شخص»!

مجلة «پرو» الپاريسية كتبت نقلًا عن قول «مارسل كاردر» أحد الاوربيين المتخصصين بدراسة الإسلام في افريقيا، تقول: «إنّ الإسلام الذي كان في افريقيا سابقاً دين الامراء و أبناء الملوك أصبح اليوم دين عامة الناس، الذين يتحركون دائماً يبحثون عن حياة أفضل وأهدأ وأهنأ. والذي لا ريب فيه هو أن الإسلام يطّرد سريعاً من افريقيا الشمالية الى طرف جنوب افريقيا بسرعة واستمرار، وإن الاحصائيات والوقائع التي لا تنكر تؤيد هذا الموضوع».

ومجلة «ريودو پاريس» بعد أن ذكرت احصائية عن المسلمين والوثنيين والمسيحيين في افريقيا وأبدت تفوّق عدد المسلمين، كتبت تقول: «علينا أن نحسب نصف السود الافريقيين مسلمين بصورة عامة، فالإسلام يتقدّم بسرعة عجيبة، حتى أنه يُسلم في كل عام خمسمئة ألف شخص حسب المعدّل. وليس هذا امتداداً لنفوذ الإسلام من قديم، بل إن ازدياد هذه الارقام يرتبط بأوضاع العصر الحاضر منذ بداية القرن الاخير.

وفي سنة ١٩٥٠م افتتح أربعةمن خريجي الازهر مدرسة إسلامية بمدينة «ماباكو» و كان لها تقدم سريع و لكن الحكومة الفرنسية اغلقت المدرسة سريعاً»».

و كتب الدكتور «واكيسا واگليري» أُستاذ جامعة ناپل يقول: «ما هي العلة في أنه مع وجود الحريات الكثيرة المسموحة في البلاد الإسلامية للاقليات غير المسلمين، ومع أنه لا وجود في العهد الحاضر بالمعنى الواقعي لايّ نظام تبليغي للإسلام، ومع ما هو محسوس من آثار وعلائم ضعف الدين وانكساره في السنين الاخيرة...مع ذلك نرى الإسلام يتقدّم في آسيا وأفريقيا بصورة مستمرة لا تنقطع ؟ لا نقدر أن نقول اليوم بأن سيوف الفاتحين تفتح الطريق لنشر الإسلام، بل الامر بالعكس، ففي مناطق كانت تحكمها يوماً حكومات إسلامية

تحكمها اليوم دول جديدة من سائر الاديان (كاليهودية في فلسطين والمسيحية في لبنان وغيرها) ولهم أجهزة تبشيرية قوية بين المسلمين وهي نشيطة لعدة سنين، ومع ذلک لم يقدروا على فصل الإسلام عن حياة الناس: فما هي القوة المعجزة المودعة في هذا الدين ؟! وأيّ قوة ذاتية من الاقناع ممتزجة بهذا الدين ؟ وما هي تلک الاعماق والزوايا في روح البشر التي تستقبل الإسلام بهكذا حرارة وحرقة وتلبّي هذه الدعوة بجواب: لبّيک ؟!».

والمسيحيون يعملون كل عمل لتضليل المسلمين. كتب الاستاذ محمّد قطب يقول: «كان لإحدى الشركات البحرية الإنجليزية في جنوب افريقيا مؤسسة وإدارة، وكان يعمل في سفن هذه الشركة عدد من المسلمين الافريقيين، ولكن الشركة حيث كانت مسيحية لم تتحمل أن ترى عدداً من عمّالها مسلمين، ولتضليلهم عملت شيئاً عجيباً، هو أنها أصبحت تدفع لهم بدل شطر من أُجورهم قناني من المشروبات الكحولية، وحيث يحرم شرب الكحول في الإسلام وكذلک لا يجوز شراؤها وبيعها، لذلک كان العمال المسلمون يخسرون شطراً مهماً من أجورهم هدراً إذ كانوا يكسرون تلک القناني الكحولية. وأدرک أحد الحقوقيين المسلمين وضع أُولئک العمال المسلمين فأوصاهم أن يمتنعوا من استلام تلک القناني الكحولية كقسط من أُجورهم مما لا نظير له في العالم وإذا لم تصغ الشركة لشكواهم يرفعوا شكواهم الى المحاكم.

ولكن هل تعلمون ماذا كانت النتائج ؟ بمحض ما علمت الشركة بذلک أخرجتهم جميعاً».

أجل، هذا هو مفهوم الإنسانية!

والآن توجد أفاق واسعة لمساعي المبلّغين المسلمين في أفريقيا، ولو عملت أجهزة التبليغ الإسلامي سريعة وجادة لتقبّل الإسلام جماهير واسعة في افريقيا بكل رحابة صدر. فأن أفريقيا تبحث عن دين يوفّق بين الجوانب المادية والمعنوية، ويقرّر المساواة والمواساة في محيط المجتمع، ويدعو الناس الى السلام والوئام واقعاً وحقيقة. ولا شک أن المسيحية الحاضرة لا تقدر على أن تؤمّن هذه المطاليب اليوم، بل هي فقيرة من هذه الناحية جداً، بل الكنيسة هي من عوامل الاختلاف والتفرقة والتمييز، ففي افريقيا لا تسمح الكنيسة بعدُ أن يتعبّد الاسود والابيض في معبد واحد! و بصورة عامة فان سلوک المسيحيين مع السود ليس

سلوكاً إنسانياً.

كتب «لومومبا» القائد الاسبق للكونغو في إحدى جرائد پاريس يقول: «لم أفهم قطّ أنهم لماذا كانوا يعلّموننا في المدارس أن علينا أن نحترم أُصول الديانة المسيحية في حين أن الاوروپيين في خارج المدرسة كانوا يرتكبون كل جريمة ويسحقون كل أُصول الحضارة والإنسانية. إن التعاليم التي كانوا يعلّموننا إيّاها في المدارس كانت في تناقض بارز مع ما كان يعامل به الاوروپيون السود».

ليست المسيحية قلقة من تقدّم الإسلام في القارة الافريقية فقط بل المبشّرون المسيحيون في أمريكا أيضاً متألّمون لمشاهدتهم أن المسيحيين الامريكيين السود يُسلمون. فهم يفيدون من كل وسيلة لتبديد تجمّعاتهم، فقلّما تجد جريدة أمريكية لا تنشر دعايات ضدّ السود، وحتى أن بعض أعضاء مجلس الشيوخ الامريكي طلبوا من رئيس الجمهورية الامر بانحلال المؤسسات للسود المسلمين و الإعلان عن أنها غير قانونية.

ولكن على الرغم من كل المساعي التي تُبذل للمنع من أعمال السود المسلمين لا زال يلتحق بهم عدد أكثر وبذلك تتأيد تجمّعاتهم وتتنشّط فعّالياتهم، فاليوم يوجد لمنظّمتهم سبعون فرعاً في سبع وعشرين ولاية من الولايات المتحدة الامريكية، وكذلك لهم في شيكاغو وديترويت مركزان ثقافيان إسلاميان، وقد بنوا مراكز ومساجد متعددة وينشرون جريدة باسم «كلمات محمّد(ص)» وفي بعض المدن الامريكية حينما يخرجون في مسيرة يحملون معهم شعائر دينية فترى في مقدّمة الجماعة لافتة كُتب عليها: لا إله إلّا الله، محمّد رسول الله».

إن المسلمين السود يعملون بتكاليفهم الدينية بكل اشتياق، فنساؤهم ملتزمات بالحجاب الإسلامي، وفي شراء اللحوم وسائر المعاملات يحاولون أن يشتروا من الملحمات المُعلَمات بعلامة الهلال والنجمة، وهم مشتاقون كثيراً لتعلّم اللغة العربية ويوصون أبناءهم أن يتعلّموا لغة القرآن في المدارس والكليات. ولا يتواجد بينهم قتل أو سرقات أو انحراف، ويعترف أعداؤهم أن حياة المسلمين الجُدد تتغير في ظل الإسلام بحيث يتركون عاداتهم القبيحة وتلوّثاتهم السابقة.

إن المبشّرين المسيحيين المشتغلين بالتبشير في افريقيا لا يريدون أن يتقدموا بالسود

ويربوهم كأنفسهم، بل هم يريدون أن يرتبوا أناساً يستسلمون للكنيسة وللدولة التي أتى هؤلاء منها، وهذه حقيقة بيّنها الأستاذ «وسترمان» إذ كتب يقول:

«حينما يسلم الأسود يصبح عضواً في المجتمع المسلم ويجد ثقة بنفسه ويدرك موقعه بأنه عضو في عالم الإسلام، ولا يرتبط مع الاوروپيين إلّا بحدود معينة، فالأسود الذي كان قبل هذا يعيش في التراب والأرض بكل احتقار يجد بإسلامه مقاماً يحترمه به حتى الاوروپيين.

حينما ينتقل الأسود الوثني الى المسيحية يجد وضعه يختلف عن وضع المسلمين السود، اذ أنّ أوضاعنا نحن (المسيحيين) مبنية على أساس الانفصال عن هؤلاء السود، فحينما يواجهون حضارتنا لا يدركونها و لا يفهمونها، نحن لم نعلّم السود بعد و هم لم يدركوا بعد أنّ لهم خصائص ممتازة، ذلك أننا لم نَر أنفسنا مكلّفين بأن نولي حضارة السود عناية أو رعاية، فنتقدم بهم أيضاً معنا ونوفّق بين أوضاعهم وبين حضارتنا، بل نحن حينما نريد أن نصوّر الاسود نصوره لاوريا بأوضاع غير محدودة فلا نراه إلّا اوريياً قبيح الصورة والملاح. بينما يعرفه الإسلام أنه أسود أفريقي محترم في نفسه وبين الآخرين. وعلى فرض أن أسودا اوريياً لا نرى له ما وهبه الإسلام من المساواة الاجتماعية أبداً.

هناك عدد من الاوريبين لا يستطيعون أن يغضّوا النظر عن الحقيقة التالية: السود المسيحيون في نظر هؤلاء السادة من حيث القيمة الفردية بحيث لا فرق بينهم وبين ذلك الأسود الوثني والذي لا دين له ويعيش في التراب وعلى الأرض.

هؤلاء هم الذين ينتهزون الفرص لاظهار تفوّق السود المسلمين على السود المسيحيين. ولهذا نرى أن الأفريقيين الذين تلقّوا أخيراً التعاليم المسيحية أصبحوا يبلّغون للإسلام! ذلك أن السود الأفريقيين لا أمل لهم في التساوي مع إخوتهم المسيحيين الاوريبين، لذلك فهم يستعدّون لتقبّل الإسلام، إذ أنهم يفهمون أن الدين الوحيد لأفريقا هو الإسلام»[1].

---

(١) التبشير والاستعمار لعمر فروخ.

دعايات النصارى ضد الاسلام

إن أصحاب الكنائس قلقون مضطربون من النفوذ المعنوي للإسلام، فهم لتشويه السُمعة العالمية للإسلام يبثون ضدّه دعايات مستمرة، ولا يتركون أحياناً التشبث بالتهم والافتراءات بالنسبة الى ساحة الدين الإسلامي الحنيف والمقدس، فهم يريدون ان يستروا شمس الحقيقة من أيّة طريقة، وأن لا يسمع الناس صوت حقانية الإسلام.

وكنموذج أقول: ذات ليلة بثّوا من تلفاز الالمان استطلاعاً مصوّراً عن البلد الإسلامي اليمن، ومنه عن أوضاع المساجد وأسلوب الصّلاة والعبادات الإسلامية. وتحدّث المتحدث التلفزيوني حول حرمان النّاس في تلك البلاد بالتفصيل، ثم وجّه بحملته الدعائية ضدّ الإسلام واستمر يقول: إن الإسلام قد أوجد دون تقدم هذه الامة مشاكل كثيرة، فأخّرهم عن قافلة الحضارة أكثر من قرنين من الزمن، فالتوقف والركود والجمود في المراحل البدائية والضعف والتأخر في الاوضاع الراهنة مظهر من مظاهر البرامج الإسلامية! وان حرمان هذه الامة عن التطور الذي حدث في مختلف شؤون الناس في العالم إنما هو مسبّب عن العقائد الدينية وتبعيتهم لاحكامه».

تصوّروا كيف تؤثر هذه الدعايات المسمومة والمؤامرات المدبّرة والتي يبثّونها من وراء الحجب والاستار، في روحية الشعوب الاوربية الذين لا بصيرة لهم في المسائل المرتبطة بعقائد المسلمين، ولو كانت لهم معلومات في ذلك فهي قليلة جداً.. ثم انظروا كيف تكون تحكم إذن بشأن الإسلام ؟! فهل هذه المحاولات لإخماد صوت الحق إلّا خيانة لنوع الإنسانية ؟!

يجب أن يقال لهؤلاء الدّعائيين: لو كان علينا أن نبحث عن علة عدم التقدّم لشعب اليمن في حياتــه المادية، في دينــه، فلماذا الناس في جنوب إيطاليا حيث يحكم البابا هناك لا حظّ لهم من ثمار الحضارة الراهنة، فالناس هناك يعيشون في منتهى الفقر والفاقة والتعاسة والشقاء، ولذلك فهم يهجمون على الدول المجاورة ليؤمّنوا بذلك حاجاتهم، فهم هناك يعملون في البناء؟!

ولماذا دولة اليونان وهي دولة اوربية وغير مسلمة أكثر تأخراً من أكثر الدول الإسلامية؟! في حين أنّ اليونان قبل انتشار النصرانية فيها كانت تتقدم في سبيل الرقي والتكامل، ولكنّها منذ تقبّلت دين السيد المسيح عليه السّلام كأنها سلكت سبيل الانحطاط والسقوط، حتى استقرّت تحت راية السلطة العثمانية.

ولماذا بعض الدول الآسيوية غير المسلمة يعيشون أوضاعاً تبعث على الاسف أكثر من الدول الإسلامية بمراتب؟

في حين أن المسلمين في بعض النقاط مثل «بوسنه» يفضلون على المسيحيين الكاثوليك أو الاورثوذوكس في كثير من الجهات، وليس أكثر المسلمين الروس بأقل ممن يجاورونهم من النصارى وهم في الصين أيضاً يفضلون على البوذيين ومتقدمون بالنسبة إليهم وحتى أنه يقال: ان المسلمين الذين يرجعون الى أصول عربية الساكنين في جزيرة سنغافورة متقدمون مادياً على شكان تلك الجزيرة الاصليين وحتى الإنجليز.

إن الاجهزة الدعائية في الدول الغربية تقلب الحقائق وتلقّن الناس مواضيع لا أساس لها من الصحة، وذلك لناس لا علم لهم بألف باء الإسلام وُصوله الاولى وهي مساعي معمولة من قبل المنتسبين إلى الاجهزة الروحانية للكنائس بشأن الإسلام.

يقول المفكّر والكاتب الكبير الإسلامي محمّد قطب: «تحدّثت مع أحد مبعوثي الامم المتحدة في مصر في خصوص البرامج الإسلامية لعدة ساعات، وبالتالي قال هذا المثقّف الغربي: أراك أحياناً تتحدث عن الإسلام بحقائق، ولكن ماذا أصنع فاني لا أقدر على أن أبقى محروماً عن ثمار الحضارة الراهنة، فاني اشتاق كثيراً إلى أن أسافر بالطائرات المحلقة في الفضاء!!

وبعجب قلت له: وما الذي يمنعك عن التمتّع بلذائذ الحضارة العصرية؟!

وقال في جوابي: أليس من مقتضى إسلامكم أن أعود إلى حياة الخيم في الصحراء وأن أعيش بتلك الوسائل الوحشية لعيشة البداوة الصحراوية ؟!»[1]

كنت بألمانيا أُقيم في فندق كان مديره خرّيج الدراسات العليا من بريطانيا وفرنسا، وكان يعرف العربية أو يُلم بها. هذا كان يقول: أنا رجل موحِّد أعرف ربّي الواحد جيّداً وأؤمن به إيماناً تامّاً، أما الله الذي تعرّفه المدارس الدينية لاتباعها ويدعون الناس إلى العبادة لديه فانّي لا استطيع أن اقبل به، إذ أني لا أراه منسجماً مع منطق العقل، وأرى أن الفكر يدرك جليّاً أن ما يقولون هو سير بخلاف الفطرة البشرية. ثم قال وهو يبدو على وجهه الحزن والاسى: يجب أن يؤسّس أساس التوحيد في العالـم، ثم تبدّل المسيرة المنحرفة للافكار المظلمة والمنحرفة لمختلف فئات البشر، ليرتقي مستوى المعارف الإنسانية نحو التوحيد الخالص. هذا ولم يكن لدى هذا الشخص اي اطّلاع عن التوحيد الخالص في الإسلام وعن الاختلاف العميق بين القرآن الكريم وبين التوراة والإنجيل المحرّفتين، فكان يتصوّر أن القرآن أيضاً قد عرّف الله كما في كتب العهدين وفيه أيضاً ما فيهما من اتحاد أو حلول!! فناولته كرّاسة في أُصول الدين الإسلامي باللغة الالمانية ليقرأها.

ونأسف أن بعض مواطنينا كمسلمين يرتكبون في الدول الاجنبية أعمالاً يسبّب سوء نظرة بعض الغربيين إلى الإسلام. هذا الشخص مدير الفندق المذكور لانه شاهد بعض الاعمال من بعض الإيرانيين كان لا يقبلهم في فندقه. وانّما قبلني عنده بإصرار أحد الاصدقاء على حسب سابق معرفته به ولابقى عنده مدة وجيزة فقط، ولكنه حصل على الثقة بي بفضل تلك الايام القلائل، وانّما كانت منه هذه الثقة بي بفضل أنه لم يشاهد مني خلافاً ينكره وليس لانه راى مني عملاً جبّاراً أو كبيراً قمت به، فكان يثني عليّ كثيراً (ويبالـغ، ولذلك لا اذكر ما كان يقول فيّ) وحتى أنه كان يُبدي عطفه نحوي بتقديم بعض الهدايا، وكان إذا دخل عليه ضيف من معاريفه يقدّم له غرفتي ويرجو منّي أن ابات تلك الليلة عنده وفي غرفته الخاصة، الغرفة التي كان كثير من الاوراق والاسناد الثمينة مهملة هكذا على منضدته.

ومضت فترة واقتضت الضرورة أن انتقل إلى مكان آخر، فأخذ مدير الفندق عنواني

---

(١) بالفارسية: اسلام و نابسامانيهاى روشنفكران: ٢٩٨.

الجديد، فكان إذا راجعه بعض الإيرانيين يتصل بي هاتفياً ويسألني: فيما لو تضمنهم أخلاقياً حتى أقبلهم. وأنا من أجل أن لا يقع هؤلاء المواطنون في زحمة كنت أضمنهم، ذلك أن البحث عن مكان للمسافرين في بدء وصولهم كان صعباً جداً.

وذات ليلة حوّلت عليه عدداً من المسافرين الإيرانيين الذين لم يجدوا مكاناً حتى ذلك الوقت، وضمنت حسب العادة حُسن أخلاقهم وسلوكهم. ولكّن مدير الفندق المذكور اتصل بي صباح غد هاتفياً فعاتبني بلحن يقطر ألماً وتأثّراً وقال: هؤلاء الذين بعثتهم البارحة كانوا سيّئين جداً وقد آلموني وآذوني كثيراً! اعتذرت منه على خجل! ثم صممت على أن لا أبعث إليه أحداً!

والآن قد حصلت فرصة مناسبة جداً لتبليغ الإسلام في هذه الموقعية التي يمر فيها العالم بلحظات حسّاسة نستطيع فيها أن نسخّر قلوب الامم المتحضّرة بثقافة الإسلام، فالعصر الحاضر مُعد بل مساعد إلى حد كبير لإعلان برامج الإسلام ومواده الممدّة بالحياة الروحية وللتعريف بخصائص هذا الدين الحنيف. صحيح أن انسجام الإسلام مع الفطرة الإنسانية يسبّب في انتشاره بسرعة، ولكن التوفيق لنشره وبسطه في العالم مع الالتفات الى مناسبة الاوضاع العالمية بحاجة إلى كادر تبليغي جديد وبرامج مُعدة صحيحة. ولكن نأسف أن التبليغ لم يجد بعد في محيطنا قيمته الواقعية. ولم تعد اليوم الحركات الفردية والنشاطات الناقصة والفاقدة لاي برنامج مخطّط وأجهزة صحيحة...لم تعد اليوم هذه تصل إلى نتائج مثمرة، ولو كانت مؤثرة أحياناً كان أثرها قليلًا جداً، ولا مقاومة لها أمام الصفوف المتراصّة والقوى المركّزة المخالفة.

إن خطأنا الكبير هو عدم الالتفات إلى الاهمية العظمى للتبليغ المنظّم، ومع وجود القوة الغريبة المودعة في المعارف الإسلامية تلك القوة الباعثة على التقدّم والتطّور، مع ذلك نرى أن تلك الخاصيّة للمعارف الإسلامية قد انعدم أثرها بيننا على أثر عوامل لسنا الآن بصدد ذكرها، فنحن مع ما لدينا من أيديولوجية وقوانين صحيحة مصابون بجمود غريب، وهذا الموضوع بالذات سبّب في أن تُترك ميادين واسعة تحت اختيار عوامل مضادّة للإسلام.

الاخلاق في عالم الغرب

إنّ حياة الغربيين حياة تقنية بلا روح ولا حرارة حياة، فمع أن الإنسان المتحضّر بفضل تقدمه في مختلف شؤون الحياة المادية قد حلّ كثيراً من مشاكله السابقة وخطى خطوات كبرى نحو الرفاه والراحة، إلّا انّ تمادي الروح المادية في جميع مظاهر الحياة حال دون الناس ومعرفة كثير من الحقائق وسبّب في تناسيهم كثيراً من الجهات الاخلاقية والمعنوية.

لا يمكن التغاضي عن الاضطرابات الجديدة التي جاءت بها الحضارة الراهنة، ولحدّ الآن لم تقدر الاكتشافات والاختراعات المتواجدة لتسهيل الحياة وتقدم الحضارة لم تقدر أن تقلل من القلق والاضطراب الفكري للبشر، وأن تمنح السعادة للمجتمع البشري برفع مشاكله واضطراباته الاجتماعية الخطرة.

وللإنسان اضافة على حاجاته المختلفة الجسدية عطش روحي معنوي، فكما هو مفتون بلذائذه الجسدية كذلك يبحث عن ملتجأ فكري من أجل أن يؤمّن حوائجه المعنوية، ولابد أن نبحث عن مفتاح قضاء هذه الحاجات في ما وراء المادة. إن تحديد الافكار الإنسانية في إطار المادية خطأ لا يغتفر وهو مما لا ينسجم مع خلقته الخاصة.

إن أول فصل من السعادة في حياة البشر،والتي هي أكبر آمال البشرية،انّما يبدأ حينما يتجاوز الفكر في مسيرته التكاملية من مرحلة الحضارة المادية، وحينما تتحرك استعداداته الباطنية وقواه الروحية ويبدأ الإفادة بصورة صحيحة من منبع الكمالات الإنسانية. ذلك أن السعادة الإنسانية لا تحصل مئة بالمئة على صعيد الحضارة من دون الموازنة بين هذين

الجانبين.

من مشاهدة العيوب الاخلاقية والاجتماعية نلتفت إلى أن عوامل التكامل البشري لم تتوسع في كل أبعادها كما ينبغي،وأنّ البشر اليوم قد ابتلى بالاخطاء في معرفة عوامل السعادة.

ولا نعثر على قوم في التاريخ قد نفذ الفساد إلى كل زوايا حياتهم حتى لم تبق لهم أية نقطة سالمة فيها، فكذلك في محيط الغرب اليوم مع كل هذه المفاسد الاخلاقية هناك فضائل لا زالت باقية، فأكثر الناس ملتزمون بالامانة وصحة العمل والصدق، ولكن هذه الفضائل لا تجبر رذائلهم وسيئاتهم!

أضف الى ذلك أن هذه الأوصاف وإن كانت كلها تعد من الفضائل الاخلاقية ولكن بالإمكان أن يعمل بها وعلى أسس متفاوتة، وقد ابتلت هذه الاخلاقيات في الغرب بالفصل عن الدين وعن البرامج السماوية رأساً، ولذلك فهي فاقدة لكل قيمتها ومزاياها المعنوية.

هذا حبّ جلب المنافع الذي دفعهم إلى صحة العمل والتزامهم بذلك، فالناس ينظرون إلى هذه الاخلاقيات من نافذة المنافع المادية ويرونها وسائل وأدوات لتقدمهم في أعمالهم، فإذا لم تشتمل هذه المكارم والصفات الأخلاقية على منافع مادية لهم فلا اعتبار لها عندهم. إذن فالاخلاق تتبادل بينهم. بصفتها أداة لجلب المنافع في كل مكان تقريباً.

أما بشأن العفّة الجنسية: فان الغرب قد تجاوز فيها عن حريم الاخلاق، وقد بلغ بهم الضلال بهذا الخصوص الى أوج شدته. لم يكن هناك شك لاحد في بداية الامر في أن العفّة الجنسية قيمة أخلاقية، وأن خلافها ضلال وانحراف عن الاخلاق الفاضلة ولكنّهم نسوا هذه الحقيقة تدريجياً أو جاءهم من المُضلّين مَن أنساهم ذلك.

حكى لي صديق: أن فتاة كانت تطرح مشكلتها في البرنامج الخاص بهن في الإذاعة الالمانية وتطلب إرشاداً من مُرشد البرنامج، قالت: أنا فتاة صادقت فتىً لعدة سنين، ولكني وبمرور الزمن وكثرة المعاشرة المتوالية قلّت عواطفي ومحبّتي بالنسبة إليه، ولذلك فقد صمّمت على أن أفتح طريق الارتباط والمعاشرة على شاب آخر غيره. فهل لي أن أعمل بإرادتي مع احتفاظي بصديقي السابق؟ أم اكتفى بهذا الصديق السابق واصرف النظر عن الصديق الجديد؟!

وقال مرشد البرنامج في جوابها: إذا كان سنك أقل من الثامنة والعشرين فلك

حريتك من دون أي شرط أو قيد في أن تصادقي صديقاً واحداً أو أكثر، ولا تقلقي ولا تضطربي ولا تترددي من هذه الناحية أبداً!!

وهذه نقطة مهمة ملفتة للانتباه أن هذا التشويق الى الفساد يصدر من أناس موظفين بإنقاذ مجتمعهم من الانحطاط الاخلاقي! فبدل أن يصلحوا النفوس ويهذّبوها ويسوقوها نحو العفة والتقوى والفضيلة، يصدرون أوامر بكسر القيود الاخلاقية، ويحرّفون المفهوم الحقيقي للفحشاء بعنوان العلاقات الشخصية الخاصة قبل الزواج، أو بعنوان الصداقة القانونية! وبعنوان الدفاع عن الحرية المطلقة يستثنون هذا العمل عن دائرة خلاف العفة، بل يشوّقون الناس إلى ارتكاب ما يخالف الشرف والتقوى!

كتب «ويل دورانت» العالم الاجتماعي الشهير يقول: « إن العيش في المدن المتحضّرة أصبح بحيث يحول دون الإنسان والتفكير في الزواج، في حين أن دوافع الشهوة الجنسية تحرّض الناس كل وقت على إيجاد العلاقات الجنسية، بل تزيّن وتحسّن تنفيذ هذا الميل الطبيعي بالطرق غير المشروعة.

هذه الحضارة التي أخّرت سن الزواج حتى للرجال، حتى أنّ الشباب يصلون إلى سنّ الثلاثين وهم بعد يفتقدون الحياة العائلية...وحينئذٍ فلا مناص من أن يصبح جسد الشاب تحت رحمة الهيجانات والاضطرابات، وتضعف قوته على حفظ نفسه وصيانتها عن المحرّمات، وبالتالي أصبح أمر العفّة التي كانت تُعد فضيلة يوماً ما مورداً للسخرية والاستهزاء! وفي هكذا أجواء كذلك اختفى الحياء الذي كان يوماً ما يُضيف جمالاً إلى محسّنات الإنسان، بل أصبح الرجال يتباهون بتعداد ذنوبهم، وأصبحت النساء بدعوى المساواة مع الرجال يدخلن في قصص غرام غير محدودة، وأصبحت العلاقة المحرّمة بينهما قبل عقد الزواج عملاً عادياً.

نعم تخلو الشوارع عن النساء الفواحش، لكن لا خوفاً من البوليس، بل انّ النساء المتبذّلات كسَرْن سوق الفواحش»[1].

إنّ الفطرة الإنسانية تتطلّب أن تنتظم قواه وتنضبط ولا تصرف إلّا بصورة معتدلة، وان

---

(١) لذات الفلسفة - بالفارسية.

للسير على خلاف مسير الفطرة نتائج غير مرضية، ولا تعود على الإنسان تلك السعادة والراحة والطمأنينة التي يبحث عنها في ظلال الحرية بينما هو يسحق قوانين الفطرة.

إنّ الغرب قد أعدّ المجال للشهوات لعموم الناس، فهل شبع أصحاب الشهوات بهذا الإنحلال والحرية المطلقة وارتووا من عطشهم؟ أليس كل هذه الجرائم والاضطرابات والجنون واختلال الاعصاب والانتحار من نتائج هذه الحرية والانحلال الجنسي؟!

بعد عشرين سنة من الحرية الجنسية التامّة بين الشباب في السويد، ظهرت بينهم فجائع موحشة، بحيث اوحشت العلماء والمسؤولين في السويد، حتى أن هذه الظاهرة الموحشة والطغيان الاجتماعي الخطر بُحث في البرلمان السويدي وقال رئيس الوزراء هناك بكل صراحة تامة: «لجبران الخطأ الذي كان مستمراً عشرين عاماً نحتاج إلى أربعين عاماً من الزمن».

إن الناس تورطوا في لجّة الميول الجنسية متأثرين بالاصول المضللة لفرويد، التي تفسّر كل شؤون الإنسان وكل سلوكه بالدوافع الجنسية! وهكذا انفصلت أمور الجنس عن الاخلاق، وحينما انحدرت العفّة الى منحدر الضلال لم يتصور لها أحد حدّاً. وإنّ الاحصائيات التالية ثمار هذه التعاليم:

«وفقاً للاحصائات المنشورة من قبل دولة ألمانيا الغربية: على أثر معاشرة جنود الدول المنتصرة مع النساء الالمانيات ولد مئتا ألف طفل غير شرعي في ألمانيا...وهذا العدد عُشر عدد المواليد غير الشرعيين، سلم عن الاسقاط أو القتل بيد الامهات، فهم الآن تحت رعاية الحكومة الالمانية. خمسة آلاف منهم من السود!

وليعلم أن هذا العدد انّما هو من ألمانيا الغربية، أما ألمانيا الشرقية فليس بأيدينا احصائيات صحيحة من هناك، و لكن بالإمكان أن نختمن تخميناً قريباً إلى اليقين بأن ألمانيا الشرقية لو لم تكن أسوأ حالّا فهي ليست بأسعد حالّا من الغربية».[1]

وليس سائر الدول الغربية بأقل حظاً من ألمانيا. وإن أكثر شيء ألماً هو التقرير الذي قُدم إلى مجلس الامور الاخلاقية «نوتهامپتون» في مركز بريطانيا، كشف الستار فيه عن أنّ عدد

---

(١) بالفارسية: مجلة: خواندنيها /١١/١٥.

الاطفال غير الشرعيين في «نوتهامپتون» أكثر من خمسين بالمئة من معدل كل الاطفال في هذه الناحية! واعلن فيه أن ازدياد الاولاد غير الشرعيين انّما بدأ منذ أن خرجت هذه الناحية عن الحالة الزراعية واتّجهت نحو الصناعة و المعامل»[1].

وكتب « دايل كارينجى» عالم النفس والاجتماع يقول: «أعدّت إحدى التجمعات العلمية الامريكية احصائية عن خيانة الازواج بزوجاتهم، لوحظ فيها أنواع الخيانات، وقد حاولوا في إعدادها أن ينوّعوا فيمن يسألونه ليكونوا من مختلف الطبقات والسنين.

وأثبتت هذه الاحصائيات أن خمسين بالمئة من الازواج تقريباً يخونون بزوجاتهم، ومنهم من يفعل ذلك بشكل رتيب دائماً. وأمّا النصف الآخر من الازواج فهم لا يخونون زوجاتهم امّا لعدم سنوح الفرصة لهم وامّا من خوف الفضيحة أو هم يضطرون إلى رعاية الامانة الزوجية. وقبل عدّة سنين روقبت المكالمات الهاتفية في نيويورك فلوحظ أن كثيراً من النساء أيضاً يخنّ بأزواجهن»[2].

«وقد خصصت ستمئة وخمسون مستشفى في الولايات المتحدة الامريكية للامراض الجنسية فحسب، في حين أن ما يعادل المئة والخمسين بالمئة أي الضعف ونصف الضعف من هذا العدد يراجعون طبيب عوائلهم أو الاطباء الاختصاصيين»[3].

«يموت في آمريكا في كل سنة ثلاثون إلى أربعون ألف طفل على أثر الامراض الجنسية من أحد أبويهم، وان مقياس الخسائر التي تقع من هذه الامراض أكثر من خسائر مختلف الامراض سوى السل»[4].

وكما كتبت مجلة «سكسولوژى» في مقالتها الافتتاحية في ديسمبر ١٩٩٠م تقول: «إن موضوع زيادة الاطفال غير الشرعيين بالنسبة إلى السنين السابقة اورث مشكلة كبرى للحكومة الامريكية، فوفقاً للاحصائيات المنشورة سنة ١٩٧٥م كان في أمريكا يومئذٍ

---

(١) بالفارسية: طلاق و تجدّد: ٣٤.

(٢) عن الترجمة الفارسية: آئين كاميابى.

(٣) عن الترجمة الفارسية لدائرة المعارف البريطانية ٢٣: ٤٥.

(٤) بالفارسية: قوانين جنسى: ٣٠٤.

مئتا ألف طفل غير شرعي، وتضاعف هذا العدد في طول عشرين سنة كل سنة خمسة بالمئة»[1].

«إنّ ميزان الكورتاج لسنة واحدة في الولايات المتحدة الامريكية يبلغ مليون مورداً، خمسة وستون بالمئة منها من العلاقات الحرة غير الشرعية، وخمسون بالمئة منها من البنات الباكرات أو العزبات غير المتزوجات»[2].

وكتب الدكتور مولنز، وهو طبيب كان يشتغل في الناحية الجنوبية من لندن، يقول:

«بنت واحدة من كل خمس بنات يحضرن الكنائس هي حُبلى بلا زوج! وفي كل سنة في لندن يقع خمسون ألف مورد من سقط الجنين بجريمة. وواحد من كل عشرين طفلًا يولد غير شرعي، ومع تحسّن شرائط الحياة ترى كل سنة يزداد هؤلاء الاطفال غير الشرعيين. ويرى الدكتور مولنز: أنّ أكثر الاولاد غير الشرعيين يولدون في الاسر الثرية، وأنّ البنات المتربيات في الاسر الثرية يحملـن أولاداً غير شرعيين أكثر من غيرهن»[3].

إنّ هذه النماذج اشارات من حقيقة هي أن البشر المتحضّر قد حوصر اليوم في الساحة المظلمة لغريزته الجنسية (وهو يزعم أنها ساحة الحرية) وقد بلغ هو سهم الشهواني إلى حد تناسى كثيراً من القيم الاخلاقية والإنسانية في العلاقات العائلية، فهم لا يعرفون أي حدّ لذلك.

قبل عدة سنين كتبت جرائد طهران حادثة تقول: في ولاية «ايداهو» الامريكية تبادل جماعة نساءهم فيما بينهم لمدة ثلاثة أسابيع وأن كل واحد منهم قدّم زوجته للثاني كهدية، وقد أقامت هذه القضية ضجة في أمريكا، واجتلبتهم المحكمة الامريكية للمحاكمة بتهمة الإخلال بالعفة العامة وإشاعة الفحشاء!

هذا نموذج من الاضطرابات التي ظهرت في ناحية واحدة من حياة الناس، أي الامور الجنسية. انّ لافكار المرتبين وسلوك زعماء القوم أثراً مباشراً في تكوين أُسلوب تفكير الناس وعقائدهم ولا شك في أن هؤلاء لو أشاعوا المفاسد وهم زعماء قيادة المجتمع، فان آثار ذلك

---

(١) عن جريدة: إطلاعات الإيرانية، العدد: ١٠٤١٤.

(٢) عن مجلة: سپيد و سياه، العدد: ٣٧٠ - الفارسية.

(٣) عن الجريدة الإيرانية: كيهان، العدد: ٥٣٥٦.

في إفساد الاخلاق العامة أكثر من أي شيء آخر، وبما أنّ نفس كل أحد ميّالة للشهوات حسب الجاذبة الطبيعية فانّ لايحاءاتهم السيئة تأثيراً أسرع من أي دستور أخلاقي لا محالة، وإن من يتربى وينمو في أحضان مدرسة الانحلال وفي هكذا محيط وبيئة، فلا ريب في انه يشعر في قرارة نفسه بحرية مطلقة وبلا حساب، وسوف لا يكون للعفة والنزاهة فيه أي معنى أو مفهوم، وسوف لا يجول فكره إلّا في دائرة شهوات النفس الامارة فحسب.

إنّ الذين يدافعون عن الرذائل الاخلاقية سوف يربتون في الواقع جيلًا عاصياً وشهوانياً، ذليلًا عاجزاً على أعتاب أهوائه النفسية، يتخلّى عن القيام بما تريده منهم ضمائرهم وعقولهم بكل سهولة.

وقد أعلن «جونسون كندي» رئيس الولايات المتّحدة الامريكية في سنة ١٩٦٢ يقول: «إن لامريكا مستقبلًا مؤلماً، إذ الشباب انحلاليون وغارقون في الشهوات، و غير مستعدين لان يقوموا بما يحوّل عليهم من تكاليف. فمثلًا من كل سبعة من الشباب يدخلون في الجندية يخرج ستة منهم ضعفاء غير لائقين، ذلك أن إفراطهم في شهواتهم قد استنفد منهم استعدادتهم النفسية والجسدية».

و كذلك أعلن «خورشوف» القائد الروسي في سنة ١٩٦٢ يقول: «إن مستقبل روسيا في خطر، و ليس للشباب مستقبل مؤمّل، اذ أصبحوا انحلاليين اباحيين عبيداً لشهواتهم»!

عجيب أنّ إنسان القرن العشرين – قرن التقدّم العلمي والصناعي – يعجز أمام هذه المشكلة، مشكلة حيرة جيل الشباب، و كل يوم تتولد ظاهرة غريبة من هذه الحضارة الصناعية المملّة والتي لا روح لها:

فيوماً تظهر فئة «الخنافس» بحركاتهم غير المنتظمة واللّاموزونة، ويوماً آخر ينبت بين المجتمع «الهيپيّون» كما تنبت الاعشاب غير المفيدة ويقيمون ثورة ضدّ الحضارة المادية الجافّة، فيرون القيم المعنوية والاخلاقية والمقدسات موهومة لا أساس لها من الصحة، ويسخرون بالحياة المعقولة، وبعد كسر القيود والحدود والإعراض عن الحضارة الراهنة يبقون في حيرتهم يتردّدون، ولا يجدون لأنفسهم أي مستند معنويّ أو ملتجأ روحي.

هذه الظواهر الاجتماعية ومدى تأثر الشباب بعوامل التحريف وحساسيّتهم أمام مظاهر الفساد والتلوّث، مما يثبت حقيقة هي: أن الحضارة الراهنة بكل قيودها، والتي جعلت أفراد

المجتمع كالماكنة وهم أجزاؤها، لا تستطيع أن تُشبع الحاجات الفطرية والروحية للبشر، ولا تقدر على الإجابة الصحيحة على عواطفه الإنسانية وشعوره المعنوي.

وإنّ ازدياد الانتحار أيضاً من نتائج هذه الاوضاع الحاضرة، فمع أن الناس يصبحون من حيث الحياة المادية في راحة ورفاهية مع ذلك يزداد عدد الانتحارات يوماً فيوماً:

«حسب تقرير البوليس في سنة ١٩٧٦م انتحر في ألمانيا أكثر من عشرة آلاف شخص، أما الذين انتحروا فانقذوا في نفس السنة وفي نفس ألمانيا: فقد انتحر اكثر من ستة آلاف من الرجال و أكثر من سبعة آلاف من النساء فانقذوا من القتل».[1]

«وانتشر استعمال المواد المخدرة بين الشباب الامريكي بصورة موحشة، وقد وجد بوليس نيويورك أخيراً أجساد سبعة وثلاثين شاباً من السادسة عشرة حتى الخامسة والثلاثين من العمر، قد ماتوا على أثر إفراطهم في إدمان المخدّرات، وبعضهم لم يجد فرصة ليخرج المصل المخدّر عن عضده أو عضلته! وفي الدرجة الأُولى منهم المعتادون على مادة «الهروئين» وفي الحال الراهن يعتاد عليها في نيويورك فقط مئة ألف شخص، أي من كل ثمانين رجلًا واحد!

وللفنانين في طبقة الاغنياء الدرجة الاولى، حتى قال أحد أطباء نيويورك: إن أحد مشاهير الفنانين الامريكيين كان قد زرّق نفسه بالمواد المخدّرة عشر مرات في الاربع وعشرين ساعة! كل مرة تعادل ستين دولاراً. وأضاف الطبيب الامريكي: إن كثيراً من مشاهير الشخصيات الذين ماتوا بالسكتة القلبية كان موتهم من المواد المخدّرة».[2]

«في بلد متحضّر كأمريكا: تقع في كل خمس وعشرين دقيقة جريمة كبرى، وفي كل أربع وعشرين دقيقة ثلاثة موارد من القتل العمدي، وخمس اعتداءات على الاعراض بعنف، وثلاثون سرقة كبرى، وثلاثة آلاف سرقة صغرى! وفي نفس البلد المتحضّر قد خصصوا ميزانية ضخمة تعادل أربعة بلايين دولاراً لمكافحة المجرمين وتنفيذ القوانين بشأنهم،

---

(١) عن المجلة الطبية الفارسية: تُندرست.

(٢) عن الجريدة الإيرانية: اطلاعات، العدد: ١٣٠١٥.

ويُصرف زهاء مئة مليون دولاراً للوقاية من وقوع الجرائم في نيويورك».[1]

هذه هي أوضاع حياة يدعو إليها أُناس انبهروا بها وهم يتشدّقون بالفكر والثقافة بل ويفخرون بدعوتهم هذه!

(١) بالفارسية: روح بشر: ٣٢.

العبادة في الكنائس

وإن كانت الكنيسة بما لها من قدرة دعائية وقوة بشرية عظيمة تتدخل في الشؤون الاجتماعية والثقافية للمجتمعات الغربية، مع ذلک لم تؤثر هذه التعاليم الدينية في تصفية أخلاقهم وطهارة قلوبهم أثراً ملحوظاً، ولم تقدر على أن تجبر هزيمتهم الروحية وتحدد من الاهواء اللّامحدودة للإنسان المتحلّل، فالدين الذي ترک أتباعه أحراراً في ارتكاب الاعمال غير الحميدة، كيف يمكن له أن ينقذهم من مخالب المعاصي والتلوثات ؟ وأن يقتلع عروق الاخلاق الفاسدة السائدة ؟ وأن يزيل آثار الإنحطاط الخُلقي القائم ؟!

وحتى العبادة عندهم وتزكية النفس والوصول الى المدارج الإنسانية السامية، والتي يجب أن يعمل بها للتقرب الى الله وعن طريق نيّة خالصة له، قد انحرفت عن مجاريها الصحيحة وتلوثت بكثير من الملوثات.

إن النصرانية لم تُبتل بالخرافات في عقائدها فقط، بل ان مفهوم العبادة لدى ساحة الرب قد فقدت حقيقتها، إذ تعجبون أنهم يبنون في الكنيسة صالوناً للرقص كي يجتذبوا الشباب المهوس الى العبادة ؟! وهكذا يصطادوا جيل الشباب للكنيسة! فالمعبد الذي يجب أن يكون حريم التقوى والعفاف ومهداً لتربية الصفات الحميدة، قد وقع اليوم بهذا الوضع المؤسف للغاية!

والقادة الدينيّون الذين يجب أن يقفوا كسدّ قائم أمام سيول الفساد، هم وقعوا تحت تأثير الإنحطاط الاخلاقي لجوهم ومحيطهم وبيئتهم! ومع هكذا وضعية بإمكاننا أن ندرک أن

المسيحية عاجزة عن إيجاد أي تحوّل أخلاقي في العالم الغربي، ولا يقدر هكذا جهاز على أن يسلّح البشر بأفكار نزيهة بشأن معرفة الله تعالى لتكون رصيداً لإنقاذ العالم من القلق اللاّأخلاقي. والخبر التالي يبيّن سلوك مديري الاجهزة الدينية المسيحية:

«إن الاب الروحي: «فرانسيس هيوز» الذي له خمس وثلاثون سنة، والذي هو في مونتريال في كندا، موسيقار ماهر، وله مهارة خاصة في تصنيف الانغام، وله لحد الآن ألف وخمسمئة تصنيف. وهو يشتغل بالنشاطات الدينية والغنائية بصورة ممتزجة»[1].

أليس القيام بهذه الاعمال في المعبد استهزاءبالدين؟! فالعبادة من أسمى الدساتير التربوية للانبياء، ولا يقدر أحد أن يبقى بمعزل عن مفاسد العالم المادي المضطرب وعن التلوّثات التي تنشأ من العلاقة غير المعقولة بالماديات من دون الالتفات والتّوجه الى الله تعالى إذ المعرفة بذات الله تعالى هي نقطة المحور الاصلي لحياة الإنسان، وبدونها لا تتّجه أيّ بناء في نظام حياة الإنسان نحو الصدق والصلاح.

فالعبادة هي التي تحرّر الإنسان عن قيود الشهوات، وتصل به الى السعادة المعنوية ومقام القرب الإلّهي. والآن لاحظوا كيف أن هذه الحقيقة القيّمة والثمينة أصبحت لدى أصحاب الأهواء ألعوبة لميولهم النفسانية (بحجج واهية يزعمونها دينية).

إنّ كشف حُجب الغفلة وأستارها وإيجاد الثورة الروحية والمعنوية العظيمة هي إحدى الفلسفات الكبرى للعبادة في الإسلام. ومن المستحسن أن تسمعوا الى قضاء عادل عن لسان عالم مسيحي باسم «استانوود كوب» بشأن المقارنة بين عبادة المسلمين والنصارى يقول:

«ووجدت فرصة لاشهد المراسيم الدينية والصّلاة في مسجد «أياصوفية» وكان الشطر المهم من هذه المراسيم عبارة عن «الرّكوع» و«السّجود» كان على المصلين أن يركعوا في كل صلاة عدّة مرات ثم يسجدوا، وفي ذلك يكرّرون كلمات مقدسة في الثناء على الله تعالى.

كان لعظمة الخشوع والخضوع لهؤلاء المصلين في حين الصّلاة أثر بالغ في نفسي...وفي الحقيقة لم أكن أجد كل هذا الخلوص في العبادة والعمق في التسليم لله تعالى

---

(١) عن المجلة الإيرانية: إطلاعات، الاسبوعية، العدد: ١٠٨٩.

في أيّ كنيسة من الكنائس المسيحية.

وبعد مدة كان لي فخر الحضور مع عدد من الاجانب الآخرين لاشاهد من جناح بنايةمراسيم الاحياء في ليلة القدر، التي يقولون: أن القرآن قد نزل في تلك الليلة على نبيّ الإسلام. وكانت ساحة«أياصوفية» مملوءة بجمع أكثر من خمسة آلاف من المصلين، كان يتم ركوعهم وسجودهم في حركة وانتظام مطلق.

كانت أمواج أصواتهم الخفيفة، وانحناؤهم لحالة الركوع، استقبالهم الارض بأيديهم في حالة السّجود، ثم قيامهم الجمعي وتكبيرهم معاً وحركتهم الخفيفة والعميقة تتجلّى مناظر عظيمة لا نظير لها مهابة مهولة، بالإضافة الى عمق العبادة والخضوع المتواجد في مراسيم عبادة المسلمين، وهكذا كانت هذه المراسيم تتمتّع بروح متحرّرة مطلقة ديموقراطية متساوية لا تمييز فيها.

شاهدت بنفسي حمّالًا دوّاراً واقفاً على السجّاد الثمين والنظيف جنباً الى جنب بجوار أحد «الپاشوات» بملابسه الفاخرة، فارغ البال عن كل قلق واضطراب ورعاية، يركع معه ويسجد بانسجام وبكل حرية. وكنت أرى «سوداً» ضخاماً قباح الوجوه مشتغلين بالمراسيم الدينية الى جانب أكثر أتراك المدينة تأنقاً وجمالًا.

كان الإسلام منذ ظهوره يُعدّ دين الاخوة، وهو بعد في هذا العصر لم يفتقد روحه وامتيازه هذا».[1]

إنّ أكبر الاخطاء التي ارتكبها الغرب بشأن الدين والإيمان هو أنه زعم أن الدين أمر باطني وشخصي لا يرتبط بواقع الحياة بأيّة رابطة أو علاقة! إنّ هذه التحريفة في العقيدة قد اظلّت على كل مجالات حياتهم بظلالها المشؤمة فلوّثت كل سلوكهم وأعمالهم.

إن الجوّ الذي يبدو فيه هذا القلق العقائدي تبدو هناك انحرافات في صميم الحياة أيضاً، وتقع الحقيقة ضحيّة فريسة على أعتاب الميول والشهوات النفسانية، بالتالي فانّ الفساد والضلال يغمر كل مكان وكل مجال.

أضف الى ذلك أنه مع هكذا أسلوب من التفكير سيتأجّج النزاع والتخاصم في ضمير

(١) بالفارسية: خداوند دو كعبه: ٢٢٧.

الإنسان بين المادة والقيم المعنوية، أي يكون على الإنسان أن يرى الشيء شيئاً مطروداً بلحاظ المنطق الديني والبرنامج الروحاني، ولكنّه يرى نفسه ذلك الشيء لازماً وضرورياً في حياته العملية.

إن كل عمل وفكر يتّخذ صبغة خاصة في ظلال العقيدة، وليست الحياة سوى العقيدة، وإن فصل الدين عن العالم الخارجي أو فصل العقيدة عن الاحكام خطأ كبير لا يغتفر. ويحكي عن هذا الخطأ «دوپير» الامريكي في كتابه «النزاع بين العلم والدين» فيقول:

«إن قسطنطين الذي فرض دين المسيحية رسمياً في امبراطورية الرّوم خلط كثيراً من مفاهيم الوثنية، محاولة لاجتذاب الوثنيّين الى الدين الجديد.

والذي يجب التذكير به هنا أنّه في اوربا المسيحية في القرون الوسطى أو القرون الجديدة، كانت هذه الاسطورة شائعة تقول: ان الدين علاقة بين العبد وربّه ثم لا دور له في صميم الحياة. وبتعبير آخر فانّهم يزعمون أن العقيدة مهما كانت فانّها ترتبط بقلب الإنسان، أما محيط الحياة فهو بعيد عن العقيدة».

الانتشار المذهل للكحول

إن صرف المشروبات الكحولية واستعمالها المتزايد يوماً فيوماً يلعب دوراً مهماً في التسافل الروحي للمجتمع، ولهذا فانّ آثارها المشئومة التي تنشرها في الاخلاق والدين والنفس والصحة في الافراد والمجتمعات البشرية ليست مما يمكن إنكاره، فلا أحد من العقلاء يقدر على أن يغضّ النظر عن هذه الحقيقة الواقعة، فلا تمر سنة من السنين إلّا ويُرسل هذا السّم المهلک جمعاً كثيراً من المجانين الكحوليين الى المصحّات العقلية، ويبعث آلاف الافراد على القتل أو الانتحار أو الخيانة والسرقة والفضيحة والفسق والفجور و...

إن أكثر الافراد يريدون أن يتخلّصوا بشرب المواد الكحولية من مخالب المصائب والهموم، ولكنهم في الواقع يوقّعون بذلک سند هزيمتهم وعجزهم أمام الشدائد ومشكلات الحياة، فهم بدلًا من استقبال مشاكل الحياة ومواجهتها يخضعون أمامها لضغطها و يركعون، فكلما يرنّ الصدى الموحش لمشاكل الحياة في آذانهم يلجأون الى شرب الخمرة، لكي يرسموا في عوالم أوهامهم لنجاة أنفسهم من الافكار المؤلمة والمملّة في الحياة، عالماً خالياً من هذه الشدائد والمشاكل فينشغلون به في أوهامهم لمدة فقط.

إن هذه الحجج والذرائع التي تدفع البشر الى شرب الخمرة ليست مبرّراً لهم لذلک، إن نفس وجود الخمرة دليل على وجود مرض في ذلک المجتمع، ومن الممكن علاج هذا المرض المُهلک بالتربية الفكرية والروحية.

إنّ الإنسان العاقل يسعى ليسكر من خمر العلم والمعرفة لا الخمر الذي يختمر العقل

ويستره، ويأتي بالجنون وينشره، وينزّل بالإنسان من منزلة المعرفة الى درجة البهائم!

زار كاتب هذه السطور يوماً معبداً من معابد اليهود، وكان كيفية البناء وعظمته يجتذب الناظر، وزرت أقسامه المختلفة بدلالة مدير المعبد. والذي حيّرني حينذاك في الاثناء زيارة صالون كان قد خُصّص لشرب المشروبات الكحولية!! استولت علينا الحيرة والالم للحظات ثم سألته: وهل يشربون المشروبات الكحولية في المعبد؟! أجاب بصورة جدّية: نعم، ولكن ليس للجميع بل يحضرها هنا أفراد مخصوصون لا شغل لهم هنا سوى شرب الخمرة!

إن انتشار الكحول أكثر يوماً فيوماً قد أوحش القادة والعلماء ومختلف المجامع الصحية والطبية في الغرب، فأسّسوا لمكافحتها مؤسّسات مثل «منظمة مكافحة الكحول» ولكن هذه المؤسّسات عاجزة وقاصرة عن المكافحة ضدّ هذه الظواهر الاجتماعية الفاسدة، إذ مع وجود هذه المؤسّسات يزداد مصرف هذا السمّ المهلك والمُدمّر يوماً فيوماً، ويخاف أن تتبدّل الطبقات النشطة من جيل الشباب اليوم الى عدد من الافراد الكحوليين العاجزين. والاحصائية التالية إحدى نتائج المفاسد والتعاسة الناتجة من الكحول:

في المؤتمر العالمي الرابع والعشرين لمكافحة الكحول المنعقد في فرنسا أعلنت الاحصائيات التالية من دراسات الاطباء في آثار الكحول في العقل والروح البشري:

«عشرون بالمئة من النساء، وستون بالمئة من الرجال الذين راجعوا المستشفيات كانوا مدمنين للخمرة معتادين عليها، وأربعون بالمئة من مرضى الامراض الجنسية وسبعون بالمئة من المجانين كانوا يعانون من نتائج استعمال الكحول وشربها.

أما في بريطانيا فقد ثبت بدراسات العلماء أن خمسة و تسعين بالمئة من المجانين تقريباً كانوا يعانون الجنون من أثر المشروبات الكحولية»[1].

«نشر وزير الصحة الفرنسي احصائية عن الخسائر الناتجة من الكحول في فرنسا، وصفتها جرائد فرنسا أنها احصائية مُقلقة.

ذكر الوزير في هذه الاحصائية: أن عدد الخسائر من الافراط في شرب الكحول في سنة ١٩٥ كان أكثر من عشرين ألفاً. وأعلن السكرتير العام للّجنة الدولية لمكافحة الكحول: أن

---

[1] عن المجلة الإيرانية: تندرست /٥/١٢.

خمساً وعشرين بالمئة من سوانح الاعمال وأخطارها، وخمسة وسبعين بالمئة من اصطدامات السيارات في فرنسا كانت من استعمال الكحول»[1].

وكتب «يوانكاره» رئيس جمهورية فرنسا ورئيس جمعية مكافحة الكحول، في أيام الحرب العالمية ضمن بيان نشره قال فيه: «يا أبناء فرنسا، انّ أكبر أعدائكم المشروبات الكحولية، فحاربوها قبل أن تقاتلوا الالمان. إن الخسائر في النفوس والاموال التي أصابت فرنسا في سنة ١٨٧٠ من نتائج المشروبات الكحولية كانت أكثر بكثير من الخسائر التي حصلت لفرنسا من الحرب الحاضرة! إن المشروبات التي تتلذّذون بها هي سمّ قاتل لكم، تصل بكم الى شيخوخة سريعة فتحبط نصف أعماركم، وتجعل أبدانكم هدفاً لهجمات الامراض والعجز المتوالي».

«إن ما يشكّل أربعين بالمئة من الامراض في مستشفيات فرنسا هي الامراض الناتجة من الكحول، وإن خمسين بالمئة من المجانين في دور المجانين إنّما أُصيبوا بالجنون نتيجة لاستعمال المواد الكحولية. وفي مستشفيات الاطفال في فرنسا أيضاً كانت أمراض خمسين بالمئة منهم من نتائج إدمان والديهم.

إنّ ستين بالمئة من مصاريف المحاكم ترتبط بالحكول، بحيث أن خزينة الحكومة الفرنسية تدفع كخسائر لاستعمال الكحول كل سنة ثلاثمئة وخمسة وثلاثين مليارد فرنك فرنسي لمصارف المستشفيات ودور المجانين والمصحّات العقلية وأمثال ذلك...

إن الكحول تسبب زيادة عدد الوفيات في البشر، بحيث أنّ خمسين بالمئة من موت الرجال وثلاثين بالمئة من موت النساء ناتج من الكحول، وإنّ خمساً وتسعين من قاتلي الاطفال من الكحوليين، وستين بالمئة من الشباب الفاسد متولّدون من والدين كحولتيين»[2].

دُعي في سنة واحدة الى المحاكم القانونية في ألمانيا ما يقرب من مئة وخمسين ألفاً من المجرمين من جرّاء استعمال المسكرات. وصدرت في سنة ١٨٧٨م من محاكم ألمانيا ٥٤٣٤٨ حكماً قطعياً بشأن النساء المجرمات من جرّاء استعمال الكحول، وبلغ هذا الرقم

---

(١) عن المجلة الإيرانية: تندرست /٥/ ١٢.

(٢) المجلة الإيرانية: خواندنيها /٧/ ٢٦.

الموحش في سنة ١٩١٤م الى ٦٠٠٣١ حكماً».

وقال أحد وزراء أتادونيه في خطابه: «إن أمريكا صرفت في مدة عشر سنين ثمانية عشر مليوناً على المشروبات الكحولية، ومن نتائج ذلك أن بعثت بمئة ألف شاب الى دار المساكين وألقت في السجن مئة وخمسين ألف مجرم، وقتلت خمسمئة شخص، وحملت ألفي شخص على الانتحار، وأرملت مئتي ألف امرأة، وتركت مليون طفل يتيماً بلا أب».

وأعلن المؤتمر الدولي لمكافحة الكحول:

«ا ن خسائر الكحول الاقتصادية أيضاً ملفتة للنظر والانتباه، انّ مصرف الكحول حسب الدراسة الدقيقة تحتل خزانة الدولة مئة وثمانية وعشرين ملياراً من الفرنكات ما عدى الخسائر الشخصية، هكذا: عشرة مليارات لمصارف المستشفيات. وأربعون ملياراً للمصارف العامة والتعاون والامور الخيرية. سبعة عشر ملياراً لمصارف الامن الاجتماعي، وستون ملياراً مصارف المحاكم والسجون، وعلاوة على ذلك فان ما يقرب من أحد عشر ملياراً آخر يلحق بخزينة الدولة من جرّاء تقليل العنب في أول نضجه. بينما لا ينفع بيع الكحول الدولة الفرنسية سوى ثلاثة وخمسين ملياراً من الفرانكات. وهكذا نلاحظ كم أن شرب الخمور تضرّ النظام الحكومي في فرنسا اقتصادياً ؟!»[1].

بدأت منذ أمس إقدامات شديدة ضدّ الإدمان والسكر في روسيا، وهذه المكافحة ضدّ الكحول لإزالة آثارها السيئة على الاقتصاد السوفياتي.

قبل إسبوعين كان رئيس وزراء روسيا قد قال: سنبدأ سريعاً بإقدامات ضدّ الحكول: وكتبت جريدة پرافدا تقول: إن شرب الكحول في روسيا قد زاد في عدد الجرائم ونقص الانضباط في المعامل والمصانع وكثرة الغيبة عن الاعمال.

ومن المترقب في المستقبل أن تتحقق إقدامات أقوى وأشد ضدّ الشرب المفرط»[2]!

وفقاً للدراسات الاحصائية فانّ كثيراً من السوانح الجوّية وسقوط الطائرات كان نتيجة لسكر الطيّار:

---

(١) عن المجلة الإيرانية: تندرست /٥/ ١٢.

(٢) عن الجريدة الإيرانية: إطلاعات، العدد: ١٣١٠٨.

٣ - فقد أعدّ الدكتور «كلمنت كورن گولدن» الاخصائي بعلم النفس الصناعي إحصائية من خلال الدراسات التي قام بها، تُبدي علل سقوط الطائرات من دون ترديد، وهو من خلال هذه الاحصائية يعلن لنا: أن أكثر السوانح والحوادث الجوية التي تحدث في الخطوط الجوية الامريكية من جرّاء شرب الكحول. وإن الخسائر الجويّة بين أصحاب الطائرات والهيلوكوبترات الخاصة أيضاً كثيرة. إن الدكتور گولدن بعد الدراسات اللازمة في تقارير الموظّفين الفنيّين، والبحث والتنقيب في علل سقوط الطائرات التجارية والرحلات المدنية، توصّل الى نتيجة هي: أن أكثر الطائرات التي تسقط إمّا هي على أثر عطل فنّي مفاجئ أو سكر الطيّار ومساعده.

وهذه النظرية تصدق بالخصوص على الطيّارين الامريكيين أكثر من سائر نقاط العالم، إذ أنّ أكثر الطائرات التي سقطت لحد الآن على أثر سكر الطيّار كان بها طيارون أمريكيين.

وإن العمليات الجراحية الاكتشافية التي أُجريت على أجساد الطيارين في الطائرات المتساقطة تُبدي في الاكثر: أن الطيارين الموصى إليهم قد شربوا عند إقلاعهم أو في أثناء الرحلة المشروبات الكحولية.

بدأ المسؤولون يفكّرون في الكشف عن أسباب الخسائر الجوية وبالتالي توصّلوا الى هذا السبب الموحش وهو أن علّة العلل في سقوط كثير من الطائرات التي سقطت في السنين الاخيرة هي سكر الطيّار أو مغازلته مع بعض المضيّفات في الطائرة.

وعلى هذا فانّ الفجائع الجوّية في السنين الاخيرة ناتجة من الكحول وإغراء النساء! فالكحول بعد أن أضرّت على الارض كثيراً طارت الى الجوّ مع شاربها لتحطّم عدداً من الابرياء الذين لعلّهم لم يذوقوها في كل أعمارهم ولا مرة واحدة، وكأنها تنتقم منهم لذلک»[1].

---

(١) عن المجلة الإيرانية: خواندنيها، العدد ٣ لسنة ٢٦.

تناقضات الحياة في عالمنا المعاصر

إن الثورة الصناعية وتوسعة الرأسمالية أحدثتا شرخاً عميقاً في كثير من الشؤون ولا سيما حياة الناس المادية، فانّ تقدم الصناعات والتقنية شكّلت الرساميل الكبرى بأشكال: الشركات الكبرى والكارتلات والتراستات، فأصبح جمع من الناس لهم حياة خيالية وجمالية لهم كل شيء، بل أعدوا لكلابهم وقططهم وسائل الحياة بصورة لا تكاد تُصدق. وفي المقابل جماعة لا يكفيهم واردهم لمعيشتهم الاعتيادية وهم محرومون حتى من وسائل الحياة الاولية.

انّ هذا الظلم العظيم الذي هو من نتاج المؤسسات الاجتماعية لعالمنا المعاصر، مؤلم جداً لذوي الضمائر الحيّة من المفكّرين.

إن أكثر الشقاء الذي كان في الماضي يصيب البشر في دائرة صغرى، يصيبه اليوم في مقياس عالميّ واسع. إنّ كثيراً من المسائل في عالمنا المعاصر تتبدى بوضع مؤذٍ من حيث التناقض الفاحش بين الإفراط والتفريط ومن مختلف الجهات والجوانب.

إنّ السعي للتقدم الاقتصادي في الدول النامية ليس لا يتحقق بمقياس عالميّ ولعموم الناس فحسب، بل إنّها تفكّر في تقدّم اقتصادها فقط، حتى لو تم ذلك على حساب انحطاط سائر الشعوب والدول الاخرى وأورث ذلك توسعاً في الفواصل الطبقية.

إن الجوع والفقر اليوم يثيران المشاكل في كثير من نقاط العالم.

قالت الاحصائيات: «إن كيفية المعيشة العالمية تبدو في نقطتين:

١ـ من الالفين والخمسمئة مليون إنساناً في الدول غير النامية، يتألم خمسمئة مليون نفراً منهم من قلة الغذاء، فلا يكفيهم ما يصلهم منه.

٢ـ ألف وخمسمئة مليون نفراً منهم يتغذّون غذاءً ناقصاً غير كامل.

والنتيجة المباشرة أو غير المباشر لهذه الوضعية أن هناك أكثر من ثمانية مليون شخصاً يموتون سنوياً من سوء التغذية وقلّتها، أي الجوع.

وفي البرازيل بالخصوص يموت سنوياً مئتان وخمسون ألف طفل من سوء التغذية. ويتضاعف هذا الرقم في الهند، حتى أن المتبقي من مائدة عائلة أمريكية متوسطةالحال يكفي لتغذية أسرة هندية أربعة أيام!»[1].

وفي هكذا وضعية، يقوم عدد من السفهاء المصابين بالغرور ومن أجل ضبط الاسعار وإيجاد الشحة المصطنعة، يقومون بكل قسوة وبلا رحمة بإعدام ملايين الاطنان من المواد الغذائية، بإمكانها أن تنقذ ملايين الجائعين من خطر الموت المحتوم، ولو منع هذا التبذير والإسراف والاعمال اللاإنسانية لما بقى جائع في العالم، وتشهد لذلك الاحصائيات المؤلمة التي انتشرت في الجرائد:

في سنة ١٩٦٠ انعدم مئة وخمس وعشرون مليون طناً من الخبز في المخازن الامريكية، وكان هذا القلم من الغذاء يكفي من أجل إشباع أكثر من خمسمئة مليون من الهنود لسنة واحدة. وفي كل عام تعدم أمريكا كميات كبيرة جداً من المواد الغذائية، لا لشئ إلّا للاحتفاظ بذخائرها وقدرتها. وقد زاد في السنين الاخيرة ضغط الاجهزة الامبريالية الغربية لاستمرار القحط والجوع الموجودَين في العالم.

حينما تدخر أمريكا المواد الغذائية في المخازن حتى الفساد، لا تنشر وتوسّع الجوع فقط بل تجبر سائر الدول على أن تشتري وتبيع الاغذية بأسعار باهضة، ومن خلال ذلك تضر باقتصادياتهم أضراراً بالغة. هذه الثروات التالفة التي تُسرق من مختلف نقاط الارض من قبل القوى المسيطرة على العالم، هي أسلحة مؤثرة تستعمل لقتل ملايين البشر الابرياء»[2].

---

(١) عن المجلة الإيرانية: فردوسى، العدد الصادر بتاريخ ٢٨/٧/٤٨هـ.ش.

(٢) المجلة الإيرانية: روشنفكر: ٧١٩.

كتب الفيلسوف الشهير «برتراند راسل» يقول: «بذلت أمريكا خلال أربع عشرة سنة أربع مليارات من الدولارات لشراء فاضل الحنطة من الفلّاحين، وقد بقيت ملايين الاطنان من الحنطة والشعير والذرة والجبن والزبد في مخازن الحكومة الامريكية حتى فسدت، وذلك من أجل أن يحتفظوا بالاسعار في الاسواق العالمية على ما هي عليه. والآن هم يلوّثون جبالًا كبيرة من الزبد والجبن كي لا تتنزّل أسعار المنتجات اللّبنيّة».

إن لاستمرار هذا الوضع مستقبلًا موحشاً، إلّا أن تتغير كيفية الحياة لهؤلاء الناس، وليس الباعث الاصلي على هذه الاعمال المخجلة الشيطانية شيء سوى الانحطاط الاخلاقي والفقر الشديد في ذلك، فالحضارة الصناعية من دون الإيمان والاخلاق يورث وضعاً كهذا.

كتب العالم الاجتماعي والفيلسوف الشهير «سورو كين» يقول:

«مع التوسع في الوسائل والادوات الفنية والصناعية والتقنية، نشعر نحن أكثر من أي زمان آخر أننا نعيش فقراً وإعوازاً أخلاقياً وإنسانياً، والمجتمعات الصناعية المتقدمة لا تقدر على دعوى التفوّق الاخلاقي بالنسبة الى المجتمعات الفقيرة والمتأخرة. إن الحضارة المادّية اليوم مليئة بالتناقضات بين الاقوال والافعال، وبين الافكار والإقرار، وبين العقل والعاطفة.

فالثقافة المادية قد أعلنت في مختلف إعلاناتها عن حقوق الإنسان، أعلنت عن مساواة كل البشر بصورة قطعية، ولكنّها عملياً تحمل في طيّاتها أنواع التمييز والظلم اللّاأخلاقي والفكري والديني والاقتصادي والسياسي والنفسي والاجتماعي والعائلي، لا على نفسها وفي جوّها ومحيطها وبيئتها فحسب بل تعمل بكل ذلك في كل مجال، فهي تدّعي الديموقراطية، وتجعل شعارها السياسي: حكم الشعب بالشعب، ولكنّها عملياً تفسح المجال لحكومة المستكبرين والطغاة الى أعلى مستويات الديكتاتورية الفردية والاستبدادية.

هي في الكلام تطالب بسعادة الجميع، ولكنها عملياً توسع من الشعور بالهزائم والقلق والاضطراب والبؤس والتعاسة والشقاء. إن الحضارة المادية تطرد في تعاليمها حبّ الذات الى درجة الرضى عن النفس، وترغّب في حبّ الخير للغير والروح الجماعية، في حين أن كثيراً من أنواع الرضى عن النفس وإهمال مصائر الآخرين والقسوة الفردية والجماعية، والاستثمار

النفعي والسلطويّ، قد تبدى أكثر من أيّ زمان آخر»[1].

«مع أنّ الدول النامية لا تشكّل إلّا خمسة وعشرين بالمئة من نفوس العالم مع ذلك تمتلك خمسة وثمانين بالمئة من ثروات العالم، والدول غير النامية مع أنهم خمسةوسبعون بالمئة من نفوس العالم مع ذلك لا يمتلكون سوى خمس عشرة بالمئة من ثروات العالم، ومع مرور الزمن تزداد هذه النسبة. وفي نفس هذه الدول الثريّة ترى الثروات الضخمة في أيدي عدّة معدودة: ففي أمريكا أثبت لجنة تحقيق لمجلس الشيوخ الامريكي في سنة ١٩٤٦ أن: «خمسة بالمئة من الشركات الامريكية العظيمة تمتلك أكثر من ثمانين بالمئة من رساميل المصنوعات، وأكثر من ستين بالمئة من كل العمال في الصناعات لهم، ولهم أربع وثمانون بالمئة من الارباح الخالصة لجميع المصانع والمعامل»[2].

وكتب رئيس المنظمة العالمية للتغذية والزراعة في الامم المتّحدة، يقول: «لا زال يعيش ما يقرب من ثلث سكان العالم في حال جوع دائم، ولا يحصل المليار ونصف المليار من البشر معاشاً كافياً لنجاتهم من براثن هذا البلاء الذي هو أوحش المصائب الاجتماعية»[3].

وفي خلال بيانه لعلل جوع الملايين من البشر المحرومين في العالم قال كاسترو:

«تكلّمت مرّة مع «ترومن» الرئيس الامريكي الاسبق وطلبت منه ليتخذ قراراً يقضي بأن يجعل الفاضل من الانتاج الزراعي والغذائي الامريكي تحت تصرّف مركز دولي يختص بتوزيع هذه المواد بين المحرومين في العالم. فقال الرئيس الامريكي: انّه لا يتمكن من الموافقة على هذا الاقتراح بصفته رئيس الجمهور الامريكي، ذلك أنّ هذه المساعدات لا تنفك عن الاهداف والمقاصد السياسية» .

---

(١) بالفارسية: خداوند دو كعبه: ١٤٦- ١٤٥.

(٢) بالفارسية: جامعه شناسى ساموئيل كينگ: ١٥٧.

(٣) بالفارسية: انسان گرسنه: ژوزوئه دو كاسترو: ٢٦٨.

التوحش في عهد التمدن!

وان كان بعض علماء الاجتماع يرون أن الحرب لا تنفك عن حياة البشر، وأن حياة البشر منذ البداية كانت توأماً مع المصادمات والحروب وسفك الدماء... ولكن المحققين من علماء الاجتماع وعلماء النفس يردّون هذه النظرية ويقولون: ليست الحروب من الظواهر التي لا خلاص للمجتمعات البشرية عنها، بل هذه هي الانحرافات الاخلاقية والاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية (المالية) التي تجرّ الى الحروب الدموية. إذن فيجب أن نبحث عن علل الحرب خارج إطار الطبيعة البشرية، وبالإمكان أن نزيل عللها وموجباتها بالتعليم والتربية الصحيحة وتنظيم الاوضاع الاجتماعية وترتيبها، وبذلك نجنّب البشرية عن الصدمات العظيمة التي تصيبها من هذه الناحية.

على الرغم مما حصل للناس في عهدنا هذا من الانتصارات المشرقة والتي لا مثيل لها من قبل في العلوم والصناعات، فانّ الحروب الدموية والمحطّمة التي تقوم في القرن العشرين للتوسّع والمطامع المادية وإشباع الميول الطاغية لجمع من الافراد، من أبعد حروب التاريخ عن الإنسانية. فلو ألقينا نظرة قصيرة على صحيفة الاعمال السوداء لهذه الحروب والحوادث التي وقعت في مدة هذه السبعين سنة التي مرّت من القرن العشرين[1]، لظهر لنا أن الجرائم التي صدرت في هذه المدة القصيرة من الإنسان المتحضّر لعلها أكثر من كل الجرائم التي وقعت في تاريخ البشرية الملئ بالمجريات والحوادث.

إن العالم الغربي بما له من وسائل صناعية وقنابل ذرّية تدمّر البشرية بقوّتها العلمية،

---

(١) بالنسبة إلى عهد تأليف الكتاب لا تعريبه.

وتبدّل المناطق العامرة من وجه الارض الى خراب ودمار، وان ضجيج المظلومين يصك سمع السماء من خلال ما للغرب من ضعف فكري وسقوط أخلاقي.

إن الحربين العالميتين الناتجتين من تناقض المنافع المادية للدول الاستعمارية الكبرى انتجتا للبشرية نتائج مشؤمة ومؤسفة لا يمكن غسل عار القسوة والجريمة فيهما عن حجر مؤججي نيرانها أبداً. أرقام الإجرام فيهما كما يلي:

استمرت الحرب العالمية الاولى ١٥٦٥ يوماً، والذين قتلوا في ميادين الحرب يبلغون أكثر من تسعة ملايين نفراً. وعدد الجرحى المعوّقين فيها حدود العشرين مليوناً. وعدد المفقودين فيها أكثر من خمسة ملايين. وخسائر المدن أكثر من مجموع الخسائر في النفوس والأرواح في سوح القتال. و قد خمّنوا مصاريف هذه الحرب بأربعمئة مليون دولاراً، ووفقاً لمحاسبة «مؤسسة الاوقاف للسلام العالمي لدايل كارنيجي» كان من الممكن أن يُبنى بهذه المصاريف لكل من عوائل بريطانيا وإيرلندا واسكتلندا وأمريكا وروسيا وألمانيا وكانادا وأستراليا والبلجيک دوراً محترمة مع تجهيزها بما يكفيها من أثاث المنزل![1].

وانتهت الحرب العالمية الاولى بما كان فيها من تلفات وخسائر جسيمة عظيمة. وما كان الصُراخ والعويل والانين منقطعاً من الباقين على الماضين، ولا أصبح الخراب والدمار معموراً حتى كشّرت الحرب العالمية الثانية أنيابها وكشَفت النقاب عن وجهها الكالح الموحش! و في فترة قليلة لوّثت العالم بنيرانها ودمائها.

وفي هذه الحرب العالمية الثانية كان القتلى خمس وثلاثين مليوناً، وحُرم عشرون مليوناً من الايدي والارجل، وسفک على الارض سبعة عشر مليون ليتراً من الدماء، وأُصيبت عوائل البشرية باثني عشر مليوناً من سقط الجنين. وتهدّم في هذه الحرب ثلاثة عشر مليون مدرسة ابتدائية وثانوية وستة آلاف مختبر علمي! وانفجر ثلاثمئة وتسعون ملياراً من القذائف والقنابل في الفضاء!

وفي سنة ١٩٤٥م قُذفت قنبلتان صغيرتان من قبل الامريكان في حربها مع اليابان إحداهما على مدينة «هيروشيما» والاُخرى بعد ثلاثة أيام على مدينة «ناكازاكي» فانعدم في

---

(١) بالفارسية: جهان در قرن بيستم.

هيروشيما سبعون ألف نفر رأساً وجُرح سبعون الفاً آخرون، وفي مدينة ناكازاكي قتل أربعون ألف نفر وجرح نفس العدد. تهدّمت الدور وذهب كثير من الاطفال والبهائم ضحايا لهذه الفاجعة. وبعد خمسة أيام استسلمت اليابان أمام الامريكان بلا أي شرط.

و فى أواخرالحرب العالمية الثانية انتشر خبر فى الجرائد بهذا المضمون: «طلبت الحكومة الروسية من مصانع أمريكا أن تصنع لروسيا أربعة ملايين رِجْلًا صناعياً للجنود الروس المعوّقين من ناحية أرجلهم في الحرب! ومن هذا الخبر الموحش يُعلم مقياس سائر ما فقد من الاعضاء في هذه الحرب. ولا سيّما إذا علمنا أن هذه الطلبية الروسية من امريكا كانت بعد ما قامت به المصانع الروسية نفسها من صنع الارجل الصناعية، ولكنها إذ لم تقدر على تأمين كل ما تحتاجه توسّلت بأمريكا في ذلك. وأيضاً بالإمكان أن نخّمن من هذه الطلبة الروسية من أمريكا بمقياس خسائر النفوس ونقص الاعضاء في جنود الممالک الاوروبية ما عدا روسيا، فنعلم بذلک أن أيّ وضع جنوني تبدّى على أثر هذه الحرب».

وإن القنبلة التي أسقطت في سنة ١٩٤٥م على هيروشيما وناكازاكي كان فيها ٢٣٥ وحدة يورانيوم و٢٢٣ وحدة پلوتونيوم و٣٣٥ ألف من المواد المتفجّرة «تي ان تي = T.N.T » بينما القنبلة الذّرية العادية اليوم أقوى من القنبلة التي أُسقطت على هيروشيما بخمسة آلاف مرّة! والقنبلة الهايدروجينية أقوى من القنبلة الذّرية بخمسة ملايين مرّة! وان قنبلة ذرية واحدة تكفي لتجعل مدن نيويورک وپاريس ولندن وموسكو متساوية مع التراب. ولا حاجة لنقل القنبلة أن يعبر بالطائرة الحاملة لها جنديٌّ فدائي من الخطوط الدفاعية للعدوّ، بل من الممكن أن يقذفوا بالقنبلة بالصورايخ الاتوماتيكية حتى ألفي ميل! وكل تجربة نووية تؤثر في مسافة تقرب من سبعة آلاف ميل.

ووفقاً لدراسات الدكتور «لينوس پولينگ» العالم الكيماوي الامريكي الشهير، فانّ خطر القنابل « اليگاتينية» بحيث يفنى بعشرة آلاف منها في الساعات الاولى من الحرب مئة وخمسة وسبعون مليوناً من ساكني الدول المكتظة بالسكان.

وبقي أن نذكّر بأن أمريكا تمتلک في الحال الحاضر مئتين وأربعين والإتحاد السوفيتي يمتلک ثمانين ألفاً وبريطانيا ما يقرب من خمسة عشر ألفاً من القنبلة المگاتينية!!

وكتب أحد الاعضاء السابقين للجنة الجيش الامريكي باسم «نيومان» يقول بشأن

الحرب الآتية:

لا تختص خسائر الحرب الآتية بالجنود المحاربين، بل لا تنتهي تلك الحرب إلّا بانتهاء جميع الامم والشعوب حتى النساء والاطفال، ذلك أن عقول علماء التكنولوجيا والفيزياء قد وضعت تكاليف الحروب عن كاهل الإنسان وفوّضَتها الى الآلات الحربية والتراكيب والتشكيلات الفيزياوية، ولا تفرّق هذه الاسلحة الحربية غير ذات الشعور بين الافراد المحاربين وغيرهم.

واليوم لا يتقابل الاعداء في ميادين الحروب أو القلاع أو سوح القتال، بل إن سوح القتال توسعت حتى شملت المدن والقرى، ذلك أن النظريات الحديثة تقول: ليست القوة الاصلية للعدو في جيوشه، بل في مدنه العامرة وأسواقه التجارية ومصانعه ومعامله. فإذا اتّفقت حرب فلابدّ أن تُقصف هذه الاماكن بالقوة الجوية وبالقنابل الحاملة للمواد المتفجّرة والغازات السامّة والميكروبات المولِّدة لجراثيم الامراض.

كل هذا البؤس والتعاسة والشقاء الذي ضلّل على رؤوس الناس على أثر هذين الحربيْن وأغرق العالم في لجج البلاء والويلات، لم يكن لها أي أثر في أخلاق الشعوب الغربية، التي كانت ولا تزال سكرى من سكر الثروة والمشروبات الكحولية، ولم تعتبر من هاتين التجربتين المرّتين والمؤلمتين الماضيتين. وفي العصر الحاضر تستعر أوار الحروب كل يوم في زاوية من زوايا العالم ويخاف أن تتبدّل هذه الحروب الاقليمية الى حرب كبيرة عالمية، فتودي بالحضارة والإنسانية رأساً.

إن الامم المتحضّرة اليوم تصرف قسماً عظيماً من الذخائر الفكرية والقوى البدنية والرساميل التي يجب أن تصرف في سبيل راحة الجميع ورفاهيتهم... تصرفها في إعداد أخطر وسائل الفناء والدمار، ولم يدّخروا كل هذه الاسلحة الخطيرة التي تبتلع كل يوم مبلغاً لا يُستهان به من ميزانيّتهم من أجل التسلية واللعب.

يقول الفيلسوف الإنجليزي «برتراند راسل»: «هذه الدول التي تتسابق اليوم لإطلاق الصواريخ وإرسال الاقمار الصناعية الى القمر وحول القمر، ستكون عاقبة هذه المسابقة لإفناء العالم. ولو كانت الحرب والنهب والقتل في القديم من ضروريات المجتمع فانّها اليوم عائق

من عوائق تقدم المجتمع، وهي تُعد اليوم الغُدة وأسباب الشقاء ووسائل الاضمحلال وبالتالي انقراض البشرية للمستقبل القريب جداً! بل حتى إن المسابقات الشائعة اليوم في الانتاج الاقتصادي بنفسها هي إحدى عوامل انعدام المجتمع البشري في المستقبل الآتي».

وجاء في المجلة الإيرانية: « تحقيقات اقتصادى»:صرف العالم في النصف الاول من القرن العشرين أربعة مليارات دولار على الاسلحة والحروب، وكان من الممكن بهذه الاموال أن تؤمّن مصاريف الاطعمة لكل الافراد على وجه الارض مجاناً في طي هذه الخمسين عاماً، وأن يُبنى بها لخمسمئة مليون عائلة أي ثلثي سكان العالم دورٌ مريحة.

هذا ونحن نعيش في عالم لا زال يواجه ثلثا أهله مشكلة الجوع أو سوء التغذية، ولا زال ثلثاه أميين، في هذا العالم يُصرف سنوياً مئة وعشرون مليارا من الدولارات على المصاريف العسكرية. وبتعبير آخر: يصرف في كل يوم وليلة ما يقرب من ثلاثمئة و خمسين مليوناً من الدولار على المصاريف التخريبية. وحسب تصديق كبار الاخصائيين في الاقتصاد العالمي يعادل هذا المبلغ ثلثي دخل الدول غير النامية.

وهذه المبالغ كذلك تعادل قيمة كل البضائع الصادرة في العالم، وهي نصف كل الرساميل التي ترصد سنوياً في العالم.

ووفقاً للمعلومات التي حصلت من قبل الإتحاد العالمي للعمال «فانّ سبعين بالمئة من الكادر العلمي يعملون في الاعمال أو للاعمال الحربية أو العسكرية».

ان الاسلحة التخريبية والمهلكة موحشة جداً بحيث لو اندلعت حرب ثالثة، لما بقي هناك أيّ معنى للانتصار، إذ لا يبقى في تلك الحرب مغلوب ولا غالب بل علينا أن نقرأ الفاتحة على البشرية في مدة قصيرة جداً!

يقول العالم الروسي الشهير «پی تريم آسوروكين»: «إن المسألة الاساسية في زماننا هذا ليست في الحقيقة هي أن «الرأسمالية» هي الافضل أم «الشيوعية» أو «القومية» أفضل أم «الاممية واللاقومية» بل ان المسألة الواقعية لعصرنا الحاضر هي أن تستخلف مرحلة أُخرى من الثقافة الإنسانية في مقام الثقافة المادية الراهنة. ولقد ذكّرت بهذا كراراً: أن زماننا هذا هو عصر النقلة الحضارية والثقافية نقلة وتطوراً لا يمكن الاجتناب عنه فهو واقع لا محالة ولا جَرمَ.

لقد سمعنا في طوال الحرب العالمية الاولى والثانية أنّ كل فرقة كانت تدّعي أن لو انعدمت الفرقة الأُخرى لاستقرّ الصلح والسلام، وفي الحرب الأُولى كان كثير منّا يظنون أن لو انعدم كل من امپراطور ألمانيا أو ملكة بريطانيا لانتهت الحرب. وفي الحرب الثانية كذلك كانوا يتصوّرون أن لو لم يكن «هتلر» أو كان يستقيل أو يُقتل، أو كان يموت «چرچيل = تشرشل» بسكتة قلبية، أو لم يكن يولد «موسوليني» أو كان «هيرو هيتو» يتنزّل عن مقام الالوهية في اليابان، أو كان «تروتسكي» بدل «ستالين» يمسک بزمام أمور روسيا، لكانت الامور تجري على وفق المراد ولما كانت الحرب تبدأ أبداً!

بينما انعدم الآن كلهم وشبح الحرب لا زال مخيفاً مرعباً مرهباً وسخونة الحرب لا زالت ملتهبة، والبشرية لا زالت قلقة مضطربة للحرب أكثر من ذي قبل، ذلک أنه في الحقيقة لم يكن قيصر ويلهلم وهتلر وموسوليني وتشرشل وستالين الذين أشعلوا فتيل القلق في القرن العشرين، بل هم أيضاً كانوا أولاد القلق وأدواته،ولولم يكن أُولئک لكان يبدو بدلهم هتلر وموسوليني وستالين وروزفلت وتشرشل آخرون أو أخشن منهم بكثير.

إنّ هؤلاء كانوا بمثابة بثورات متقيّحة في جسد قد توسّخ دمه، فمن الممكن أن نضغط عليها ونزيلها ولكن سرعان ما تنبثق بمكانها بثور أُخرى، اللّهمّ إلّا أن نقوم بعلاج المريض علاجاً أساسياً لإصلاح الدم فيه»[1].

هذا العالم الذي يشكّل «جمعية حماية الحيوانات» للمنع عن الظلم بالحيوان، والعالم الذي يفيد من قلوب الموتى والقلب الصناعي لإنقاذ المرضى المتألمين، هذا العالم يلقي القنابل المحرقة على رؤوس الناس العُزل ليل نهار، ويبعث بالاسلحة المتطورة الى فم الموت والفناء جماعات وجماعات...

هذا العالم الذي بتأسيسه للامم المتّحدة والمجتمع الاوربي لحقوق الإنسان يصف نفسه بعداوة الظالم وحماية المظلوم، يشهد كل يوم موت الوف العجزة الذين تُقبض أرواحهم من شدة الجوع وقلّة الغذاء أو قل سوء التغذية، أو من يحترق بنيران الحروب نتيجةً للسياسات المتناقضة.

---

(١) بالفارسية: خداوند دو كعبه: ١٥١ ـ ١٥٠.

اليس أهل هذه المجالس و الجمعيات المختلفة التي تشكلت بعنوان الدفاع عن حقوق الإنسان، هم ممن يشعلون نيران الحروب ؟! أليس هؤلاء الذين يقولون علينا أن نحلّ خلافاتنا بالطرق «الديبلوماسية» ويتحدثون دائماً عن السلام العالمي يحتملون الآخرين ضغوطاً غير منصفة ولا إنسانية تحت تلك العناوين ؟!

والقادة الدينيون المسيحيون يتشبثون بكل ما لذّ وطاب لشعوب العالم ويجعلون ذلك وسيلة لتبشيرهم الديني، ألا وهو إرادة السلام وتقبيح الحرب! إنّ هذا الشعار الذي يهتف به قادة دين السيد المسيح عليه السلام لا أساس له من الصحة! فلا معنى للسلام بنفسه، فلو كان من المقرّر أن نحارب الحرب وسفک الدماء فلابدّ أن نكافح عوامله وأسبابه ثم إن شيوخ اوربا لم ينسو بعد الذكرى المُرّة من الانسجام المخزي بين الكنيسة الرومية مع المجرمين النازيين والفاشتيين!!

التمييز العنصري

إنّ فرضية «التمييز العنصري» المستند الى فكرة أحد الكتّاب بل المفكّرين بل الفلاسفة الذين لا رأي لهم في مساواة الشعوب...وإنّ مروّجي دعاية «التفوّق العنصري» يطالبون بانتصار أفضل وأقوى العناصر في العالم، وعلى العناصر الضعيفة والدنيئة أن تتّبع وتطيع من أُولئک السابقين الاوّلين!

فضلًا عن أن هكذا تفكير لا ينسجم مطلقاً مع فلسفة الحياة الإنسانية وأُصول الحرية الفردية والاجتماعية، وأنها هي بنفسها توجب الانحطاط في نموّ الامم الضعيفة...فان كثيراً من المحققين والفلاسفة المعاصرين لا يرون التفوّق العنصري بالنظرة العلمية والتاريخية إلّا أمراً موهوماً مختلقاً لا أساس له من الصحة اطلاقاً.

«وليُعلم أن بعض الباحثين بناًء على أساس أنه لم يوجد الى الآن عنصر خالص، وأن البحوث العلمية لم تبيّن ولم تسلّم بأمر العنصر أبداً...يرون أن قصة العنصر الآريّ ليست أكثر من أسطورة، وليس من المسلّم به بأي وجه في التاريخ أنه كان هناک عنصر باسم العنصر الآري واقعاً، وانّما المسلّم به أن هناک لغات أو لغة تُسمّى باللغة الآرية، وفي الغالب كانت عناصر مختلفة تتكلم بلغة واحدة»[1].

كان من علل الحرب الدّموية العالمية الثانية شيوع فكرة « القومية الاشتراكية» في

(١) بالفارسية: تاريخ أديان: ٢١٩.

المانيا الهتلرية التي كانت قد تأسّست على أساس التفوّق العنصريّ، كان هدف هتلر توسعة رقعة أراضي ألمانيا وإيجاد دولة قوية مقتدرة «جرمنية» في مركز اوربا. هذا النظام جذب الى نفسه القوى الوطنية والقومية من خلال تشكيل الاجتماعات والدعايات الواسعة والممتدة، واستفاد منها لصالح مقاصده التوسّعية الجائرة.

يقول الدكتور «غوستاف لوبون»: «إن إحدى المبادئ التي لعبت دوراً مهمّاً في المجتمعات هو المبدأ العنصريّ، وكان السياسيّون القدماء يولونه أهمية كبرى حتى أنهم كانوا يجعلونه محور سياساتهم، وكان مبدأ المنازعات والمخاصمات الدموية، وبالتالي فرض صلحاً مسلّحاً، وفي العاقبة انجرّ الى دمار لا نهاية له.

والذي بعث على انتشار هذا المبدأ هو وهم أنّ أقوى وأبعد الدول عن المخاطر هي الدولة والامة التي تمتلك أراضي أوسع ونفوساً أكثر بينما هكذا شعوب أقرب الى أن تُغلب على أمرها»[1].

ولا يزال لطريقة التفكير القائلة بامتياز الابيض على الاسود وبالتقييم بالمقاييس العنصرية البالية نفوذ قويّ حتى في أكثر دول العالم تقدماً وحضارة، فاللون الاسود في مهد الحضارة الاوربية جريمة، ويُحرم السود من كثير من أنواع الحريات والحقوق الإنسانية. وفي بعض الولايات المتحدة الامريكية ليس يمنع زواج الاسود بالبيضاء فقط بل إن مدارس البيض وجامعاتهم ومستشفياتهم تختلف عن مدارس السود وجامعاتهم ومستشفياتهم، ويمنع دخول السود الى المجامع العامة والمطاعم للبيض، ولا يحق لهم أن يقعدوا في الباصات ووسائط النقل العامة الى جانب البيض على مقعد واحد. والمخجل أكثر من ذلك أن السود لا يحق لهم الدخول الى بعض الكنائس لاداء المراسيم الدينية والاشتراك في العبادة!

وقد أعلن الرئيس الامريكي الاسبق في المجلس الامريكي في سنة ١٩٦٣م يقول: «إن كل طفل يولد في أمريكا من السود، فله نصف حظّ الابيض في أن يدخل الى الثانوية، وثلث حظّ الابيض في أن يجد الدرب الى الجامعة، وثلث حظ التوفيق للابيض في أن يصبح فنّياً أخصائيّاً، بينما له ضعف حظّ الابيض في أن يبقى عاطلاً بلا عمل من دون اختصاص ذلك

(١) بالفارسية: مبانى روحى تطور ملل: ١٩٤.

بولاية خاصة من الولايات المتّحدة الامريكية!

وعلى أساس معلومات المجلة الإيرانية «أخبار و گزارشهای جهان» يُحرم السود في إحدى عشر ولاية أمريكية من حق الرأي وحق اختيار محل السكن، ونوع المطعم، والعمل، وبكلمة من جميع شؤون الحياة. وفي كل مدارس الآباما، وميسيسيبي، وكارولينا الجنوبية لا يوجد أسود واحد كنموذج!

ومنذ سنة ١٩٥٤ حيث ارتأىٰ مجلس القضاء الاعلى الامريكي إمكان إفادة السود من المدارس متساويين مع البيض! انما سُجّل ٤٪ من السود في مدارس البيض، وفي كثير من الموارد لم يتم تسجيل اسم أسود واحد إلّابالمجادلة ومداخلة القوى البوليسية»[1].

إن البيض في نضالهم ضدّ السود يرتكبون أوحش الفجائع وأنواع الظلم، وتصدر منهم أعمال تذكّر الإنسان بجرائم القرون الوسطى وجناياتها وضلالاتها.

ولم يكن بإمكان الإعلان عن حقوق الإنسان أن ينهي هذا الظلم، فنرى العالم على عهد تسخير الفضاء يغوص في العصبيات القومية والعنصرية، وان اختلاف الالوان كيف استطاع أن يفصل بين بني الإنسان بعيداً بعضهم عن البعض الآخر كل البعد البعيد!

يقول الفيلسوف الشهير «سوروكين»: «أنا لا أتفق مع الشعر القائل: الشرق شرق والغرب غرب! ولا يصل احد هذين الى الآخر!. ولماذا لا يصل ؟ أي فرق بين بني البشر ؟ بعد ألفين سنة من دعوة السيد المسيح إذ قال: إن الفضيلةوالانسانية إنّما هما بالنية والعمل الصالح. نأتي نحن البشر المتحضّرين أبناء القرن العشرين نرى أن فضيلة الإنسان وتفوّقه منوط بنوع دمه ولون جلده وبشرته ؟!

كانوا يقولون: إنّ هتلر كان مذموماً لأنه كان يرى التفوّق العنصريّ، ونحن الآن أينما ننظر نرى الجوّ مليئاً بصغار من نوع هتلر، لو تصل أيديهم لفعلوا ما يبيّضون به وجه آلهة النازيين اللعين: انظروا الى جنوب أفريقيا! انظروا الى نفس أمريكا: فكل مكان مليء من التمييز العنصريّ! أنا أرى أن حربنا في فيتنام حرب عنصرية اندلعت على أثر شعور تفوّق

---

(١) عن المجلة الإيرانية: تهران مصوّر، العدد: ١١٧٤.

العنصر الغربي بالنسبة الى العنصر الاصفر الآسيوي»[1].

في أفريقيا الجنوبية يشكّل السود ثلاثة أرباع نفوس هذه البلاد، وفي نفس الوقت يستمر البيض في سياسة التمييز العنصري بكل شدة وخشونة، وتبتني سياسة التمييز العنصري في هذه الدولة على قانون باسم «الاپارتايد» يميّز بين السود والبيض تمييزاً جسدياً تاماً.

بموجب هذا القانون يعيش البيض منفصلين كلياً عن السود وكذلك أيضاً عن الهنود المهاجرين الملوّنين، وهذا كلّه مقيّد في سجلّات هوياتهم وجنسياتهم، فجنسية الأفريقي الجنوبي بإضافة تعيينها لهويّة صاحبها تعيّن عنصره أيضاً، والعناصر المختلفة لا تسافر إلّا في باصات وقطارات مختلفة، ولا يذهبون إلّا الى كنائس ومطاعم منفصلة، ولا يستعملون ولا يفيدون إلّا من مواقف للسيارات والهاتف يختلف بعضها عن بعض، ويرقدون في مستشفيات متفاوتة ويُدفنون في قبور منفصلة!

ويُمنع في هذا البلد زواج السود من البيض ويؤدّب المتخلّفون بطريقة وحشية. وليس لغير البيض أن يعملوا في مناطق البيض عملاً فنياً بل يوظّفون بأعمال حقيرة وبأجور زهيدة!

يهمّ أفريقيا الجنوبية التفصيل الطبقي العنصريّ جدّاً، حيث أن ذلک مما يعيّن حدود اختياراته وحرياته: فأين؟ وكيف يعيش؟ ومع من يتزوج؟ وماذا يعمل؟ وبأي نوع من التعليم والتربية يتمتّع؟ ولذلک قد يصل عدد السجناء في هذا البلد الى رقم نصف مليون سجين أسود.

وبالنظر الى القضاء: فانّ مصير السود بيد القضاة البيض من دون أن يحميهم ايّ قانون! حتى أن الجرائد نشرت خبراً بشأن رأى إحدى المحاكم في هذه البلاد، بهذا المضمون:

ولدت بنت سوداء في عائلة بيض في إحدى مدن افريقيا الجنوبية، وبما أنّه لا يحق قانونياً هناک لاسود أن يكون عضواً في عائلة بيض لذلک أصدرت محكمة عنصرية بافريقيا الجنوبية رأياً يقول: يجب أن تطرد هذه البنت من هذه العائلة، وعليها أن تترک حي البيض وتذهب الى حي السود في «جوهانس بورک» نعم لها أن تُستخدم في بيت أبيها كخادمة!!

وبقى والدا هذه البنت متحيّرين لهذه الجريمة الكبرى، وقال أبوها: إذا واجهت

(١) بالفارسية: خداوند دو كعبه: ١٩٨.

محاولتي - لإثبات حق بنتي في بيتي - الفشل، ولم ينقذني أعلى مرجع قانوني في أفريقيا الجنوبية عن هذا الرأي اللاإنساني، فسأودع ابنتي عند من يقبلها خارج هذه البلاد»[1].

وإنّ حادثة «شارپ ويل» نموذج من جرائم البيض بالنسبة الى السود بافريقيا الجنوبية:

«حدثت مظاهرات في يوم ٢١ مارس ١٩٦٠م في عدة مدن من افريقيا الجنوبية لغرض الاعتراض والاحتجاج على الزامهم بحمل جنسياتهم معهم. وفي «شارب ويل» عبر عدد من الافريقيين من أمام مخفر الشرطة بكل هدوء حتى لايوقفهم البوليس بجريمة عدم حملهم لجنسياتهم، ولكن البوليس بدل أن يوقفهم أصابهم بوابل من الرصاص، فقتل تسعة وستون و جُرح مئة وثمانون شخصاً»[2].

فما اسم كل هذا السلوك اللاإنساني والوحشي؟ وماذا يستلهم من العواطف البشرية ؟ أفهل لهم من وراء كل هذه الجرائم والاعمال الخشنة غرض آخر سوى رقّيّة هذا الشعب ؟! أفليس إجبار شعب على أن يتّبع جمعية خاصة من حقيقة العبودية ؟! فايّ عبودية ورقّيّة هذه التي ألغيت في العالم إذن ؟ وأيّة يد عادلة تلك التي شطبت على صفحة قانون الرقيّة ؟!

كتب الكاتب الامريكي الشهير «هاري هاريود» في كتابه: «حرية الزنوج» يقول:

«صحيح أن الرقّيّة كما كانت في القرون الوسطى قد انتهت، ولكنّها باقية على شكل نظام الطبقات في أنظمتنا الاجتماعية، ويجهدون ليبقى السود في المستويات النازلة.

قد تسحق حقوقهم في طي القوانين الظالمة، وقد يُحكم عليهم ويقتلون من دون اذن الدولة ولا رعاية ظواهر آدابها ونظامها».

---

(١) عن الجريدة الإيرانية: كيهان، العدد: ٧٠١٣.

(٢) عن الجريدة الإيرانية: إطلاعات: ١٣١٤٩.

تضعضع نظام الاسرة

إن الحياة العائلية التي هي شطر صغير من الحياة الاجتماعية، بل هي أساس المجتمعات الكبرى وجذورها، هي بحاجة الى المحبة والعواطف أكثر من أي شيء آخر. إنّ مختلف فصول حياة الإنسان تبدأ من محيط المنزل وتنتهي إليه، وإنّما يتّصف محيط المنزل بأنه عُشّ السعادة والراحة والدّعة فيما إذا دارت حياتهم حول محور العلاقة القلبية والاعتماد المتبادل والطمأنينة المتقابلة، وظلّل الإخلاص على كل سلوكهم ومعاشراتهم. وبكلمة: كلّما كانت الاواصر الروحية والاخلاقية بين أعضاء الاسرة أقوى كانت السعادة أكثر بنفس النسبة في ذلك المحيط، إذ الإنسان بحاجة ماسّة في الساحة الصاخبة للحياة الى فراغ البال وراحة الفكر والخيال.

كان لمحيط الاسرة في الغرب قبل ثورتهم الصناعية حيث كانوا يعيشون مراحل الحياة البسيطة والساذجة، صفاؤه ولطفه الخاص، كان الرجال يزاولون الاعمال خارج الدار لتأمين المعاش، والنساء يفضّلن إدارة البيت وتربية أولادهن على كل شئ آخر، ولم يكن نشاطهنّ يتجاوز محيط الاسرة.

إن نمو الصناعات الزم الحاجة الى أيدٍ عاملة كثيرة، فكان من ثماره الاولى أن اجتذب الرجل والمرأة والكبير والصغير الى مراكز الصناعات والتجارات والإدارات وسائر المؤسسات العامة والحكومية، وقلب الاوضاع المعيشية المدنية، واوجب فعّالية ونشاطاً أكثر للعيش الافضل ولتجميل ظواهر الحياة.

ونتيجةً لهذا التطور والتفرقة التـي حدثت بين أعضاء الاسرة وهنت العلاقة الزوجية، وقلّت المحبة والعواطف العشائرية والرحمية بصورة كبيرة، وأورث للمرأة شكاً وتردداً في ارتباطها بمحيط الاسرة وعلاقتها بأولادها، فالنساء اللواتي كنّ الى ذلك الحين ينوّرن قلوبهنّ بتربيتهنّ لاولادهنّ فقدن تلك العلاقة وأصبح توقّع ذلك منهنّ في غير محلّه ومن غير المعمول!

فالنساء اليوم بما أنهنّ يصرفن قواهنّ في أعمالهن خارج المنزل فلا قدرة لهن على أن يصرفن مثل ذلك من مساعيهن لمنازلهن أيضاً، فالمرأة اليوم أصبح لها شغلان: أحدهما بصفتها موظّفة أو عاملة في الدوائر أو المراكز الصناعية، والثاني: بصفتها زوجة وأمّاً في عائلة وأُسرة وبيت، فليس لها ذلك الوقت اللازم والفرصة الكافية وفراغة البال للقيام بمهامّ المنزل وتنظيم أُموره. والمرأة التي تتفرق قواها وتكون مضطرة للحضور على رأس الساعة في المعمل أو الدائرة، لا يمكن أن يكون حاصل ذلك في محيط المنزل سوى الملل والسأم والتساهل بل الإهمال.

ومن ناحية أُخرى: فانّ حرية العمل المطلقة بلا أيّ حدّ أو حصر كان بلاءً مُحدقاً، أظلّ بظلاله المشؤمة والثقيلة على المجتمع البشري، فاقتلع أساس العفّة والنزاهة من بين كثير من الاسر والعوائل، ولم ينتج لهم سوى الشقاء والتشتّت والضياع والتفرقة، وذهب بها كثير من الأُصول الاخلاقية والشؤون الاجتماعية التي تبتني على مبادئ الدين والفضيلة.

و بدى التزايد في أرقام الطلاق في الاحصائيات وطيّه القوس الصعوديّ في ذلك في شكل مشكلة اجتماعية كبرى للشعوب المتحضّرة، جعلتهم في زاوية حادّة لا تخرج، فهم لا يقدرون على أن يجدوا تعديلًا أو حلًّا.

أقل خلاف في وجة نظر بين الرجل والمرأة يُحدث أرضية نزاع وجدال محتدم بينهما، ويحتدم الخلاف الممتد بينهما طويلًا طويلًا...ولأمور مضحكة لا تكاد تُصدّق يضمحلّ أساس الاسر بصورة تستدعي العاطفة والرقة. ومن البدهي أنه حينما تتلبد في افق الحياة الزوجية سحب الاهواء، تنعدم بمرور الزمن تلك الوحدة فيما بين الزوجين، ثم يصبح ذلك الامر المقدّس ضحيةً لمهزلة مُضحكة!

إنّ الباعث على الطلاق في بعض الموارد مسألة صغرى لا تهم شيئاً ويمكن حلّها بكل سهولة ويُسر، فقليل من التفادي والتضحية والتنازل يذهب بما حصل من شقاق ويطفئ ما حدث من احتراق. إن العفو والصفح لو يحصل من أيّ من الزوجين المرأة أو الرجل يؤثر ذلك تماماً في تحكيم أواصر الزوجية بينهما، ويعمق بينهما أصل الوداد والمحبة جداً.

قال لي مسلم إيراني يقيم في ألمانيا: في هذه السنين التي أُقيم أنا فيها في ألمانيا انجز أمر جميع جيراني الى الطلاق على الإطلاق بلا استثناء، وتفرّق كل واحد من الزوجين عن الآخر رأساً!

«منذ مدة تأسست في ألمانيا الشرقية مراكز لحلّ مشاكل كل الاسر والإرشاد الى الزواج، لغاية مكافحة الطلاق ويبدي فيها الحقوقيون والاطباء نشاطاً واسعاً، وقد خصصت الصحف لذلك جداول أو صفحات خاصة. وهم يرون أن العامل الاصلي لتصاعد قوس الطلاق هو الاشتغال المتزايد للمرأة بالاعمال خارج البيت.

إن قلة واردات العوائل دفعت بسبعين بالمئة من النساء المتزوجات الى أن يشتغلن بالاعمال لتأمين المعاش، ستون بالمئة منهن أُمّهات أولاد، وطبيعي أن العمل في الخارج من ناحية وأمور البيت وتربية الاولاد من طرف آخر يورد ضغطاً على أعصاب المرأة يؤدي بها الى نزاع دائم بينها وبين زوجها وبالتالي وقوع الطلاق بينهما»[1].

يقول العالم الروسي الشهير «تولستوي»: «وليُعلم أن السبب في كثرة الطلاق ووفوره هي زيادة الحرية في الطلاق للمرأة مع الالتفات الى روحيّتها المتلوّنة وطبيعتها السريعة الغضب والتأثر! وان كان لا ينبغي أن نغفل عن العلل والعوامل الأُخرى: كإرهاق أعصاب الرجل والمرأة من جرّاء ضجيج المصانع والمعامل، والامتزاج الكثير بين النساء والرجال الذي بدوره يؤدي من جانب الى زيادة العلاقات غير الشرعية، ومن جانب آخر الى إثارة الكراهية بين الزوجين. وأيضاً عمل النساء في خارج البيت..».

قبل عدة سنين حينما كان أحد النوادي في نيويورک يقوم بإعداد احصائية عن الزيجات والتطليقات في مدينة نيويورک وواشنطن، انتبه المسؤولون في النادي الى أن

---

(١) عن الجريدة الإيرانية: كيهان، العدد: ٦٩٢٦.

الفنّانات من هاتين المدينتين الكبيرتين وهنّ يشكّلن رقماً كبيراً، أكثر طلباً للطلاق وانجازاً له من أيّة طبقة أخرى أو صنف آخر منذ خمسين سنة (الى ذلك الحين) وان النتائج التي حصلت بشأن الفنّانات في نيويورك وواشنطن حملت المسؤولين في النادي على أن يعملوا احصائية عن الزيجات والتطليقات في هوليود منذ ستين سنة. وكانت أرقام الطلاق هناك من الكثرة بحيث امتنعوا عن نشرها رأساً»[1].

«وذكر خبر نُشر أخيراً في صحف بريطانيا: أن الطلاق في السنة الفائتة في الإنجليز حصل على الرقم الاعلى في العالم: ونصف كل الطلاق كان بسبب الخيانة، والنصف الآخر لعلل أخرى»[2].

كتب أحد الكتّاب بشأن تزايد الطلاق بأمريكا يقول: «لو افترضنا أن معدّل الطلاق في كل مئة تزويجة في أمريكا في العشر سنين من ١٨٨١ الى ١٨٩٠م واحد فقط فقد ارتفع هذا المعدل في السنين ١٩٤٠ – ١٩٤٩م الى عشرة أضعاف ذلك. أي ربع كل الزيجات!

وفي كاليفورنيا في سنة ١٩٥٦ حدث ٤٢٤٧١ طلاق في مقابل ٨٧٤٥٢ تزويجة أي وقع طلاق في مقابل كل زواجين، وكل زواجين انتهى احدهما الى طلاق»[3].

وكتبت مجلة (واك=WAKE) الامريكية تقول: «ارتفع مقياس الطلاق بدولة السويد في السنين العشر الاخيرة عشرة بالمئة، أما بالنسبة الى الخمسين سنة الاخيرة فألف على مئة!»[4].

«حكمت محاكم فرنسا في سنة ١٨٩٠م بـ(٩٧٨٥) طلاقاً كان سبعة آلاف منها بطلب النساء، وأما اليوم فقد ارتفعت هذه النسبة التي تشكل سبعين بالمئة من التطليقات.

والمشكلة الحديثة التي قلّلت من نسب الزواج بعد الحرب العالمية الاولى وبالخصوص بعد الحرب العالمية الثانية: هي الفساد الذي لوّث حجور الشباب! فانّه قادهم الى اللامبالاة

---

(١) بالفارسية: طلاق و تجدّد: ٩٥ - ٩٤.

(٢) عن الجريدة الإيرانية: كيهان، بتاريخ ٢٨ فروردين ٣٩ هجرية شمسية.

(٣) عن الجريدة الإيرانية: كيهان، بتاريخ ٢٨ فروردين ٣٩ هجرية شمسية.

(٤) بالفارسية: جامعه شناسي: ٢٩٥.

والحياة الإباحية المتحلّلة، وسبّب في زيادة أرقام الطلاق.

بعد ما قارن «ژ.دوپليسي» أرقام زواج المطلقات في مختلف السنين والاعوام، وأبدى أن أرقام زواجهنّ قد كثر كثيراً أضاف يقول: إن الزيادة النسبية لزيجات المطلّقات بالنسبة الى من يتزوجن لاول مرّة يرتبط بكثرة الطلاق بعد الحرب الاولى عام ١٩١٤ - ١٩١٨م»[1].

«وقع في السنة الماضية في فرنسا ثلاثون ألف تطليقة، وبما أن هذه الارقام في تزايد كل سنة، لذلک طلبت جمعية حماية الاسرة الفرنسية من الدولة أن تعود الى تنفيذ القانون الخاص بعام ١٩٤١م الذي الغى في سنة ١٩٤٥م الذي مُفاده منع الطلاق في السنين الثلاثة الاولى من الزواج على الإطلاق.

ونفس النسبة صادقة بالنسبة الى بريطانيا بإضافة: خشونة وتوحش كبير من قبل الرجال، وفساد وخيانة لا حدّ لها من قبل النساء»[2].

«إن النساء الامريكيات ينفصلن عن أزواجهن على الاكثر بعد شهرين! أو بعد ثمانية أشهر! أو بعد ست وعشرين شهراً! ولذلک يقع في كل عام مئة وخمسون ألف طفل فريسة للطلاق .

وفقاً لارقام أُخرى فان بأمريكا اليوم ثلاثة ملايين من الاطفال الذين تطلقت ا مهاتهم من آبائهم» .

وكتب الكاتب الامريكي الشهير «لوسون» بعد ذكره لارقام موحشة عن الطلاق بذلک البلد، يقول: «وكل من به مسكة من ضمير وحبّ للإنسانية يتألم من هذا الوضع الموحش من أرقام الطلاق ويفكّر في علاج ذلک. وما يسترعي الانتباه والنظر أكثر هو أن ثمانين بالمئة من هذه التطليقات وقع ويقع بطلب من نفس النساء، وعلينا أن نبحث عن السبب في تزايد الطلاق في هذا الامر، ويجب علينا أن نحدّده ونحصره».

ومن المؤسف أن الطلاق تزايد في بلادنا أيضاً بين الطبقة التي جعلت التبعية من الغرب

---

(١) بالفارسية: طلاق و تجدّد: ٩٢.

(٢) عن المجلة الإيرانية: خواندنيها، للسنة ٢٥ العدد: ١٠٣.

(٣) عن المجلة الاسبوعية الإيرانية: إطلاعات هفتگی، العدد: ١٢٠٦.

أساساً لحياتها بلا أيّ قيد أو شرط. فقد وقع أكثر من ألف طلاق في طهران فقط في العشر سنين الاخيرة، لنزاع الزوجين على مصاريف الزينة والتجميل، وهذا الرقم إنّما هو مجموع الارقام المعلنة في أخبار الجرائد، وإلّا فالارقام الواقعية للطلاق في طهران لنفس السبب أكثر من هذا»[1].

وفقاً للاحصائيات الرسمية في سنة ١٣٣٩ هجرية شمسية: كانت الزيجات المسجلة في طهران: ١٥٣٣٥ زواجاً، والطلاق في نفس السنة ٤٨٣٩ طلاقاً، وهذا يعني ان كل ثلاث زواج انتهى أحدها الى الطلاق»[2].

وكما استعلم الصحفيون من مسؤولي مكاتب تسجيل الزواج والطلاق، وقع ستة وسبعون بالمئة من هذه التطليقات بناءً على طلب من النساء اللواتي يتّبعن الحضارة والموديلات الغربية والفنّانات! وانّ ارتفاع أرقام التطليقات إخطار مهم لا يمكن التغاضي عنه. ومع شيوع الفساد والحضارة الجديدة سترتفع أرقام الطلاق أكثر، وسيتلاشى نظام كثير من الأُسر تحت أسر سياط مختلف الشهوات المحطّمة، اللّهمّ إلّا أن يرجع المجتمع الى السنن الإسلامية الثابتة مرة أُخرى[3].

(١) عن المجلة الاسبوعية الإيرانية: إطلاعات هفتگى، العدد: ١٢٠٦.

(٢) عن الجريدة الإيرانية: روزنامه دنيا.

(٣) كان هذا قبل انتصار الثورة الإسلامية في ايران، وقد انتصرت ورجع المجتمع إلى الإسلام.

حماية الحيوانات!

بين بعض العوائل الغربية علاقة غريبة بالكلاب وايوائها والاحتفاظ بها واصطحابها الى حدّ جنوني قال لي أحد الطلّاب الإيرانيين كان يدرس في فرع الطب في ألمانيا: كان صاحب الدار التي أسكنها يحب كلبه كثيراً فكان يقبّله دائماً ويحتضنه، فذكّرته يوماً بخطر المرض العارض من دورة الكلب، ولكنّه لم يصدّق مقالتي، فاخرجت له موضع الشاهد في أحد كتب دراستي الطبيّة، فلما قرأه تعجّب كثيراً وتحير وسألني: لو كانت معاشرة الكلاب خطرة الى هذا الحد فلما يزاول ذلك الاطباء وأساتذة الجامعات فهم دائماً يماشون كلابهم ويلمسونها ويحتفظون بها في دورهم وبيوتهم ؟!

قلت له: كثير ما أعلن أخطاره صحياً وطبياً وفي نفس الوقت بدل أن يتبع السادة الاطباء من عقولهم وعلومهم ومعارفهم يتّبعون أهواءهم ولا يراعون صحتهم والاحتفاظ بسلامتهم والاحتياط لذلك!

نقلت الصحيفة الناطقة باسم «الجمعية الوطنية لحماية الحيوانات في إيران» عن احدى المجلات الامريكية أنها طلبت من جميع قرّائها المحبّين للكلاب وأكثرهم من السيدات أن يصدقوا في الإجابة على الاسئلة التالية:

١ـ هل ينام كلبكم معكم في غرفة نومكم ؟

٢ـ هل تبكون له إذا مات ؟!

٣ـ هل تفكّرون فيه وأنتم في دائرة عملكم ؟!

٤ـ هل حبّكم له هو الاكثر أم حبّكم لازواجكم؟ أو أزواجكنّ؟!

٥ـ إذا مرض كلاهما (كلبكم وزوجكم) فلايّهما تطلبون البيطريّ أو الطبيب أوّلاً؟!

٦ـ إذا جِعتما (أنتم وكلبكم) ولا طعام إلّا قليلًا فهل تأكلونه أو تؤثرون كلبكم عليكم؟!

٧ـ هل تقولون له (لكلبكم) بشخصية تفوق حدّ الحيوانية؟!

٨ـ لو نهش الكلب رجل طفلكم وأجابه طفلكم فضربه حجراً فصرخ الكلب وبكى الطفل، فلايّهما تتفقدون أوّلًا؟!

وبعد قراءة خمس وسبعين رسالة جواب كانت الإجابات كما يلي:

١ـ أجاب ستون ألف شخص: نؤثر كلابنا علينا لانه يفَضل على وجودهم هم!

٢ـ وكتب تسع وأربعون ألف قارئ أكثرهم من النساء: نعم ينام كلبنا معنا في غرفة نومنا، إذ مهما يكن فهو أفضل من غيره!

٣ـ وأجاب ما يقرب من ثُلثي القرّاء: إنّا إنّما نحبّ أزواجنا فيما إذا أحب كلبنا! وأجاب عدد منهم علناً: إن كلبنا كل شيء في حياتنا!

٤ـ وكتب ثلثا القُرّاء: لو مات كلبهم فسوف يبكون عليه.

٥ ـ وفي جواب السؤال الخامس كتبوا: نخبر البيطري أوّلًا ثم الطبيب!

٦ـ وكتب كلّ القرّاء تقريباً يقولون: انّهم يقولون لكلبهم بأهمية تفوق حد الحيوان بل له شخصية معنوية!!

٧ـ وكتب كلّ القرّاء الموظفين: للكلب أهمية أكبر من أن لا نفكر فيه ونحن على عملنا، نفكر فيه من كل مكان.

٨ـ وبشأن السؤال الاخير كتبوا: نحاول أن نسكتهما معاً مهما أمكن.

عجيب جدّاً أن يقولوا للكلب بمقام معنوي فيبكون في موته ويصرخون، بينما أُولئك الُالوف من البشر الذين ينهضون للحصول على حريتهم واستقلالهم فيصبّون على رؤسهم القنابل المحرقة، لا يجرح ذلك قلوب أُولئك الناس المتحضّرين! يؤون الكلب في غرف نومهم، ولكنّهم لا يسمحون لملايين من البشر بالدخول الى الاماكن العامة لجريمة ألوانهم السوداءولو مرض كلبهم يبادرون لإحضار البيطريّ له لعلاجه، ويموت من الجوع والمرض

والفقر الفقراء الجياع جماعات وجماعات فلا تتألم أرواح هؤلاء البشر من هذه الحوادث أبداً!!

هناك في أمريكا حوانيت خاصة بأدوات التجميل للكلاب، عرضوا فيها أخيراً عشرة أنواع من القولونيا الخاص بالكلاب للبيع، ويباع فيها معجون أسنان خاص بالكلاب كذلك، فبإمكان من يرغب منهم أن يشتري من هذه الحوانيت أحسن أدوات التجميل لكلبه!

وانّ تقرير مجلة «التايم» بشأن أعداد الكلاب في المدن الكبرى يبدي مدى علاقة هؤلاء الناس بهذا الحيوان المغري! يقول التقرير:

«إن بعض المدن الكبرى في العالم قد أصبحت «مدينة الكلاب» بالمعنى الحرفي للكلمة تقريباً، خصوصاً: لندن وطوكيو ومكسيكو سيتي، وقد كثرت الكلاب في هذه المدن الكبرى حتى أنها أصبحت تزاحم حياة البشر وتسبّب في تلوّث البيئة.

إن عدد الاطفال الذين نهشتهم الكلاب يرتفع يوماً فيوماً، وانّ نباح الكلاب يزيد في ضوضاء المدن الكبرى التي هي مليئة بالضوضاء. ففي طوكيو مئتان وثمانون ألف كلب، وفي لوس آنجلس ثلاثمئة ألف كلب، وفي نيويورك خمسمئة ألف كلب، وفي لندن سبعمئة ألف كلب، وفي مكسيكو سيتي أكثر من مليون كلب. وهكذا الكلاب يشاغبن في العالم»[1].

وكتبت مجلة «انى مال» الفرنسية تقول: «في امريكا يصرف أصحاب الكلاب كل سنة ثلاثمئة مليون دولاراً لمصاريف تجميلهنّ وملابسهنّ! وفي مدن نيويورك وسان فرانسيسكو وشيكاغو ولوس آنجلس صالونات خاصة لتجميل الكلاب، هذه الصالونات في هذه المدن لا تعدّ ولا تحصى وهي دائماً مليئة بالزبائن الكرام! والمباشرون للتجميل عليهم أن يمارسوا دورة تدريبية تعليمية بمدارس خاصة لمدة ستة أشهر أو سنة كاملة كي يتفوقّوا لتحصيل شهادة الديبلوم في تجميل الكلب! وفي كل المدن الكبرى الامريكية تقريباً توجد مقبرة بل ثلاث وأربعة مقابر خاصة بالكلاب، سوقها قائم ورائج، ولها سنوياً أرباح طائلة تصرف على كفن الكلاب ودفنهن والمراسيم التي تقام لذلك!».

---

(١) عن الجريدة الإيرانية: إطلاعات، العدد: ١٣٢٤١.

وفي أمريكا هذه التي تصرف هذه المصاريف لتجميل الكلب يوجد خمسة ملايين شخصاً عاطلون عن العمل لا شغل لهم، ولتأمين حياتهم لا يأبون أن يمارسوا أيّ عمل كان!

لا شك في أن «حماية الحيوانات» والمنع عن ايذائها عمل إنساني، ولكن ألا ينبغي أن يتمتّع البشر المُتعب والذي لا ملجأ له من عطف الناس المتحضّرين بمقدار الحيوانات؟!

حقاً يتحير الإنسان من كل هذا التناقض، في عالمنا الحاضر تقبض أرواح آلاف الافراد يومياً من الجوع هذا وآلاف الافراد الآخرين يصرفون مئات الملايين من الدولارات لتجميل الكلاب! ويرتفع نداء العلماء الواقعيين من مشاهدة هذه المناقضات غير الإنسانية وغرور الإنسان في القرن العشرين، من أمثال الدكتور «كاريل» ويعلن للعالم المتحضّر أن: «قدّموا أطروحة للحضارة الإنسانية من جديد» فانّ الحضارة الراهنة للعصر الحاضر قد عرّت الإنسان عن المميزات الإنسانية الراقية والسامية.

آثار فقد المحبة، والشعور بالخلل

للمرأة بالنظر الى الجهاز الجسماني وتكاليفه البيولوجية وضع خاص، فقد جهّزها نظام الخلقة بمصالح ومواد خاصة، وهي مكلّفة بأن تؤدّي دورها في ساحة الحياة جيداً. وبإزاء القابلية الجسمانية وكيفيته في المرأة، تحدث خصائص الامومة فيها كيفية عاطفية وفكرية وعصبية وروحية خاصة، من أهم وظائفها تربية وليدها ومداعبته التي لها الاهمية التامة من الناحية النفسية، فانّ متطلّبات الطفل وتربية غرائزه اللطيفة إنّما تؤمّن في كنف العاطفة والاحاسيس الملتهبة للام، وليس هناك أيّ شيء آخر يمكنه أن يملأ هذا الفراغ. فلا تُشبع عواطف الطفل وأحاسيسه في المراضع ودور الحضانات وروضات الاطفال، مهما كانت مجهّزة بأحدث الوسائل والادوات، وفقاً للطبّ والصحة. فالاطفال الذين لم ينمو في ظل محبة الام وعواطفها والذين حُرموا من ملاطفات الامومة الخاصة، سيصابون بأنواع العقد النفسية. ولكن المرأة في العالم الغربي قد تخطّت حدود وظائفها الطبيعية على أثر اشتغالها بالاعمال خارج الدار، وهي بتحريفها لقواها العظيمة عن مجاريها الطبيعية والصحيحة قد كسرت سنّة من السنن الثابتة للحياة والطبيعة.

لا شك في أن الشيوعية والحضارة المادية الغربية لا تقدر على تغيير الطبيعة البشرية إنهم خلعوا المرأة عن منصبها الاصلي ووظائفها الاوّلية، وهذا الامر سبّب في ظهور سلسلة من المفاسد الروحية والاجتماعية والاخلاقية. فالاضطرابات والقلق الذي يحدث في الاطفال المحرومين عن عواطف الامومة كالعقد النفسية مما لا يمكن جَبْره وتلافيه واستدراكه بأيّ

طريق كان.

يقول علماء النفس «إن المرتبية التي ربما تختار شغلها لإمرار معاشها ولا ذوق ولا اشتياق لها للتربية بل تنظر الى الاطفال بعين العناد (أو الإهمال) وهي عصبية وتفتقر الى الثقة بنفسها، هذه لا تقدر على قيادة عواطف الاطفال في المسار الصحيح»[1].

كتب العالم الشهير الدكتور «كاريل» بشأن أخطاء الاسر الاوربية يقول: «إن الخبط الكبير في المجتمع اليوم في أنهم استبدلوا رياض الاطفال والمدرسة الابتدائية بدل جو البيت وأحضان الام منذ السنين الاولى، ولنعلم أن هذا الامر ناتج من خيانة النساء! إن الامهات اللواتي يودعن أطفالهن الى رياض الاطفال ليتفرغن لاعمالهن الإدارية أو أهوائهن وتفنناتهن الادبية والفنية،وليقضين أوقاتهن في الالعاب والسينما بالبطالة، يسببن إخماد جذوة الاسرة التي يتعلم الاطفال فيها كثيراً من الامور، فانّ نموّ الاطفال الذين يربون بين أسرهم أكثر من الاطفال الذين يعيشون بين أقرانهم في مدارس داخلية ليل نهار. إن الطفل يصوغ خصائصه البدنية والنفسية والعاطفية في قولبة شرائط محيطه، ولذلک فهو لا يتعلم من أقرانه إلّا قليلًا وحينما يتنزّل كوحدة ضائعة بين سائر أقرانه بالمدرسة فانّه لا ينمو جيّداً، وكلّ فرد منهم بحاجة الى الإنفراد النسبي ورعاية مجتمعه الصغير العائلي من أجل التربية والنموّ الصحيح»[2].

وإليكم تقريراً عن الاضطرابات العائلية، والآلام الكثيرة للمرأة في هذا المجتمع المتحضّر أصيبت بها حيث سحقت وظائفها الاصلية وزاولت الاعمال خارج بيئة البيت:

«إن خمساً وعشرين بالمئة من النساء الامريكيات اللواتي يتقدّمن في امريكا الى المحاكم بطلب الطلاق، مصابات بأنواع الامراض النفسية. وإن في كل سنة يسقط مئة وخمسون ألف طفل فريسة لطلاق أمهاتهم من آبائهم.

المرأة الامريكية تتعب في الخارج وترجع هكذا الى البيت، وقد جرّبت أنّ مساعيها في المجتمع الحضري لا يثمر لها سوى بعض الامراض النفسية، وهي تتألم في الدار أيضاً، فهناک الملايين منهن يتناولن أقراصاً بصورة رتيبة، ويُسرعن الى الاطباء النفسانيين، فهي

(١) بالفارسية: روانشناسی كودک: ٢٩٧.

(٢) بالفارسية: انسان موجود ناشناخته: ٢٦٠=الإنسان ذلک المجهول.

مُرهقة، وإرهاقها هذا نتيجة لنشاطها الشديد في المجتمع المكنى والملئ بالضوضاء. يقول الدكتور «جورج مالى» الخبير النفساني للشباب:

«إنّ كثيراً من الاضطرابات النفسية للشباب من ذكريات عهد الطفولة، والامّهات هنّ المسؤولات عن ذلك، فالطفل الكذوب، والذي يعذّب الحيوانات، والذي لا يقدّس قوانين المجتمع، هؤلاء لم يتلقّوا رقابة الامومة ورعايتها»[1].

إنّ العلاقة والمودّة القلبية اليوم قليلة بين الوالدين والولد، والاولاد لا يشعرون بمسؤولية عن تكليف بالنسبة الى والديهم بسبب قلّة المودّة لديهم. وكثيراً ما يتّفق أن لا يرى أعضاء الاسرة بعضهم الآخر لعدة سنين. وبالخصوص سلوك الوالدين بالنسبة إلى أولادهم البالغين سنّ الشباب، ويُرى بكثرة أن الوالدين يخرجان أولادهما في هذه السنّ، وهم يضطرّون بعد ترك دار الوالدين إلى أن يعيشوا لوحدهم مجرّدين، وإذا أذن الوالدان ببقائهم عندهما فعليهم أن يتحملوا نفقة أنفسهم، وإذا كسروا شيئاً فعليهم أن يدفعوا ثمنه أو يشتروا لهما مثله. وهذا السلوك يؤدي إلى آثار سيئة جداً ولا سيّما في الفتيات، حتى أنهن يرجّحن أن يخرجن لوحدهن على أن يبقين في دار الوالدين، وإذا وقع ذلك تلوّثن بأنواع المفاسد بمعاشرتهن الشباب ولبعدهنّ عن الأُسرة وعدم وجود مربٍ عطوف عليهن.

ومناسبات الصداقة وعلاقات الناس بعضهم ببعض فاترة وبعيدة عن عمق العواطف، فكانّما قد تلاشت المحبة القلبية والعلاقة العاطفية بين الماكنات الصناعية! فلا تجد أثراً من الإيثار والعفو والصفح والمواساة، حتى يكاد لا يجاوز عدد الاصدقاء لكل أحد عدد أصابع اليد الواحدة!

فكانّما العالم المتحضّر من أجل أن يقرّر النظام الاجتماعى الجديد جمّد منابع الانسانية فى نفوس الناس أو أفرغها فى قوالب جافة جامدة. فتعاون الناس بعضهم لبعض بحكم القانون بينما هم بعيدون بقلوبهم، فلو أُصيب أحد بمشكلة لا يبادر الآخرون لحل مشكلته أو عقدة عمله، وليسوا مستعدين لان يتحمّلوا من أجله خسارة مادية، أو ألماً أو زحمة، إلّا أن يقرّر عليهم تكليفهم القانوني تعاوناً أو مساعدة، من دون أن يتلقّوا هذا التعاون كوظيفة وجدانية أخلاقية أو

(١) عن المجلة الاسبوعية الإيرانية: اطلاعات هفتگی، العدد: ١٢٠٦ نقلاً عن مصادر أجنبية.

عمل خير صالح!

حينما كان كاتب هذه السطور راقداً في المستشفى في ألمانيا كنت أنا أكثر من جميع المرضى عيادةً! و أنا هناک غريب! فكان هذا الموضوع عجيباً لدى عمّال المستشفى، ذلک أني لم أرَ الالمانيين يعودون أقرباهم المرضى إلّا نادراً جداً!!

و لا بأس في أن انقل هنا حادثة عجيبة كشاهد حتي تصلون به الى مقدار العواطف لدى هذه الشعوب المتحضرة: قبل عدّة سنين تشرّف بالإسلام لدى رئيس الجمعية الإسلامية في هامبورک بألمانيا أحد أساتذة جامعة ألمانيا. وبعد مدّة رقد هذا المسلم الجديد المستشفى على أثر مرض عارض، فلما علم به رئيس الجمعية الإسلامية عاده في المستشفى فواجهه البروفيسور بوجه مغموم مهموم، فسأله الرئيس عن علة ألمه و انكساره، و كان البروفيسور الى تلک اللحظة ساكتاً واجماً حزيناً لا يتكلم، ثم بدأ يتكلم فشرح للدكتور قصته العجيبة والمؤسفةقال:

عادني اليوم ولدي مع أمه، وعلموا من قِبل المستشفى أني مصاب بالسرطان، فلمّا أرادوا أن يخرجوا ودّعوني وقالوا: أنت ـ كما بلغنا ذلک ـ مصاب بالسرطان على أعتاب الموت! ولم يبق من عمرک سوى أيام قلائل، فنحن نودّعک الآن لآخر مرة ونعتذر إليک عن عيادة أخرى مكرّرة!

واستمر المريض يقول: ليس تألّمي هذا المحسوس وعذابي النفسي لإنسداد أبواب الامل في الحياة بوجهي وأني يئست من الحياة، بل ما شاهدته من سلوک لا إنساني بعيد عن الإنصاف من ابني وزوجتي هو الذي آلمني وضغط على روحي كثيراً.

فأجابه رئيس الجمعية الإسلامية متأثراً لحالته قال: بما أن عيادة المرضى في الإسلام مؤكّد عليها جداً لذلک فانّي سأعودک كلّما سنحت لي فرصة لذلک، عاملًا بذلک بتكليفي الديني. وسطع على وجه المريض من هذه الكلمة بهج ووهج. لكن مرضه كان يشتدّ يوماً فيوماً حتى مات بعد عدة أيام. ولاجل القيام بتجهيزه ودفنه ذهب عدد من المسلمين الى المستشفى وحملوا جنازته الى المقابر، وعند الدفن فاجأهم شاب يبدو على وجهه الغضب وسألهم: أين جنازة البروفيسور؟ أجابوه: وهل لک نسبة الى المتوفى؟ قال: نعم هو والدي، قبل أيام كنت قد بعت جسد والدي للمستشفى بمبلغ ثلاثين ماركاً ألمانياً والآن جئت لأسلّم

جثته الى المستشفى للتشريح!!

كلما أصرّ على ذلك لم يجد شيئاً، إذ واجه خلافاً من الحضّار وعدم الرضا بذلك، فاضطر أن ينصرف ولا يعقّب. ثم تبيّن أنه عامل في بعض المعامل نصف النهار وفي النصف الآخر يعمل في صالون تجميل للكلاب!!

من هذه الحادثة وهي واقع مرّ نصل الى مدى انعدام المحبة والعواطف الإنسانية في هذا المجتمع المتحضّر.

مما لا يمكن إنكاره أنّ البشرية اليوم من حيث الفضائل الاخلاقية تمشي القهقرى، والمفكّرون الكبار إذ يعترفون بهذه الحقيقة المُرّة يفكّرون في طرق علاجها وهم يتألّمون كثيراً من هذا الوضع غير المستساغ، إنهم قد أدركوا الالم جيداً، وهم يشعرون بضرورة النضال الجاد ضدّ هذا التحلّل والتفكّك، ومن أجل بناء جديد على أساس الفضيلة والإيمان.

الذين هم يعيشون هذه الحياة قد التفتوا الى أنها حياة فارغة خالية خواء لا تقدر على أن تسعد البشرية، ولا بأس بأن تسمعوا هذا الاعتراف الصريح على لسان الرئيس الامريكي حين أدائه اليمين الدستورية:

«نحن نجد أنفسنا أغنياء من حيث البضائع، ولكن نفوسنا مضطربة، بينما نصل الى القمر بدقة مشرقة مصابون هنا في الارض بتشتّت محطّم!

نحن مصابون بالحروب نريد سلاماً، وقد تقطّعنا النفاق فنحن نبحث عن الحقيقة والوفاق! نرى فيما حولنا حياة فارغة، ونحن نأمل أن نقتنع بحياتنا.

بازاء ما اصابنا من القلق المعنوي نحتاج الى إجابة معنوية، ومن أجل أن نجد هذه الإجابة علينا أن ننظر في أنفسنا، وحينما نصغي بأسماعنا الى نداء ضميرنا نجده يمجّد بأمور ساذجة ولكنّها أساسية، كالاحسان والعفّة، والعطف والمحبة».

وكتب العالم الفرنسي الشهير «الدكتور الكسيس كاريل»: «نحن بحاجة الى عالم يقدر كل أحد أن يجد فيه محلّا مناسباً له، ولا ينفصل فيه الماديّ عن المعنويّ، ونعرف فيه كيف نعيش، فقد فهمنا تدريجياً أن السير في طريق الحياة بلا دليل خطر، والعجيب أنّ التفاتنا الى هذا الخطر لم يدفعنا الى البحث عن الوسائل المعقولة للحياة، والحقيقة هي أنّ الذين هم ملتفتون الآن الى هذا الخطر قليلون جداً.

إنّ القسم الاعظم من الناس اليوم يعملون بأهوائهم، وهم في سكر غرور مما أعدّته لهم التكنولوجيا من التسهيلات المادية، وهم غير مستعدين لان يغسلوا أيديهم ويصرفوا النظر عن أي شيء مما أحدثته لهم الحضارة من مزايا. إنّ حياتنا تتبع منحدر تمنّياتنا وتنزلق نحو كل هوان وفساد، كمياه الانهار التي تغوص في البحيرات أو الاهوار أو الرمال، كذلک تتمايل حياتنا اليوم الى نحو النفعية وإشباع التمنّيات الشهوانية والملاهي المغريات.

بدل أن نبني حياتنا على المفاهيم العلمية أي واقع الحقيقة، بنيناها في قوالب الايديولوجيات المصوغة، فاصبحت حياة لا تقضي حاجاتنا الحقيقية، فسنبقى نحن فيها دائماً غرباء. ان الإنسان المتحضّر قدّم المادة وضحّى بالمعنويّ أمام الماديّ، وفضّل الراحة على القوة والنشاط.

نحن اليوم نتقدم الى الامام في سير الزمن وفقاً لمصادفات التقدم التكنولوجي، من دون أن نولي عناية الى الحاجات الاصلية لاجسامنا و أرواحنا. مع أننا نغوص في هذا العالم الماديّ نزعم أنفسنا مستقلين عنه ولا نريد أن نعلم أننا من أجل استمرار حياتنا علينا أن نسلک وفقاً لمقتضى طبيعتنا وطبيعة الاشياء لا وفقاً لاهوائنا وشهواتنا، وقد مرّت على البشرية المتحضّرة عدة قرون وهي تنزلق في هذه اللّجة وتغوص.

إنّ الإنسان التكنولوجي اليوم مختلق بيد الماركسية والرأسمالية لا الطبيعة، إنه لم يُخلق من أجل أن يوجد شيئاً فيستهلكه، بل انّه منذ بداية تطوّره وتكامله قد أقبل على حبّ الجمال والشعور والاحساس الديني والاستطلاع الفكري والتصور المبدع وحياة الابطال والتضحية والفداء والتفاني، ولو حُصر في نشاطه الاقتصادي فقط فكانّما هم يقتطعون شطراً كبيراً منه. وعليه فانّ الرأسمالية والماركسية كلاهما يسحقان ميوله الطبيعية الاصلية فيه»[1].

ولو أراد العالم اليوم أن يُحرق جذور كل هذا الفساد والانحطاط، فلا سبيل له الى ذلک إلّا أن يستلهم لذلک من التعاليم الإلّهية من الانبياء والمرسلين، أما ما دام إعصار الشهوات قد اظلم فضاء العقل البشريّ، وما دامت التلوّثات قد أحاطت بيديه ورجليه كسلسلة من حديد فهي تمنع صعوده نحو سعادته، فلا أمل في نجـاة البشرية، وإنّما يتيسّر تحطيم هذا الفساد

(١) بالفارسية: راه و رسم زندگی: ١٥ و ٣٤.

بإحداث ثورة في أفكار النائمين في وادي الضلالة. وبكلمة: ما لم نبذل عناية خاصة بالقيم المعنوية وواقع الإنسانية فانّ السعادة لا تبدو على آفاق الحياة.

القسم الثاني

ما هي اجابة الاسلام على مشاكل العالم المعاصر؟

لنتساءل عن الاسلام

قمنا فى الابحاث السابقة بتحليل عن الحضارة الغربية، و الان علينا أن نبدأ بدراستنا بشأن التمدّن والحضارة الإسلامية. ونحن نلتفت الى هذه النقاط ليعلم من طريق المقارنة أن الإسلام ماذا قدم للعالم البشريّ من أُسلوب منطقي ورصين على جميع الاصعدة.

ونأمل من فضل الله أن يكون هذا البحث لمن كان يبحث عن الحقائق والاهداف الإسلامية بإخلاص ومفتّشاً عن الحقيقة عن صدق، مفيداً نافعاً مثمراً إن شاء الله تعالى الرحمن.

ومجال البحث في كل من العناوين المختارة وإن كان واسعاً جدّاً وبحاجة الى كثير من الشرح والتبسيط، ولكننا انّما بحثناها بقليل من التحليل المركّز كي لا يشعر القرّاء بالملل من هذه المباحث، ولكي تكون بمنزلة مفاتيح لابحاث ترشدنا نحو الحقيقة ولو شيئاًمّاً.

إنّ نظريات الإسلام من حيث الانسجام والكمال والشمول والاستيعاب لجميع الجوانب الروحية وكل جوانب الحياة والعمق، لا مثيل لها فيما توصلت إليه البشرية لحدّ الان، فانها تشتمل على كل طرق الخير و السعادة، و الاسلام بروحه العلاجية يعالج كل مشاكل البشر جميعاً، وإن رصانة أحكامه في جميع ما يمكن أن يتوصّل إليه العقل الإنسانيّ من شؤون المجتمع واضحة ملموسة محسوسة.

إن من أكثر أهداف قوانين الإسلام أصالة هي تربية الإنسان وتكامله من جميع

الجوانب، وحيث لا يمكن أن يتغاضى عن أيّ واقعية في عالم التربية فانّ الإسلام يلاحظ كل الواقعيات التي تمس وجود الإنسان وتمت إليه بصلة.

إنّ الإسلام لم يتلوّث بأخطاء البشر اليوم في تصوّر ماهية الإنسان، هذه الانظمة التي تخطئ في تعيين موقعية الإنسان الى حدّ أنها قد ترتفع به الى مقام الالوهية كي يستند حينئذٍ الى غروره ورضاه عن نفسه وحبّه لذاته. وقد تسقط به الى أنزل مراحل العبودية فتسلبه كل قدرة وإرادة وتراه عاجزاً قاصراً لا حيلة له أمام القوى المادية الطبيعية القاهرة.

بينما الإسلام قد وضع الإنسان في محلّه الواقعي، وهو يصفه بأجمل شكل وأحسن ما يحسن به، ويقرّر له موقعية خاصة وممتازة بازاء ساير الموجودات.

إن الإنسان في مرآة الإسلام خلق ذو مقام رفيع، وهو بين سائر الخلق شاخص لا نظير له.

إن الإسلام يرى أن حياة البشر لا تنقطع بمقراض الموت، وأن حياته حياة خالدة ومستمرة، وأن الجانب الدنيوي لا ينفصل عن الجانب الاخروي، وحيث أن هناك اتّصالاً تامّاً بين الروح والبدن فلن يحدث انفصال بين عنصري البدن والروح، ولذلک فهو يعرض برنامجاً مشرقاً للعالمين وهو يريد أن يرتبي الإنسان الابدي والخالد، وهذه طريقة تستلهم من القوة العامّة لنظام الخلقة العظيم.

ومع أن الابدية والخلود قد أظلّ على جميع جوانب المدرسة الاسلامية الغنية من العقائد والاحكام والاخلاق، مع ذلک قد فتح باب حرية التفكير والاجتهاد في المسائل المستحدثة والمواضيع موارد الحاجة للمجتمعات البشرية في مسيرة التقدم والتكامل، لكي يكون بالإمكان التوفيق بين متغيرات الحياة وبين ثوابت الشريعة.

فللإنسان بنظر الإسلام دوافع تتعلق بالمادة، وله متطلّبات وميول تهدف الى أن تكسر قيود المادة فيرتقي ويتعالى، فلكل من الروح والجسد الإنساني متطلّبات يجب أن يعتني بها من دون تفضيل مصلحة على مصلحة (تفضيلاً مُجحفاً).

فالإسلام يخالف انهدام الموازنة بينهما، ويلاحظ سعادة الإنسان بالنظر الى جميع الجوانب والميول المادية والمعنوية، ومن دون أن يقمع شيئاً من الميول الفطرية أو يقطع شيئاً من خيوط ارتباط الإنسان بالمادة في عملية اجتذابه الى الاعلى، وهو يلاحظ في ذلک طهارة

طبيعة الإنسان حد الإمكان. والخلاصة أن الإسلام قد وقف موقفاً وسطاً بين سلسلة من العقائد والانظمة الموضوعة في سبيل اختناق الغرائز الإنسانية، وبين أفكار تنادي بالحرية الحيوانية المطلقة والتي يقف الى جانبها جمع من علماء النفس من نظراء «فرويد».

إن الإسلام ليس نظرية خيالية في عالم التصورات، ولم يأت لتصحيح أساليب الحياة، بل انّه هو مشرّع الحياة ذات المعنى والمغزى والهدف، وإنّ لثقافته الشاملة ميزة التحرك والبناء، وهو النظام الحق ذوالفكر الشامل والمستوعب للحياة، أرقى وأسمى من أساليب التفكير الماديّ، وسيسود المعسكرين الشرقي و الغربي، و بامكانه أن يستخلف كل المدارس و الاساليب الفكرية بايديولوجية أقوى وأشمل وأكمل، تفوق وتمتاز عليها جميعاً من حيث سعة أفق التفكير.

إن الإسلام قد طرد أسلوب التفكير الماديّ الصرف، فلا يعرف ولا يعترف بأن تكون أولوية المادة والاقتصاد وأصالة اللّذة ملاک السعادة وأساسها، وإن أسلوب التفكير الإسلامي بشأن الحياة يختلف في طبيعة أصوله اختلافاً أساسياً وكلّياً مع الانظمة الموجودة في العالم المعاصر، والتي لا تقبل بأي نتيجة أو هدف سام للحياة سوى النتائج والثمار والاهداف المادية فقط.

إن الإسلام لا يحبس الإنسان في إطار الماديات والامور الاقتصادية، إذ أنّ أساس دعوته أجمع وأوسع من أن يتحدّد في إطار الاصلاحات الاقتصادية فقط، فهو لا يغفل عن مختلف النواحي الاخرى للحياة والميول السامية للإنسان، وقد قرّر نظام حياته وأسلوبه على أصول معنوية وروحية وأخلاقية وقرارات قابلة للتطبيق على نظام الخلقة العام والخاص للإنسان، وهو في نفس الوقت الذي يقرّر فيه التعاون الاجتماعي بين أبناء الإنسان يرتفع بقيمة الحياة الى أفق أعلى من هذه الآفاق القريبة المادية، ويخرج بالفرد والمجتمع من مضيق الاهداف الصغرى والحقيرة، ويدفعهم الى الجدّ والسعي في ساحة الاهداف السامية للحياة، ويجتذب الطاقات البشرية نحو التقدّم والتكامل الذي اضمره له ناموس نظام الحياة.

إن التربية الإسلامية تبتني على أساس أن تصفّي وتهذّب العواطف الإنسانية، وتدفع بها للعمل في المسار الصحيح والمعقول، ولتأمين أهدافه على هذا الصعيد يتقدم بخطواته الى الامام ببصيرة تامّة. فهو يسلک بما هو موجود في طبيعة الإنسان من الدوافع المحرّكة للحياة

من جانب والميول الفطرية والحاجات العريقة والاصيلة من جانب آخر، في نظام خاص جامع شامل كامل، ويهتم برعاية كلّ منهما فى محله، فهو ينظّم و يضبط الميول المفرطة والمتسرّعة بوسائل مختلفة، كي لا تتمكن هذه الغرائز من أن تسجن العقل وتأخذ بزمام اختيار مصير الإنسان بصورة كلية، وهكذا يمنع عن سقوط الإنسان في ورطة الهلاک، وفي نفس الوقت يبيح لكل فرد بحظّ معقول من المُتع المادية.

وبناء على ذلک فالإنسان في بناء حياته وتطوّرها يصرف شطراً من قواه لإستقرار الحياة، ويعمل بالقسم الآخر في الإستجابة لمتطلّباته المعنوية وميوله النفسية غير الشهوانية.

وكلمّا حدث هكذا انسجام في طبائع أفراد المجتمع، انتظم الفرد والمجتمع كلاهما، وتعادلا في أفكارهما وسلوكهما، واتّجهت حياة الإنسان نحو الحق والصدق والهدى.

وحيث أن أساس هذه التربية قد تأسست على قاعدة عقلية فالدعوة الدينية ليست إلّا الى سلسلة من العقائد النزيهة عن شوائب الاوهام، والى قوانين وقرارات عملية وفضائل أخلاقية يدرک الإنسان بقوة موهبة العقل الإلّهيّة واقعيتها وصحتها. وإن جميع تعاليم الإسلام وتكاليفه في إطار الوسع والطاقة لكل فرد، فهو في حين التشريع الإيجابي أو السلبي يلاحظ كل إمكانات الطبيعة البشرية وشرائطها، ولا يكلّف الإنسان في أعماله وسلوكه بأكثر مما في وسعه وطاقته، وكل مسؤول عن تكاليفه التي يُجازى عليها يوم القيامة وفقاً لوسعه وطاقته في الإرادة والإمكان في الانحطاط أو الكمال.

إنّ أكثر المنابع الحقوقية اليوم أصالةً هي الإرادة العامة، فمستند القانون في النظام الديموقراطي اليوم إرادة الاكثرية (واحد وخمسون بالمئة) بل لا تعترف الديموقراطية بأي مصدر آخر لتقرير مصيرالمجتمع سوى الإرادة العامة. وفي هكذا أنظمة لا يقيّمون إرادة الاقلية (تسع وأربعون بالمئة) بل يسلبون منهم حريتهم في أعمالهم ولو كانت نظرية الاقلية صحيحة تتفق مع الواقع. وبكلمة فانّ العالم المتحضّر يرى أنّ «سيادة إرادة الإنسان» من أقدس الاصول الاجتماعية وأنّ هذه القداسة والعظمة لا تنفکّ عن الإرادة العامة، وأن مرجع جميع القيم المادية والمعنوية ترتبط بالإرادة الوطنية والقومية.

بينما أزمّة التشريع في الإسلام منوطة بإرادة الله ربّ العالمين، لا على أساس الميول والعواطف غير المحدودة لاكثرية الافراد. فالإسلام يرى أن التشريع أمر لا يمكن أن ينفکّ

عن مقام الالوهية، وإنّ نظرة الإسلام بشأن الحاكمية المطلقة لله واسعة تشمل كل الحياة وشؤون الإنسان فكما أن العبادة خاصة به لا شريك له، كذلك الحاكمية المطلقة وتشريع القوانين وإصدار الاوامر بشأن العباد من شؤون الله، ولا يحق لايّ فرد أن يضع القوانين أو يصدر الاحكام كيفما يشاء ويهوى ويريد.

فكيف نرى الله أهلًا للعبادة في حين نأخذ دساتير الحياة من غيره ؟!

وعليه فلا يحق لاحد أن يرى نفسه شريكاً لله في حاكميته فيشرّع القوانين معارضاً بها القوانين الإلّهيّة[1].

إن الإسلام يهدف الى أن يُعمل بمقتضى الحق في جميع شؤون المجتمع الإنساني، والحق لباس قيّم خاطه الله لعامة الإنسان (فرداً وجماعة) ولا يخص الحالات والاوضاع الاجتماعية أو السياسية أو الاقتصادية فقط.

كما أن كيفية بناء وجود الإنسان كيفية معقدة مليئة بالاسرار، فكذلك القوانين والمقررات التي ترتبط بحياة الإنسان. وليس لاحد أن يدّعي أنّه مطّلع على جميع أسرار وجود الإنسان وحالاته الاجتماعية المنتجة عن الاوضاع الروحية والجسمية الخاصة وعلاقات بعضهم ببعض، بصورة تامة وبشكل كامل ودقيق، وأنّه هو مصون عن الزلّة أو الخطأ والاشتباه.

فالبشر بالنظر الى محدودية علمه مع كل ما بذله العلماء منهم من جهد لاكتشاف أسرار وجود الإنسان فقد بقي العلم بالإنسان كطلسم أو لُغز أو سرّ غامض.

وقد كتب الدكتور الكسيس كاريل العالم الشهير مستلهماً من العلوم العصرية يقول:

«حقاً إنّ الإنسان قد بذل جُهداً وافراً في سبيل معرفة نفسه، ومع كل ما وصل إلينا من المواضيع الكثيرة بهذا الصدد من قبل العلماء والفلاسفة الكبار وحتى الشعراء، لم نعرف من عالم أنفسنا إلّا جوانب معينة فقط، نحن لم ندرك الإنسان كلياً من قرنه الى قدمه، بل هو في نظرنا: موجود مركبٌ من أجزاء عيّنتها وسائلنا وأدواتنا، وقد أحاطت بأطراف كل واحدة من

---

(١) أما القوانين والقرارات والتشريعات والانظمة والأحكام والاوامر التي لا تعارض الإلّهية منها فلا مانع منها حتى على مبنى آراء أكثرية الشعب أو الأمة أو أولى الامر أو أولى الحل والعقد منها حسب أمر ولي الامر الشرعي أو أولى الامر الشرعيين ـ المترجم.

هذه الاجزاء هالة من الغموض والإبهام.

بل الحقيقة أن جهلنا كثير في ذلک، ذلک أن كثيراً من الاسئلة التي تتراءا لاهل الفنّ أي المشتغلين بدراسة النوع الإنساني، يبقى أكثرها بلا جواب، وذلک بسبب أن هناک كثير من المجالات في باطن ذواتنا لم يسخّرها العلم حتى اليوم.

بدهي أنّ كلّ ما ظفر به العلماء في دراسة الإنسان قليل جدّاً، بحيث نطوي نحن اليوم في معرفة أنفسنا مراحل بدائية في الأكثر»[1].

وبناءً على ذلک فمع عدم معرفة كل الاسرار في وجود الإنسان لا يمكن للبشر أن ينظّم قوانين تتوافق مع كل منافع النوع الإنساني، ولا أن يجد حلّاً عادلاً لكل المشاكل البشرية. وإنّ أبرز الادلة على ذلک حيرة العلماء والحقوقيين أمام المشاكل الحديثة التي تُصاب بها البشرية، وأن القوانين المدوّنة تتعرض للتغييرات. أضف الى ذلک أنّ المشرعين يتأثرون بميول أنفسهم ومتطلباتهم وغرائزهم ومنافعهم ومصالحهم وحبّ الجاه والمقام والافكار الخاصّة الناتجة عن شرائط المحيط وأُسلوب المعيشة والحياة، ولذلک فهم يُدخلون نظرياتهم ومتطلّباتهم الشخصية في وضع التشريع، وهم عند تنظيم القوانين يتّجهون ـ علموا أم لم يعلموا ـ بأفكار هم الى جهة تؤمّن على نظريتهم الشخصية أو الخاصة. كتب «مونتسكيو» يقول:

«ليس هناک مشرّع قانوني لا تكون له نظرة خاصة في ذلک القانون، والسبب في ذلک أنّ لكل مشرّع عواطفاً وأفكاراً خاصة، فهو حين وضعه للقانون يريد أن يضمّنه ما يوافق نظرته. فأرسطو طاليس كان في وضعه للقوانين يحاول أن يسكّن فورة حقده وحسده بالنسبة الى أفلاطون فينتقم منه، ويبدي حبّه بالنسبة الى اسكندر. وكان أفلاطون بدوره يضادّ الاستبداد في شعب اثينا ونشعر بهذه الكراهية في قوانينه. والفرض أن القانون يتأثر دائماً بعواطف المشرّعين وأحاسيسهم، بل قد يتأثر القانون بنظر المشرعين وعواطفهم الخاصة بشكل كامل وبصورة مطلقة»[2].

---

(١) بالفارسية: انسان موجود ناشناخته = الإنسان ذلک المجهول.

(٢) عن الترجمة الفارسية لروح القوانين لمونتسكيو: ٥٩٣.

إن هتافات: الحرية، والمساواة والإرادة الشعبية، في عالمنا اليوم ليست كلمات فارغة جوفاء وليس بمستطاعها أن تغطّي على الحقائق، فإرادة الشعب في تشريع القوانين صورة خيالية ظاهرية للسياسة في هذا العصر الحديث، بينما في الواقع هي إرادة القادة وهي التي تصوّر صورتها الواقعية.

كتب الكاتب الإنجليزي «هنري فورد» بشأن وضع مجتمعه الذي يُعد مهد الديموقراطية في العالم، يقول: «لا زلنا نتذكّر الحادثة التي حدثت على أثر الاعتصام العام الذي كان بانگلترا في سنة ١٩٢٦م، وحاولت الدولة بكل قواها أن تكسر هذا الاعتصام، ثم أعلنت قانوناً كان موضوعاً بيد الرأسماليين وأصحاب الاموال يقول: إن هذا الاعتصام يناقض أصول الدولة، ثم اشتبكت قوات الپوليس وكتائب الجيش مع الناس بمعونة الطلقة النارية والدبّابات والمدرّعات.

وبدأت الإذاعات والصحف بالدّعاية فوصفت الدّولة بأنها تخدم العمّال، وهدّدت اتحاديّات العمّال بمصادرة الاموال وسجن قادتها».

وإنّ خطاب «خروشوف» في المؤتمر الثاني والعشرين للجنة المركزية للحزب الشيوعي للإتحاد السوڤيتي، يبيّن ماهية النظام الديكتاتوري العمّالي أيضاً، يقول: «حينما كان سابقاً يحكم النظام الفرديّ (في عهد ستالين) بدت في قيادة الحزب والدولة والشؤون الاقتصادية مفاسد عديدة، حيث كان أولئک يصدرون أوامر يسحقون بها حقائق، وكانوا يتخوّفون من المستقبل فيعملون بحيطة وحذر، ولذلک فقد ظهر في هذه الظروف عدد كثير من المتملّقين والمنافقين والكذّابين الدجّالين».

هذه في الصورة الاعتيادية لهذه الانظمة في الشرق والغرب، بينما هم يتحدّثون في الظاهر عن إرادة الشعب، والحكومة البرلمانية، واللجان الشعبية، والوطنية، والقومية، وإرادة الجماهير، وغيرها من الصور الخدّاعة!

والقوانين في هذه الانظمة الفاسدة، سواء الرأسمالية أو الشيوعية أو الاشتراكية منها، حيث لا تشرّع على أساس الاحكام الإلّهيّة السماوية، فهي تُشرّع على أساس منافع الحكام وميولهم دائماً!

كتب «جان جاک روسو»: «من أجل أن نكتشف أفضل القوانين التي تنفع وتصلح

لكل الامم وجميع الشعوب لابدّ من عقل كامل شامل، يرى جميع الشهوات الإنسانية ولكنه لا يشعر بشيء منها، لا يرتبط بالطبيعة ولكنه يعرفها تماماً، لا تتعلق سعادته بسعادتنا ولكنه يستعد لمساعدتنا لاسعادنا»[1].

بالنظر الى هذه الحقائق المذكورة فانّ أفضل مشرّع صالح تتوفر فيه الشروط على أحسن وجه هو الله خالق الإنسان، الذي هو عالم بجميع أسرار وجوده، والذي لا نفع له في المجتمع البشريّ، والغني عن كل أفراد الإنسان. ولذا فيجب أن نتعلم أُصول القوانين الاجتماعية الصحيحة ممّن يستلهم من هذا المبدأ بشكل مباشر، والذي تنبع تعاليمه من نور الوحي، والمستند الى العلم الإلّهي اللّامحدود.

ومن الفوارق الاساسية بين القوانين الإلّهيّة والقوانين البشرية هو أن أساس القوانين والقرارات البشرية هو نظام المجتمع، ولا تتعدى قراراتها عن هذا الحدّ المحدود والمرسوم، ثم لا دخل لها في كيفية حالات الافراد، وأُسلوب تفكير الإنسان وصفاته ومزاياه الروحية وسائر شؤونه التي لا ترتبط بالمجتمع، ولا علاقة لها بإصلاح التلوّثات الباطنية ما لم تصل الى مرحلة العمل وما لم تكن مُخلّةً بنظام المجتمع، مهما كان الفرد في جميع شؤونه الفكرية والروحية متلوثاً غير طاهر ولا نزيه وفيه مختلف النقائص والنواقص. إن القوانين التي تحكم اليوم العالم الغربي إنّما هي ناظرة الى أعمال الناس فحسب، ثم لا تنظر الى طهارة قلوبهم ونزاهتها. بينما تتسع نظرة الإسلام الى الحياة سعة مطلقة، وقد بنى وأسّس قراراته على أساس التكامل الفردي والاجتماعي.

فالإسلام بالإضافة الى العناية بنظام المجتمع يريد تربية الفرد واصلاحه وتكامل حالاته وشؤون حياته، وهو يرى أصالة لشؤونه المعنوية، ولذلك فقد أولى عناية تامة بتطوّره وتكامله.

يهدف الإسلام الى أن يكون المجتمع منتظماً، والاخلاق نزيهة طاهرة، والفكر والعمل صحيحاً والنفس مطمئنة، ولذلك فهو يحكم في جميع الشؤون وفى كل مجال. ويريد الإسلام أن يستقر نظم صحيح بين الحياة المادية والمعنوية، بين الافراد والمجتمعات، وبين الافكار والاعمال، كما يستولي النظام بين كل صغيرة و كبيرة في هذا الكون حسب النواميس

(١) عن الترجمة الفارسية للعقد الاجتماعي: قرارداد اجتماعى: ٣٣٦.

الطبيعية.فالإسلام يريد أن لا يتخلّف الإنسان عن مدار القرار السائد على نظام الخلقة، إذ التخلّف عنه يوجب اختلال كل الشؤون الإنسانية.

في القوانين الوضعية البشرية تحمل التكليف بتنفيذ القانون المؤسسات والاجهزة التنفيذية، أما في الإسلام فيضمن تنفيذ القانون (بالاضافة الى ذلك) إيمان الناس به الإيمان العميق و العريق ، فالمسلم يعمل بوظائفه وتكاليفه القانونية حتى في مكان لا يراه فيه أحد إلّا الله مندفعاً بالدافع المعنويّ الإيماني، وفي موارد محدودة وعلى أفراد من ضعاف العقيدة والمنافقين يصبح من الضروري التوسّل بالقوى التنفيذية. والخلاصة: أن الإسلام يهتم بطهارة القلب وحسن العمل كليهما، ويرى أن العمل الطاهر والنزيه والمستحق للاجر والثواب هو العمل المستند الى نيّة خالصة والنابع من منبع الإيمان.

كتب المدعي العام الامريكي في مقدمة كتاب عن الحقوق في الإسلام يقول: «لا مساس بين القانون في أمريكا وبين التكاليف الاخلاقية إلّا مساساً قليلًا، فالشخص الامريكي في الحقيقة في نفس الوقت الذي يمكن أن يكون فيه مطيعاً للقانون يمكن أن يكون ـ فعلًا ـ فاسداً ذليلًا من حيث الاخلاق. أما في القوانين الإسلامية فانّ منبع القانون ومصدره هي إرادة الله، تلك الإرادة التي انكشفت لرسوله محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم، وهذا القانون وهذه الإرادة الإلّهيّة ترى جميع المؤمنين مجتمعاً واحداً ولو كان متشكّلًا من قبائل وعشائر مختلفة وكانوا يسكنون في مواضع وأمكنة بعيد بعضها عن بعض. فهنا الدين هو القوة السليمة التي توصل الجماعات بعضها ببعض لا القومية والحدود الجغرافية (باسم الوطنية) وهنا الدولة أيضاً عليها أن تكون مطيعة للقرآن وتابعة له، ولا يدع القرآن مجالًا لايّ مشرّع غيره فضلًا عن أن يسمح للنفاق والشقاق. المؤمن يرى أن هذا العالم دهليز وممرّ الى عالم آخر أفضل منه، والقرآن هو الذي يعيّن القوانين وقواعد السلوك بين الافراد والمجتمع كي يؤمّن لهم تحوّلًا وانتقالًا وادعاً سليماً من هذا العالم الى الآخر».

مع أنّ أسلوب تفكير الغربيين في الإسلام أسلوب قاصر، وكثيراً ما يكون مزيجاً بالغرض وتحريفاً للواقع وضالًا، مع ذلك فقد أدرك كثير من مفكريهم عمق التعاليم الإسلامية وأصالتها، ولم يأبوا من الخضوع أمام الإسلام ورسوله وتعاليم دينه القويم.

ليس من العجيب ثناء عالم مسلم على أحكام الإسلام وقوانينه، ولكن لو ذكرت

شخصية علمية غير مسلمة، ذكر الإسلام وقائده العظيم بالعظمة والجلال فلذلك أهمية كبرى.
وإنّما الذي حملهم على احترام هذا الدين المقدس وتعظيمه والخضوع أمامه هو ما فيه من القوانين الراقية والانظمة المدهشة التي أهداها الى عالم الإنسانية رسول الإسلام العظيم.

وليس غرضنا من نقل مقال كبار الغربيين هنا أن نسمع مفاخر ديننا عن لسان الاجانب، بل الهدف من ذلک هو أن لا يبقى أيّ مجال للشك والترديد في هذه الحقيقة الكبرى لطلّاب الحقيقة.

كتب البروفيسور الإيطالي الشهير الدكتور «واجليري» يقول بشأن القرآن الكريم:

«نحن نرى في هذا الكتاب ذخائر وخزائن من العلم هي فوق استعداد أذكى وأقوى رجال السياسة وأكبر الفلاسفة، وبهذه الدلالة نقول: لا يمكن أن يكون القرآن من عمل رجل عالم، فضلًا عن رجل قضى كل عمره في مجتمع غير مهذّب بعيد عن محيط رجال العلم والدين، هذا الرجل هو الذي كان يُصّر أنه رجل كسائر أفراد البشر، وحينئذٍ فانّه لم يكن يستطيع أن يصنع هذا المعجز من دون تأييد من اللّه تعالى، ولا يمكن أن يكون القرآن صادراً إلّا من ساحة ربّ قدير يحيط علمه بما في السموات والارض جميعاً».

ويقول «برنادشو»: «لا زلت دائماً اكنّ كل الاحترام لدين محمّد(ص) لما فيه من خصائص الحيوية. فالإسلام بنظري هو الدين الوحيد الذي بإمكانه أن يفوق على مختلف الحالات والصور المتغيّرة للحياة وأن يواجه القرون المختلفة. أنا أتنبأ أنّ اوربا ستقبل بدين محمّد(ص) وقد بدت آثاره (علائمه) من الآن(!)

إن رجال المسيحية في القرون الوسطى كانوا قد رسموا صورة قائمة لدين محمّد(ص) نتيجةً لجهلهم أو تعصّبهم، انّه كان قد بدا لهم يحمل الحقد والعصبية ضدّ المسيح، وأنا قد قرأت عن هذا الرجل الخارق وتوصلت الى هذه النتيجة: انّه لم يكن ضدّ المسيح لا فقط ، بل يجب أن نصفه بأنه منقذ البشرية، وأنا أرى أنه لو تكفّل رجل مثله بقيادة العالم اليوم لكان ينتصر في حلّ مشاكله، ولكان يحقق الصلح والسلام والسعادة التي هي حلم البشرية».

وكتب «تولستوي» الفيلسوف الروسي الشهير يقول: «يكفي محمّداً فخراً أنّه خلّص أمّة ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدم.

وإن شريعة محمد(ص) ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة»[1].

وكان «فولتير» في البداية أحد ألدّ أعداء الإسلام ومخالفيه، وكانت له أحكام جائرة بشأن الرسول الاكرم صلّى الله عليه وآله وسلم، وبعد أربعين عاماً قضاها في الدراسات الدينية والفلسفية والتاريخية أدرک الحقيقة فأعلن صريحاً يقول:

«إنّ الدين الذي جاء به محمد(ص) كان أسمى من المسيحية بلا ريب، ولم يبتل المؤمنون به بذلک الكفر الجنوني الذي ابتلى به النصارى فقالوا: إنّ الإله الواحد ثلاثة والثلاثة واحد، فالايمان بالله الواحد الاحد الفرد الصمد كان الاصل لهذا الدين. إنّ الإسلام مدين في وجوده لرجولة قائده وفتوّته وفتوحاته، بينما يحمل النصارى الآخرين على دينهم بمعونة السيف وتلال النار. فيا ربّي يا ليت كان شعوب أوربا يجعلون المسلمين أسوتهم وقدوتهم»[1].

«كان محمد(ص) رجلًا عظيماً جداً بلا ريب، وقد ربّى في حجر فضله وكماله رجالًا عظاماً أيضاً، كان مشترعاً حكيماً، وسلطاناً عادلًا، ورسولًا تقيّاً، وأحدث أكبر ثورة في الارض».

وكان «فولتير» يحترم النابغة الكبير «مارتين لوثر» فكأنّه سُئل عن القياس بينه وبين محمد صلّى الله عليه وآله وسلّم، فقال: «ليس جديراً للوثر أن يحلّ بنود حذاء محمد(ص)»[3].

---

(١) نقلًا عن الترجمة الفارسية لكتاب: الابطال

(٢) بالفارسية: اسلام از نظر وولتر: ٩٩.

(٣) بالفارسية: كلّيات وولتر: ٢٤، ٥٥٥.

القاصرون

بعد كل التقدّم العلمي، ومحاولات العلماء للكشف عن أسرار هذا العالم، لا زال كثير من المسائل الابتدائية مجهولة على البشر، بحيث أن ما يعلمه لا يعد شيئاً أمام ما لا يعلمه.

إن المفكرين الكبار اليوم أصيبوا بحيرة لدراسة الفباء الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ولهم في ذلك آراء وعقائد مختلفة، ولذلك فقد انقسم العالم الى معسكرين مضادين[1].

وقد كتب كل فريق من العلماء في هذين المعسكرين آلاف الكتب والمقالات يتّهم فيها كل فريق منهم الآخر بأن المنهج الآخر يسبّب التعاسة والشقاء والفوضى، ويصف منهجه هو بأنه منهج السعادة.

وقد نال كل من الطرفين توفيقاً باهراً على صعيد التقدم العلمي والصناعي، ومن البديهي أنّ هذه النظريات المتناقضة لا يمكن أن تكون كلها صحيحة سليمة.

إن من يتصور أن الشعوب الغربية كما توصّلوا الى تقدم علمي محيّر، كذلك قد اكتسبوا توفيقاً باهراً بالنظر الى أسلوب الحياة الإنسانية، من يتصور هكذا فهو في وهم عظيم؛ فانّه لا يمكن أبداً أن نرى التوفيق العلميّ الصناعي لمجتمع ما ورقيّهم وتقدمهم في ناحية من الحياة دليلًا على صحة كل أساليب حياتهم.

إن التقدم الصناعي والتكنولوجي يترتب على الدراسة والتحقيق وصرف الطاقات

---

(١) كتب المؤلف الكتاب هذا في السبعينات الميلادية.

والمثابرة بذلك الخصوص، فكما يمكن أن لا يكون لفيزياويّ ماهر أو طبيب حاذق أي علم بالتخطيط والمعمارية، فلا مانع أيضاً من أن يكون مجتمع ما في انحطاط أخلاقي من حيث أُسلوب الحياة والآداب الاجتماعية والفضائل الإنسانية، مع كل ما له من تقدم علمي صناعي. ونحن بمشاهدة أنواع المفاسد والنقائص ومختلف النواقص في أنظمة العالم الغربيّ، ندرك أنهم لم يتقدموا أو لم يتكاملوا في كثير من عناصر الحضارة من الفكر والمعرفة، والدين والاخلاق، والحكومة، بصورة صحيحة سليمة.

ويصف الدكتور «كاريل» نواقص الحضارة الحاضرة فيقول: «إن الحضارة اليوم قد وقعت موقعاً حرجاً، فهي ليست منسجمة مع أرواحنا أبداً، إذ هي لم تُختلق على أساس معرفة حقائق أرواحنا، وإنّما هي وليدة مزيج من الاكتشافات العلمية وميول الناس ونظراتهم ومشاهداتهم. إن هذه الحضارة مع أنها تحققت بجهودنا لكنها لا تتناسب بالنسبة الى كيفية بناء أنفسنا وأوضاعنا. هناك من يخطّط أُسس هذه الحضارة يريد أن ينفع البشر ولكنها مع ذلك لا تنسجم إلّا مع تصوير عن البشر مغشوش وناقص.

إن الإنسان لوحده لا يقدر على توجيه حياته الوجهة الصحيحة، ذلك أنه لوحده لا يتمكن من أن يعرف أية ظاهرة بصورة جيدة.

ولذلك فان ما حظيت به العلوم غير الانسانية من تقدم على العلوم الانسانية من أكبر الجرائم البشرية، إننا أشقياء لما نحن فيه من الانحطاط من حيث العقل والاخلاق، فلو نظرنا الى الشعوب والمجتمعات التي بلغت فيها العلوم غير الإنسانية الى أوج كمالها لرأيناهم قد اتّجهوا الى الضعف والضعة بحيث يخاف عليهم أن يعودوا الى حالة التوحش الاولية أسرع من غيرهم»[1].

إنّ تكامل الإنسان في مختلف النواحي بحاجة الى سلسلة من التعاليم الصحيحةوالشاملة المستندة الى واقعيات الحياة بلا خطأ في ذلك، ولا يمكن ذلك إلّا في ظلّ تعاليم رسل الله الذين يرتبطون بمبدأ عالم الوجود من خلال طريق الوحي.

ولو كانت الاخلاق مستندة الى التربية فقط من دون أن تكون مستندة الى قوة غيبيّة وراء

---

(١) عن الترجمة الفارسية: إنسان موجود ناشناخته: الإنسان ذلك المجهول.

المادة، فانها لا تستمر ولا تدوم.

منذ أن قدم البشر الى ساحة الحياة ووضع حضارته، كان نداء بليغ يرتفع إليه من أعماق وجوده باسم الدين، وكانت هذه الحقيقة هي التي تحرس الاحكام والنظام الاخلاقي.

إنّ انتشار الفجائع اللّاإنسانية، والظلم، والاستعمار، والحروب في العالم اليوم، ليشهد على حقيقة أن الحكومات بما لها من قوانين لا تقدر على أن تملأ فراغ الايمان والاحاسيس والعواطف الانسانية، وأن تطبق السعادة والصفاء والعدالة والسلام في النظام الاجتماعي، والعلم مع كل ما له من تقدم لا يقدر على أن يحلّ كل مشاكل الحياة وأن يمنع عن الانحرافات، وأن يدبّر نظام المجتمع بصورة صحيحة، من دون أن ينسجم مع الدين والإيمان.

وكتب «ويل دورانت» الفيلسوف والعالم الاجتماعي الامريكي يقول: «أفهل للدولة من الدعم والقدرة الاقتصادية والاخلاقية ما تقدر معه على أن تصون كل التراث العلمي والاخلاقي والفني لأمّة، والذي هو عصارة حضارتها ولُحمتها وسداها، وأن تضيف إليه وتنقله للاجيال الآتية ؟! أم أن الدولة بجهازها الحاضر ستسقط بصورة تلقائية بأيدي أناس من الطبقة الثانية والثالثة الذين يرون العلم كفراً والفنّ سرّاً أجنبياً وغريباً ؟! وإلّا فلماذا تدار الدولة عبر أجهزة تفتقد حسن السياسة والوطنية والإخلاص ؟! ولماذا يحكم أكبر مدن أمريكا أصاغر الرجال ؟! ولماذا قد انحصر العمل الاساسي للدولة اليوم في الحدّ من الجرائم ؟!

ولماذا شاع الغش والفساد في الانتخابات، والخيانة بالاموال العامة حتى أن اكتشافها وإعلانها أصبح لا يحرك ساكناً من غضب الناس ؟! ولماذا أصبحت الحكومات وهي تعقد معاهدات الصلح تتجهز للحرب ؟! أفهل هذه الحكومات هي التي يجب على الكنيسة والأُسرة أن تعهد بصيانة الحضارة إليها»[1] ؟!

إنّ المجتمع الغربي لا يتحمّل هذه الفوضى الاخلاقية وأمواجها المحطّمة إلّا بمقياس محدود، نظراً لمحدودية قواه وطاقاته، وعليه فانّ استمرار هذه الطريقة فيه يدق عليه ناقوس الخطر فيه، إذ الحضارة إنما تبقى قائمة على أساسها ما دام التوازن بين أسبابها وأهدافها وقدراتها وأوصافها باقياً، أما لو فقد هذا التوازن وبلغ الفساد آخر حدّه، فلا يقدر أي خير أن

---

(١) بالفارسية: لذات فلسفة: ٣٢٦ و ٣٢٧.

يظهر في هكذا أوضاع مظلمة، وسوف تصل المرحلة المصيرية لهذا الانحطاط والتي هي العدم والانهدام. ذلک أنک لا تجد قوماً في جميع أدوار حياة البشر بقوا أقوياء مع كل ما فيهم من الانحطاط الخلقي والتلوّث الشهوي.

كما سقطت الامبرطورية الرومانية الكبرى وذلّت بمثل ذلک من الفوضى، وانكسرت عظمة اليونان وانهزم مجدهم وأُصيبوا بنكبة مصير مشابه، وخضعت فرنسا بشهواتها أمام أول ضربة للنازيين وافتقدت قدرتها وشوكتها. وقد كتب أحد الجنرالات في الجيش الفرنسي مذكّرات أسند فيها الشطر الاعظم من هزيمة هذه الامة العريقة المتحضرة الى إفراطها في الشهوات والملّذات.

وكان «شبيگلر» الالماني أيضاً ممن يعتقد بسقوط الحضارة وزوالها من الغرب، ويعلن صريحاً أن بقاعاً أخرى من الارض ستشهد حضارة أرقى. ومن يدري أن هذه الحضارة لا تعود مرة أخرى الى مشرق الارض اي مهدها الاول ؟!

ولكن بعد سقوط قصر هذه الحضارة الضالة والمنحرفة لا يقع زمام مصير الناس بيد نظام عادل اتوماتيكياً تلقائياً، بل إن سقوط أية حضارة وانعدامها يشكل فرصة لشق الناس طريقهم نحو البرنامج الإلّهي ولاتّجاههم الى تلک الحقائق السامية، ولبنائهم حياتهم على أساس الخير والفلاح والصلاح، أمّا إذا هم لم ينتفعوا من هذه الموقعية الحسّاسة وفوّتوا على أنفسهم فرصة الإقبال على البرنامج الإلّهي والمسلک الصحيح، فانه سوف لن يظلّل عليهم طير السعادة والخير، بل إنهم ينتقلون من ضلال الى ضلال.

أما اليوم فمن المؤسف أن علائم وجود عقدة الاحتقار أمام التفوق الصناعي الغربي وتأثيرها بادٍ في جميع شؤون الشعوب الشرقية، فالاحتقار يبدو على ملامح حياتهم كلها، وقد ترسخت الافكار والمبادئ الغربية في كثير من المسلمين بحيث أنهم يريدون أن ينظروا الى كل شيء بالمنظار الغربي، ويرون أنه من أجل التقدم والرقي يجب علينا أن نقلّدهم خطوة بخطوة في الأُصول والفروع والآداب والاخلاق والحقوق والقوانين وبالتالي في كل شيء، وأن نسلّم بأفكارهم تسليماً أعمى وأن نخضع لنير عبوديتهم من دون أن نقول: كيف ولماذا ؟! وقد ملأت المكنة العلمية الغربية أفكارهم بحيث يقدمون الى أعتابهم كل ما لديهم من شخصيتهم وإرادتهم ورساميلهم المادية والمعنوية، والسنن والآداب الدينية والوطنية والقومية،

بكل سهولة ويُسر! ويرون أنّ من وظيفة كل من يريد التقدم أن يتّبع مختلف مظاهر هذه الحضارة! وهذا هو من أكبر عوامل ذلة المسلمين وأسرهم وبؤسهم وشقائهم وتعاستهم وتعطيلهم لقواهم المادية والمعنوية، ويغفل هؤلاء عن أن العلم الغربي لا يقدر على حلّ المشاكل والمسائل التي لا تدخل تحت مقاييس المادة. وإن أهم المسائل التي يواجهها الإنسان ليست من المسائل التي يمكن أن نجد إجابتها في المختبرات. ومن البدهي أن هؤلاء لا يملكون أن يفكّروا حسب أُسلوب التفكير الاسلامي وأن ينظروا الى حوادث العالم بالمنظار الاسلامي، مع إنهم من المسلمين ولكن الدين قد تغير في أيديهم رأساً، فهم أجانب عن التعاليم والثقافة والحضارة الإسلامية، ويريدون أن يقيسوا الاحكام والقوانين الإسلامية وآداب المسلمين ومراسيمهم بالمقاييس الغربية.

يقول أحد المفكّرين المسلمين: «ما عذرنا ولدينا نظام آخر لا يجعلنا ذيولًا لركب الحضارة، لا في الجبهة الشيوعية ولا في الجبهة الرأسمالية، بل هو يحقق لنا العدالة الاجتماعية في داخل بلادنا، ويمنحنا شخصية عالمية أيضاً. نظام يستردّ إلينا كياننا الماضي في المحاضر الدولية الاخرى، وينقذنا وينقذ المجتمع البشريّ من بلاء الحروب!

وماذا نريد في حين أنّ في ديننا قرارات وقوانين تحلّ مشاكلنا، ثم لا يجعلنا أن نحلّ على مائدة الإنسانية محلّ المساكين الصعاليک الاذلّاء، بل يجعلنامساهمين في نظام الحضارة باسهام يساعد النظام الحضاريّ، وليس رأسماله من القليل الحقير!

أنا أعجب كيف يمكن أن إنساناً يقذف بنفسه من محل الشرف الى ساحة الذلّة؟ وكيف يمكن لإنسان أن يستبدل يده الباذلة المعطية باليد المستعطية؟ وأنا لا أفهم كيف أن إنساناً يترک موقع القيادة ليختار موقع السامع المطيع؟ بينما بإمكانه أن يختار الطريق الصحيح لو أنه يكافح الشعور في نفسه بالاحتقار والذلة!

إنّ لنا رصيداً نستطيع أن نقدّم منه للبشرية، ولسنا كما يريد الشرق والغرب أن يلقّننا بأننا متأخرون مضطرّون إليه، نعم إنهم يريدون أن نفكّر هكذا ليحلّ القلق والاضطراب محل الثقة واليأس محلّ الامل، لكي نقع صيداً فـي مخالب هذا أو في شبكة ذاک.

ومن ناحية أُخرى فقد جرّبنا كل شيء حتى مللنا من التجربة، لقد عملنا بمظاهر هذه الحضارة المنفوخة والمتزيّنة التي جمعناها من هنا وهناک كالمساكين الصعاليک، في

جميع شؤون حياتنا الفكرية والاجتماعية والقانونية، حتى أصبح مظهرنا مثل «كارنوال = القرنول» في أسلوب تفكيرنا ومظاهرنا الاجتماعية، وفي تشكيلة ملابسنا وحتى أطعمتنا!

وكنموذج نذكّر بالقوانين التي أخذناها في البداية من فرنسا ثم من سائر الدول الاوربية، وبعد ذلک كلما احتجنا الى قانون لحياتنا اقتبسنا ذلک من قوانين لمختلف الدول. وهنا تناقض دائم بين روح هذه القوانين التي اقتبسناها من الاجانب، وبين روح أُمتنا التي نضع لها هذه القوانين، إن شعبنا يمنح لمن يناقض القوانين أوسمة شرف ويراه قهرماناً ولا يبخل عليه بشيء من المساعدة والمعونة والتأييد، وذلک بمقدار ما هو يتقزّز ويتنفّر من الدول المنفّذة لتلک القوانين، ويبخل بثقته على النظام الحاكم بها، ويضيق ذرعاً بما يطالب به من الادلة والشواهد، فلماذا الامر هكذا؟

يقولون: لجهل الناس! ولكن كلّا، ليس سبب ذلک الجهل، فان المثقفين أيضاً لا يستجيبون للقانون بإجابة إيجابية. بل السبب الواقعي هو التناقض بين الامة وبين روح القوانين، وفي أنها عوار مستعارة، ذلک أنها غير مستمدة من السوابق التاريخية والاحاسيس القومية والوطنية والدواعي الاجتماعية، بل إنها جاءت من جوّ أجنبي بالنسبة الى روح هذه الامّة، من مجتمع له تاريخه ودينه وحاجاته ومواقعه الخاصة. وما دام القانون لا يستجيب لحاجات الامة وروحيتها بإجابة إيجابية فانّ الامة تأبى الإخلاص والطاعة له»[1].

وكتب «هاكنج» العالم الامريكي المعروف وأُستاذ جامعة «هاروارد» في كتابه «روح السياسة العالمية» يقول: «إن طريق رقي الدول الإسلامية ليس أن تقلّد الانظمة والقيم الغربية وأن تستعملها في حياتها. وقد يسأل البعض: هل للإسلام مادة فكرية بإمكانها أن تنتج أفكاراً جديدة وتعرض على البشر قوانين ودساتير مستقلة متوافقة ومنسجمة مع حاجات الحياة الجديدة ومقتضياتها؟

والجواب هو أنه ليس في النظام الإسلامي الإعداد والاستعداد لكل تكامل ورقي فقط، بل إن قابلية النظام الإسلامي للتطور أكثر من كثير من الانظمة الأُخرى. وليست مشكلة الدول الإسلامية أن ليس في الإسلام وسائل التكامل وأدوات التقدّم، بل هي أن ليس في هذه الدول

---

(١) بالفارسية: إسلام و ديگران: ٤١ - ٤٢ و ٤٨ - ٤٩.

تلک الإرادة اللازمة للإفادة من هذه الأدوات والوسائل. وأنا أدرک بنظرة واقعية أن الشريعة الإسلامية تحتوي على كل المبادئ والأصول اللازمة للرقي والتكامل».

يوم واحد لو تُراعى فيه الدساتير والقرارات الاسلامية والمحرّمات الدينية، كم يكون له من نتائج قيّمة ومن السلام والوئام والراحة والطمأنينةوالصفاء والخلوص! والخبر اللاحق نموذج عن هدوء لا يوصف على أثر يوم واحد روعيت فيه القرارات الدينية إكراماً لذكرى شهادة مولى المتقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، إذ اطلّت على مدينة كبرى مكتظّة بالسكان كطهران. كتبت الجرائد عنهاهكذا: «أمس كانت طهران هادئة بلا حادثة، وكانت دائرة الطب العدلي بلا عمل، وفي مخافر الشرطة لم يكن أثر من المتّهمين والاستجوابات والاضابير، كان يوم أمس «أهدأ أيام السنة» ولم تحدث أية حادثة تقريباً. في دائرة الطب العدلي لم يكن حتى جسد واحد للكشف عن آثار الجريمة فيه، قال الطبيب العدلي: لم يأتوا حتى بجسد واحد للكشف في طول النهار. وفي الاربع والعشرين ساعة لم تتفق أية حادثة تؤدّي الى موت أحد في طهران، وكما في المثل الفارسي: لم يتحرک الماء! وكذلک كان الوضع في مخافر الشرطة وشرطة النجدة والدرک، وكان مسؤول في الشرطة يقول: على أثر عطلة يوم ذكرى وفاة الإمام علي عليه السلام مكث أكثر الرجال في بيوتهم، ولو حدث بينهم وبين أزواجهم خلاف فانّهم كانوا يخصمونه ولا يعقّبونه احتراما لذكرى الوفاة، ولذلک لم تتشكل حتى إضبارة واحدة في الخلافات العائلية بين الزوجين»[1].

«وفقاً للإحصاء الخاص بدائرة الطبّ العدلي، شُرّح (٢٥٢٥) جسداً في طهران، وكمعدّل يشرّح في اليوم ستة الى ثمانية أجساد هناک وتصدر جوازات بالدفن، وفي أيام الحداد المذهبي (وفيات الائمة المعصومين عليهم السلام) يقل هذا العدد بشكل هائل، حتى أنه في يوم ذكرى شهادة مولى المتّقين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام (١٣ ديماه ٤٥) لم يأتوا الى الطب العدلي حتى بجسد واحد، وهذا يدل على أن العقيدة الدينية لا زالت قائمة، وعلى أنه حينما تكون البارات ومراكز الفسق والفجور وحوانيت الخمور مغلقة

---

(١) عن الجريدة الإيرانية: كيهان بتاريخ ١٤ ديماه ١٣٤٥ هـ.ش.

كيف يتّجه المجتمع نحو السلامة والإستقامة»[1].

فأية قوة ا ستطاعت أن تمنح المجتمع هذا الهدوء الخارق؟ حقاً لو كانت القرارات والقوانين الإسلامية تنفّذ في المجتمع، وكان الناس يعملون بتكاليفهم الدينية بصورة جيّدة كيف كان المجتمع يصبح مجتمعاً سعيداً سليماً، وكيف كان الهدوء والامن والسلام والوئام يسود محيط الناس بخلوص وصفاء.

هل تقدر الدول الغربية بما لها من أموال وقوات كافية أن تطبق هدوءاً كهذا ولو في ساعة واحدة في السنة؟! بل لا يوجد في كافة أنحاء العالم الغربي مدينة كبرى أو صغرى تقضي حتى ساعة من ساعات حياتها من دون اصطدام أو جريمة أو سرقة أو قتل، هذا الذي رأته طهران المكتظّة بالسكان في مدة أربع وعشرين ساعة بمناسبة الذكرى السنوية لشهادة الإمام علي عليه السلام، هل يمكن أن يُقدّر هذا الهدوء والسلام بثمن؟!

وهنا علينا أن نقول بكل أسف:

كان قلبي يطلب الطوبى، سنيناً * يتمنّى ما له، عند الاجانب[2].

---

(١) عن المجلة الإيراينة: خواندنيها، السنة ٢٧، العدد: ٣٧. من قبل انتصار الثورة الإسلامية.

(٢) تعريب لبيت شعر لحافظ الشيرازي يقول:

سال ها دل طلب جام جم از ما ميكرد * آنچه خود داشت زبيگانه تمنّا ميكرد!

والتعريب للمعرّب.

الاسلام والمشاكل الاقتصادية

إن الإفادة من المواهب الطبيعية كانت ولا تزال من أكثر المسائل الإنسانية ضرورة تلازم حياة النوع الإنساني دائماًوأبدا، فحوائج البشر كانت في صميم حياته غاية الامر أنها كانت تتغير حسب مقتضيات الزمن طوال القرون: ففي الادوار القديمة جداً كانت الإفادة من مواد الطبيعة واكتساب المعيشة منها على شكله الساذج والبدائي، ثم تطوّر تدريجيّاً الى قوانين وأنظمة وشرائط خاصة حسب ارتباط الناس بعضهم ببعض وتقدّم الامم. ومنذ ما يقرب من أربعة قرون أي في أوائل عصر الرأسمالية دُوّن علم الاقتصاد على أساس تحليل الحياة الاقتصادية.

وإن تقدم الحضارة في القرون الاخيرة والثورة الصناعية والتكنولوجية وتطوّر وسائل الاتصالات وتقدم الامم سبّب في أن يُعرف علم الاقتصاد بصفته من أهم عوامل التغييرات الاجتماعية، ويُبنى على أساس الانظمة «الرأسمالية» و«الشيوعية» في المعسكرين الشرقي والغربي. وإن جميع المناقشات الشرقية والغربية تدور حول مسألة أن كيف نحلّ المشكلة الاقتصادية للبشر؟ وأنّ أيّ نظام اقتصادي يمكنه أن يكون هو حلّال المشاكل الاقتصادية المكنية اليوم؟ وأنّ أي طريق أقرب للعدل في توزيع الثروات بين الايدي العاملة وغيرها؟

والمبدأ الماركسي طريقة ثورية نفّذتها ثورة اكتوبر في الإتحاد السوفيتي، والطريقة الاخرى (الرأسمالية) تنفّذ في أكثر الدول الغربية على أشكال وصور متعددة.

و«الشيوعية» تدّعي أنها تستطيع أن تطيح بظلم الاستغلال، وأن تجيب على المشاكل

الاقتصادية العالمية، وهي ترى أنّ حلّ المشاكل الاقتصادية إنّما هو في فكّ الملكية الخاصة، وأن تصبح وسائل الانتاج اشتراكية، وترى أن الملكية الفردية كانت في كل أدوار التاريخ متلازمة مع الاستغلال والظلم، وعليه فبإلغاء الرساميل الكبرى وإخراج وسائل الإنتاج عن ملكية الطبقة «البرجوازية» بتأميمها وبالتوزيع العادل للثروة تتحسّن الاوضاع الاقتصادية، وبنفي النظام الطبقي ينتفي الظلم الناتج عن الرأسمالية، وسيصبح المجتمع مجتمعاً موّحداً ذا طبقة واحدة متساوية منسجمة في جميع الامور!!

وهنا سؤال يطرح نفسه؛ وهو: هل يكفي في توحيد طبقات المجتمع أن نعمد الى عامل واحد من عوامل الطبقية في المجتمع فنجعله عاملًا متساوي التأثير؟ بينما هناك عوامل مختلفة ومتنوّعة لإحداث الطبقات في المجتمع، فكم هناك طبقات تنشأ من جذور عسكرية أو دينية أو سياسية. فلوحدة الطبقة علينا أن نجعل كل العوامل متساوية التأثير. وهذه حقيقة واضحة أنّ هناك في داخل الدول الاشتراكية لا توجد طبقة بعنوان الطبقة البروجوازية أو الرأسمالية، ولكن لهم طبقات من العمال والفلاحين والموظّفين والحزبيين، تختلف مستويات معيشتهم فيما بينهم اختلافاً كثيراً!! فهل تتساوى في الإتحاد السوفيتي رواتب الاطباء والممرضين؟ وهل يستلم العامل البسيط مثل ما عُيّن للمهندسين؟ أضف الى ذلك أن الاختلاف في الافكار والآمال والميول والعواطف والقوى الجسمانية بين أفراد المجتمع لا يزال موجوداً، وسيحتفظ به قانون الوراثة إلىالابد. ويعترف بهذا أحد قادة المبدأ الشيوعي يقول:

«لا يمكن لنا عملياً أن ننفّذ المساواة المطلقة. فننزّل عمل العلماء والمفكرين والسياسيين والمخترعين الى درجة واحدة مع العمل البسيط (غير المركّب) إذ ليست عاقبة ذلك سوى الجمود الفكريّ وتعطيل الحياة العقلية والفنيّة».

وتدعي الرأسمالية أن بالرأسمالية فقط تُحلّ عقدة الاقتصاد التكنيكى (التقنيّ) ولذلك فهي لم تُلغ عنوان المالكية الفردية، بل إن الرأسماليين من أجل احراز التوازن بين العمل والاجر وتقليل الفاصل الطبقي أمّنوا للطبقة الضعيفة حدّاً أدنى للعيش[1].

ولكن هل انعدمت تلك الفواصل الطبقية العظيمة بهذه المشاريع؟! وهل أنّ بقاء

(١) هذا فيما إذا صدّقنا هذه الدعوى مئة بالمئة، ولا بأس بأن نلتفت هنا الى هذا التقرير: لجنة لدراسة المواد

استمرار هذا الفاصل الطبقي والكماليات الخيالية للرأسماليين لا يورث في الطبقة الفقيرة والمحرومين من المجتمع عدم الرضا والحقد والبغضاء؟ أفهل عليهم أن يبقوا الى الابد ويعيشوا هذا الاختلاف الطبقي الهائل؟ وهل تنحلّ مشاكل المجتمع مع وجود هذه الفواصل العظيمة والتي تتوسع يوماً فيوماً؟!

وفي الانظمة الاشتراكية والرأسمالية يجعلون المقاييس المادية أساساً لحياة البشر، ويدرسون المشاكل الاقتصادية والاجتماعية من دون ملاحظة المعنويات والاخلاق. إنّهم يرون أن الهدف الاصلي هو زيادة الثروة ثم لا يرون أية حقيقة وراءها! بينما الإسلام بما له من نظرة كونية وفلسفة خاصة يتوجّه الى الإنسان من جميع جهاته وجوانبه توجّهاً كاملًا، فهو بالإضافة الى تنظيم الحياة المادية للمجتمع ينظر الى الفضائل الاخلاقية والكمالات النفسية في كل أحكامه وقوانينه وبصورة كاملة، وهو يوظّف المال في سبيل تحقيق المطاليب

الغذائية بعد تسعة أشهر من الدراسة والملاحظة قدّمت تقريراً يقول: إن هناك عشرة ملايين من الامريكيين يتألّمون من قلة طعامهم والجوع! وطلب رئيس هذه اللجنة من الرئيس الامريكي: أنه نظراً لاهمية الموضوع يعلن حالة الطوارئ ثم يساعد ٢٥٦ مدينة في عشرين ولاية من الولايات المتحدة الامريكية، هي في معرض خطر الجوع أكثر من غيرها، بمساعدات فورية ومجانيه، هذه اللجنة التي قوامها ٢٥ شخصاً والتي أحدث تقريرها اضطراباً شديداً في المحافل الامريكية، كانت قد بدأت أعمالها في شهر جوئيه الماضي، وكانت قد تشكلت بأمر السيد رويتر رئيس منظمة مكافحة الجوع، وهو رئيس اتحادية عمال السيارات الامريكية أيضاً، وقد تكفّل هو بجميع مصاريف هذه الهيئة. وقد علّلت هذه الهيئة جوع العشرة ملايين من الامريكيين بالحروب الامريكية وسائر المناقشات الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع الامريكي، وأضافت أن هذا العدد لا يقدرون على شراء المواد الغذائية الوافية من الاسواق على أثر الفوضى الاقتصادية الناتجة من الحرب.

وجاء في هذا التقرير المذكور أنه بناءً على أن وزير الزراعة الامريكي أعلن عدم استطاعة وزارته على إعداد الغذاء الكافي لهؤلاء العشرة ملايين الامريكيين، يجب على الحكومة الأمريكية أن تتعهد هي بتأمين المواد الغذائية لهؤلاء.

نقلًا عن وكالة أنباء يونايتد برس انترناسيونال

عن الجرائد الصادرة بتاريخ ٢٢/٢/٤٧هـ.ش.

والاهداف الفطرية للبشرية، وإنّ من الخصائص الاقتصادية الممتازة في الإسلام رفع مستوى الفكر وقيمة التفكير في الإنسان، وربطه بمبدأ الوجود والإيمان بعالم ما وراء المادة.

إن القانون في العالم الغربي إنما يحمي الرأسمالية، يرعى منافع الرأسمالية في مواجهة العمال والفلاحين. وهو في الاتحاد السوفيتي كما يقولون ينفي سلطة مالك الرأسمال ويرفع من مستوى العمّال.

ولكنّ جذور القرارات والنظم الاسلامية تستسقي من منبع الوحي الإلّهي، وليس من نتاج أفكار الواضعين البشر لكي يرفع طبقة ويتعدّى على منافع الفرقة الاخرى. إنّها قوانين لم تُقرر لمصالح طبقة خاصة، ولم تستلهم من أهواء فرقة خاصة، بل هي قوانين وضعها الله ربّ العالمين الذي إليه مرجع العباد لرعاية المصالح العامة، وإذن فلا كلام هنا عن حق حكومة طبقة خاصة، ولذلك فلا توجد فيها عوامل الإنحراف عن العدالة بصورة مطلقة. وفي الإسلام ليس الحاكم الجامع لشرائط الحكم مرشّحاً لفئة خاصة من المجتمع، بل هو معدود من أفراد المسلمين، ولا يقدر أبداً أن يضع قانوناً يضرّ به بعض المسلمين ويؤمّن به على مصالح آخرين، بل إن القدرة التي تحت تصرفه ليست إلّا لتُصرف في سبيل تنفيذ الاحكام الإلّهية، وعليه فلا قدرة له إلّا في ظلّ تنفيذ أحكام الله تعالى.

وعندئذٍ تتنزّل هيئة الحكومة عمّا يهدّدها من الغرور والنخوة الناتجة من السلطة ونفاذ الكلمة والحكم، فالحاكم هنا يرى أن عليه أن يكون منفّذاً لقوانين شرّعت له ولغيره بصورة متساوية متعادلة، وعندئذٍ فلا ريب في تحقيق الحرية التامة والاستقلال الواقعيّ للناس وهم يطمئنون الى تلك العدالة المطلقة فيستريحون إليها.

وبالنظر الى ما نشاهده في المبادئ المذكورة علينا أن ننظر الى طريقة الاسلام بمواجهة هذه الآراء والقوانين: مع أن الاسلام يخالف الملكية المطلقة الفردية التي هي السبب في الحرية المطلقة والملكية اللّامحدودة والظالمة في النظام الرأسمالي، وخلافاً للنظام الرأسمالي الذي يرى حرمة الفرد وكرامته بينما هو يبخس في كرامة المجتمع وشخصيته بمقياس واسع في نظامه الاقتصادي...الاسلام لا يبعد المجتمع عن نظره ويقول بكرامته كاملة...وفي نفس الوقت لا يقبل بالغاء الملكية الفردية بما يوجب انتفاء الحرية والاستقلال الفردي. وخلافاً للنظام الاقتصادي الشيوعي الذي يدفع مفتاح أرزاق الناس بيد الحكومات ولا حرمة ولا قيمة

للفرد في ذلك النظام، لا يسمح الإسلام بأن يُضحى بالفرد بصفته فرداً للمجتمع وأن يصبح الناس عبيداً للحكومة بإزاء لقمة العيش!

يرى الشيوعيون أن الملكية الفردية ليست أمراً فطرياً، من دون أن يكون لهم دليل لاثبات هذه الفرضية. يقولون: لم تكن الملكية الخاصة في المجتمعات البدائية، وكان الكل يعيشون في ظلّ الاخوة والمحبة والمعونة المتبادلة، وأما ما نراه اليوم من شدة علاقة الناس بالملكية الفردية فقد وجد بصورة تدريجية.

ولكن الحق أن لا علاقة للملكية الفردية بالحياة المعيشية والتربية والاكتساب، بل إنها تواجدت مع تواجد الإنسان ولها علاقة بطينته وطبيعته، ولا يمكن مكافحتها كسائر المطاليب الإنسانية الفطرية. يقول «فيليسين شاله»:

«إن الملكية إذا كانت قد توسعت هكذا من دون أن يتين لها حدود، على طول مرّ التاريخ وبمختلف الاشكال والصور، فان السبب في ذلك تلك القرابة القريبة بين الملكية وبين الغريزة الفطرية والطبيعية للإنسان، فالإنسان يميل بطبعه الى أنّ مايقضي حاجته يكون في اختياره وتحت تصرفه، وإلّا فلا يرى نفسه حرّاً تماماً.

والسبب الثالث للملكية الفردية سبب أخلاقي! فان بناء الملكية مبني على أساس العمل وادخار فائض قيمته، وذلك ما يحصل بفضل مساعي الإنسان، فهي ذيل الشخصية، ومن هنا فهو جدير بالتقدير».

ويرى «شاله» أن من أهم عوامل التقدم الاقتصادي وتكثير الإنتاج الملكية الفردية، ويقول: «إن من أهم البراهين على لزوم الملكية الفردية هو مصلحة المجتمع، فالمجتمع بحاجة إلى أعمال الافراد، ومن أجل أن يتحقق ذلك لابدّ من محرّك دافع، وإن خير دافع لزيادة النشاط هي الملكية. إن صلاح المجتمع في أن يكون للناس مدّخرات يساعدون بها على تصعيد وتكثير الرأسمال والرصيد الاجتماعي، فعلى المجتمع أن يسمح للناس بتملك مدخراتهم، إذن فالملكية هي العامل الوحيد الذي يحمل الناس على العمل لادّخاره من دون قوة ولا إكراه ولا إجبار»[1].

---

(١) بالفارسية: تاريخ مالكيت: ٩٢.

والإسلام بدوره في تقنينه دعم هذا المطلب الفطري الذي يشكّل عاملًا مؤثراً لتقدم الحياة ورونقها وبهائها، وهو يعامل طبيعة البشر كما هي، فيرى أن الاموال التي تحصل من مجاريها القانونية الصحيحة أمولًا شخصية قانونية تتعلق بالمنتـج.

إن الإسلام يرد النظرية التي تقول بأن الملكية الفردية بذاتها وطبيعتها تنتج الظلم والعدوان. أما السبب في أن الملكية الفردية في العالم الغربي تلازمت مع الظلم والعدوان، فهو في أن اختيار وضع القوانين هناك يعود الى الطبقة الرأسمالية المالكة، وواضح عندئذٍ أن كل القوانين تدور حول منافع هذه الطبقة ومصالحها. وقد ذكّرنا قبل هذا بأنّ المشرّع المطلق في الاسلام هو الله تعالى، ولذلك فهو لا يشرّع أية مزايا لاية فرقة، ولا يضع قانوناً نافعاً للطبقة المالكة وبضرر الطبقة الكادحة، ولهذا فانه لما كانت تنفّذ قوانين الإسلام كانت الملكية الفردية موجودة ولكن لم تكن متلازمة مع أي ظلم أو عدوان.

إن الإسلام يرى حرمة انتزاع المعامل والمصانع بقوّة من أيدي مؤسّسيها الذين أسّسوها بزحمات كثيرة، إذ أن هذا العمل يباين الامن الاجتماعي واحترام حقوق الافراد، وأنه يُعدم روح العلاقة والإبداع في العمل، ولكن للحكومة أن تتعهد بتأسيس المصانع والمعامل وإدارة الصناعات الكبرى تحكيماً لاسس العدالة الاجتماعية ورعاية المصالح الاقتصادية والوطنية.

وبالتالي فانّ النظام الاقتصادي في الإسلام يقول بأصالة الفرد والمجتمع. ومن أجل حلّ المشاكل وتنظيم الحياة الاقتصادية على أساس العدالة الاجتماعية أسّس مبدأ خاصّاً على أساس اقتصاد حُرّ وملكية نسبية وفي حدود استقلال الفرد والمصالح الاجتماعية، وقبلَ بالملكية الفردية الى حدّ رعاية مصالح المجتمع، بصفتها أصلًا طبيعياً، ومن أجل استجابة المطلب الفطري البشري العميق بشأن تملك الاموال والحاجات، ومن أجل أن يزيد الافراد في نشاطاتهم في سبيل الانتفاع من وسائل الحياة والانتاج الاكثر. ولكنّه قرّر لتحقق هذه الملكية شروطاً لكي لا تنفتح بها أبواب الظلم والعدوان على الناس، ولكي لا يُسيئ الافراد إفاداتهم من حرياتهم فيسحقوا بذلك كرامة المجتمع. ومن الطبيعي أن هذه الحدود لا تضرّ بالحرية؛ فان حياة المجتمع واستقرار القانون يستلزم التحديد والمنع عن الانحلال، بل إن هكذا حدود عقلائية تتضمّن بقاء الحياة الاجتماعية وتمنع عن انفراط أساسها وإطارها.

إن الاسلام قد حدّد الانحلالية في صعيد الملكية الفردية، وإنّما يعترف بملكية تحصل بالوسائل الشرعية والصحيحة، خلافاً لما يحصل من الطرق غير القانونية واللاشرعية فلا ملكية للإنسان المسلم عليها، فالإسلام لا يسمح بالربح عن طريق الإجحاف والغشّ والإحتكار والظلم والضرر بملكية الآخرين، وهو يعلن بالخروج عن الشرعية فيما لو كان اكتساب المال عن طريق الظلم ومجانبة العدل والذي ينبع من الطبيعة المعتدية والروح النفعية للبشر.

إذن فالملكية الفردية في الإسلام لم تستقر على أساس السماح بالربا والاحتكار والنهب والسلب والغصب والغشّ والبخس والرشوة والسرقة...ولا يحق فيه لاحد أن تكون وسيلته لاكتناز الثروة هذه الطرق. ومع هذه الحدود والقيود والشروط التي قرّرها الإسلام لاكتساب المال الحلال فانّ الثروة سوف لا تتراكم تراكماً مُضراً مما هو قائم في النظام الرأسمالي، وسيبقى المجتمع الإسلامي بعيداً عن الآثار والنتائج السيئة التي هي في النظام الرأسمالي التي تؤدي الى اضطرابات شديدة لا تجتنب ولا تُجبر.

إن النظام الرأسمالي ليس نفس الملكية الفردية تطورت التطور الاقتصادي حتى انتهت الى هذا الشكل الحاضر، فانّ نفوذ الرأسمالية وتوسعتها وانتشارها مبني على عاملي الاحتكار والربا. ويقول المؤرخون للاقتصاد بأنّ النظام الرأسمالي الذي كان في البداية بشكله الساذج والمفيد، تدرّج في تطوّره معتمداً على القروض الربوية حتى بلغ الى هذه الصورة المضرّة الحاضرة. والمنافسات التجارية الرأسمالية الشديدة التي تؤدي الى إفلاس الشركات الصغرى وبالتالي اتّحادها لتشكل شركة كبرى طريقة تنتهي الى الاحتكار، ولا ريب أن الربا والاحتكار وهما من أكبر فجائع الرأسمالية وأخسّ وسائل اكتناز الثروة ممنوع عنهما ومحرّمان في الإسلام، ولا سيّما الربا الذي يفيض بالثروات التي لا تعدّ ولا تحصى الى جيوب الرأسماليين من كل حَدَب وصوب، ويورث الناس الحرمان والفقر.

والطريق الآخر لإيجاد التوازن الاقتصاديّ بين الطبقات المختلفة والمنع عن تجمّع الثروات هو تشريع قانون للضرائب كالزكاة والخمس، مشرّع في أموال الناس، فهو كل سنة يمتص قسماً من الرأسمال وأرباح أرباب الاموال.

والطريق الآخر للمنع عن تمركز الرأسمال ولتعديل وتعميم الثروة تلك القوانين التي بموجبها يستقر قسم من الاموال العامة من منابع الثروة بيد الدولة الإسلامية فتؤمّم بالمعنى

الواقعي للكلمة: كالغابات والآجام والمراتع والاراضي الموات والجبال واشجارها ومعادنها والموقوفات العامة والاموال المجهول مالكها والاراضي غير المفتوحة عنوة والكفّارات والمواريث ممن لا وارث لهم و...وإن كان بعضها يخصّ إمام المسلمين، ولكن إمام المسلمين سيصرفه بدوره في المصارف العامة.

وإن قانون الإرث لوحده أيضاً هو من عوامل توزيع الثروة على كل جيل.

ومن جانب آخر فان الإسلام إنما يحترم الملكية الفردية ما لم يواجه المجتمع الإسلامي خطراً يحدق به، وما لم تحدث حالات اضطرارية قصوى...أما لو اختلّ المجتمع وحدثت حالة استثنائية فانّ الحكومة الإسلامية العادلة (وفق الشروط المقررة) وحسب اختياراتها تعدّل الملكية الفردية لنجاة المسلمين عمّا يحدق بهم من سوء العواقب، ولإدارة ضرورات المجتمع ورفع الضرر عن عامّة المسلمين، وحسب اقتضاء المصلحة العامة للمجتمع الإسلامي. وقد ثبت هذا الحق للحكومة الإسلامية في إطار الاحكام العامة، فليس لحكام المسلمين «أن يقارّوا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم»[1].

فانّ ذلک يباين الاصول المسلّمة والصريحة للإسلام، فالإسلام لن يصحّح ما يبدو اليوم في العالم الغربيّ من الراسمالية الفجّة، ولن يسمح للرأسماليين أن يقوموا بالحروب الإستعمارية للاستعباد في سبيل إشباع أطماعهم وحرصهم.

فهذا القرآن الكريم ينادي: «... كي لا يكون دولة بين ألاغنياء منكم»[2].

إذن ففي الإسلام حيث أن الضرر بالمجتمع هو الضرر بالفرد ولا تعارض بين حقوق الافراد من جهة وحقوق المجتمع من جهة أخرى. وعليه ففي نفس الوقت الذي احترم الاسلام الملكية الفردية وأجاب على الميول الطبيعية للبشر إجابة إيجابية وأقرّ كل مزايا الملكية الفردية التي تدافع عنها الرأسمالية...مع ذلک سوف ينتفع بأموال الافراد لصالح المجتمع فيما إذا اقتضت الضرورة ذلک.

والإسلام وإن كان قد ضمن بأحكامه ما يمنع عن عدوان الرأسمالية، لم يكتف

---

(١) من الخطبة الشقشيقية للإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة.

(٢) سورة الحشر: ٧.

بالتشريع بهذا الخصوص فقط بل إنه في أخلاقياته حمل الناس على الإنفاق والبذل في سبيل الله مواكباً بين أخلاقياته وقانونه، وإن الاوامر الاخلاقية على هذا الصعيد من القوة والمتانة والتربية والتعليم والدفع بالعواطف والاحاسيس الإنسانية الطاهرة النزية بحيث أن الشخص المسلم لا يستطيع أن يبقى بلا تفاوت وهو يرى استئصال شأفة طائفة من المسلمين.

والإسلام يحارب الإسراف والتبذير في العيش الذي يتواجد على أثر تمركز الثروة بيد فئة من الناس، وكذلك يشدد النكير على إمساك الاثرياء وبخلهم وإبائهم عن الإنفاق في سبيل الله، ويحرم عدوان صاحب العمل بشأن الاجير المؤدي الى تشديد الفقر العام. وإنّ هذه الدعوة السامية الروحية تسبب ارتباط الإنسان بالله ونموّ العواطف الإنسانية السامية في ضمير الإنسان المسلم، بحيث تصبح جميع اللذائذ والثروات في نظره لا قيمة لها في سبيل حصوله على الثواب فيالآخرة و«رضوان من الله أكبر» ذلك أن الحرص والطمع وأنواع العدوان والظلم إنّما هي نتائج عدم الإيمان بيوم القيامة وانقطاع العلاقة بين الخلق والحق، حينئذٍ يتغير ضمير الإنسان ووجدانه وبالتالي سيحدث الانحراف والاضطراب في علاقته بالحياة وبأبناء جلدته ونوعه.

لم يثبت في التاريخ أن يحدث انحراف في عبادة الناس لربهم من دون أن تحدث لديهم انحرافات في الافكار والتصورات وعلاقة بعضهم ببعض، ولا يمكن أن تكون للإنسان علاقة بربه قريبة وقوية ومع ذلك يقوم بالهجوم والعدوان على حقوق الآخرين ظلماً وجوراً وبلا حدود وقيود ما وأن يسلك سبيل العدوان على سائر عباد الله من أجل جمع المال والثروة.

والإشراف الكامل على مصالح الافراد والمجتمع يعود في الإسلام الى الحكومة الإسلامية، فهي مكلّفة بأن تمنع بحزم عن الإنحراف في استعمال الحريات، وأن تنفّذ الاحكام والقوانين بكل قوة وقدرة. أضف الى ذلك أن نشر الفضائل الاخلاقية في المجتمع والإشراف على تطهير المجتمع عن الإنحراف والتلوث حكم الزامي على عموم أفراد المسلمين، وبالتالي فهو يرى شخصية الفرد المسلم شخصية إيجابية نشطة وبنّاءة في صميم حياة المجتمع.

هذا النظام الإسلامي الذي يفتقد ما في المعسكر الرإسمالي من الاضرار، أقرب الى

العدل من النظام الشيوعي بعشرات المرات فهو بعيد عن اليسارية المتطرفة واليمينية المفرطة (بالتشديد) فهو في أفق أعلى من الرأسمالية والشيوعية، وبإمكانه أن يشرق بوجهة اجتماعية خاصة بين الجبهتين الشرقية والغربية بتعادله وتوازنه الخاص.

والنقطة الجديرة بالعناية والملاحظة هي أن النظام الإسلامي الراقي والتقدمي نظام بديع مبتكر قد أسّس في عهد لم يعرف العالم معنى العدالة الاجتماعية، ولم يكن ليقيم أي وزن أو اعتبار خاص للعامل الاقتصادي تقريباً.

ليس الإنسان في منظار الإسلام عبداً لجبرٍ اقتصاديّ أو أي جبر آخر سواه، وإنما هو القوة الإيجابية النشطة والفعّالة في هذا العالم، فهو باختياره وإرادته يبني بناءه الاقتصادي من دون أن يقع عبداً عاجزاً أمام التطورات الاقتصادية القاهرة؛ إن أكبر ميّزات الإسلام عن سائر الاساليب الاقتصادية هو أنه ليس فيه ما يُسمّى بجبر التطور، بأن يكون على حياة الإنسان أن تتخذ شكلًا خاصاً من خلال ذلك التطوّر الجبرى أو القهريّ، وأنّه وبحكم نفس هذا الجبر الاقتصادي تستعلي طبقة لتستثمر ساير طبقات المجتمع.

وقد انتقد النظام الشيوعي والنظام الرأسمالي أيضاً جمع من الفلاسفة والمفكّرين المعاصرين كالفيلسوف الامريكي «وليام جيمز» والكاتب الامريكي الشهير «والتر ليبمن» والفلاسفة الإنجليز «هارولد لاسكى» و«جان استراش» و«برتداند راسل» وغيرهم من كبار المفكّرين، وحاولوا أن يجدوا درباً معتدلًا بينهما. وأبدى كل منهم بعض النظريات. إنّهم يقولون: إن النظام الشيوعي يسلب من الافراد إرادتهم وحريتهم الطبيعية، ويمنح الحكومة في جميع الامور الفردية والاجتماعية اختياراً كاملًا، وبالتالي فان شخصية الفرد وروح الإبداع فيه ستنعدم في هكذا جوّ خانق ومظلم، ويقف التكامل الفردي عن الرقيّ والنموّ.

والديمقراطية الرأسمالية التي بلغت فيها الحريات الفردية حدّ الإفراط والتطرّف تُحبط الانسجام الاجتماعي، ويقبض جمع من أصحاب رؤوس الاموال المقتدرين جميع منابع الثروة ووسائل الانتاج، ويجعلون الناس تبعاً لإرادتهم الاقتصادية، وكلمتهم هي النافذة في الاجهزة الحكومية والسياسية.

ولهذا فمن الضروري للبشرية أن يختاروا طريقاً ثالثاً بعيداً عن الإفراط والتفريط في كل من النظامين (الشيوعي والرأسمالي) ويؤمّن مصالح الفرد والمجتمع بطريقة عادلة. ولكن

هؤلاء الفلاسفة والمفكرين الذين أدركوا نواقص الأنظمة الاقتصادية المعاصرة ماذا يقدرون أن يقترحوا على البشرية يكون أعدل مما قدمه الإسلام قبل أربعة عشر قرناً؟ ذلك الطريق المعتدل والحدّ الوسط الذي يعطي للفرد من ناحية حرية معقولة، وهو من ناحية أخرى ينظّم عمل غول الرأسمالية، وبالتالي فهو الطريق القادر على انقاذ البشرية من البؤس والتعاسة والشقاء.

إن القوانين والانظمة الإسلامية قد قضت حوائج المجتمعات الإسلامية طوال القرون الماضية، ونظّمت الحياة الاجتماعية لمعظم الشعوب الإسلامية بما فيها من الامم والعناصر المختلفة في أراضي واسعة الاطراف، والمجتمع الإسلامي لم يكن بحاجة الى أخذ التشريعات من غير في الادوار الماضية، وتستطيع هذه الانظمة في العصر الحاضر مع كل ما حدث في العالم من تطوّرات أن تقود المجتمعات الإسلامية وتجيب على جميع حاجاتهم بإجابات أساسية وصحيحة.

ذلك الدين الذي أولى عناية خاصة لجميع مظاهر الحياة والحاجات المادية والروحية، ووضع لجميع الشؤون نظاماً بديعاً متوازناً متقناً، وهذا الدين المنسجم مع سنن الحياة وقوانينها سوف لا يُصاب بالبلى والانقراض.

إن المبادئ والاصول المتقنة الإسلامية النزيهة أكثر تقدماً من كل ما عرفته البشرية من المبادئ والاصول، ولها التّفوق الكامل على كل القوانين والتعاليم الاخرى في الجانب الإنساني. وحينما نقيّم المبادئ والاصول الاجتماعية الإسلامية أمام المبادئ التي تدعو الناس إليها، تتبيّن لنا أصالتها وتفوقّها والفاصل الكبير بين النظام الإلّهي للبشر والانظمة الوضعية لهم.

«في سنة ١٩٥١م عيّنت كلية الحقوق في باريس اسبوعاً لدراسة الفقه الإسلامي، واقترح المسؤولون عن العمل على علماء العالَم الإسلامي أن يبدوا الآراء الفقهية الإسلامية بشأن عددٍ من المواضيع التي نذكرها، وأن يبحثوا في سائر أبواب الفقه الإسلامي حسب اختيارهم، والمواضيع المعيّنة هي عبارة عن:

١ – وسائل اثبات الملكية في الفقه الإسلامي.

٢ – موارد امتلاك الأملاك الخاصة (من قبل الحكومة) للمصالح الاجتماعية العامة.

٣ ـ المسؤولية الجنائية.

٤ ـ التأثير المتبادل بين المذاهب الإسلامية الفقهية.

وكان رئيس هذا المؤتمر رئيس جمعية المحامين، وقال في آخر الجلسة: لا أدري كيف أجمع بين ما كنّا نفكّر سابقاً بشأن جمود الحقوق الإسلامية وعدم صلاحيتها للاستناد إليها فيما تحدث اليوم من مسائل وقوانين جديدة... وبين ما سمعناه وفهمناه في هذا المؤتمر؟ لقد ثبت لنا في هذا المؤتمر بلا ريب أن الحقوق الإسلامية تتمتّع بالعمق والاصالة والدقة الخاصة والشمول والاستيعاب الواسع، وأنها صالحة للإجابة على كل الحاجات والحوادث في عصرنا هذا. وانتهى اسبوع المؤتمر الخاصّ بالفقه الإسلامي وقد أصدر هذه الوثيقة:

«مما لا شك فيه أن الفقه الإسلامي يصلح أن يكون من منابع التشريع في العالم المعاصر، ففي الآراء والاقوال المختلفة لمذاهب الفقه الإسلامي رصيد حقوقي وافر وعجيب. وإن بإمكان الفقه الإسلامي في ظلّ هذه الآراء والاقوال أن يجيب على جميع حاجات الحياة الحديثة».

دور الاسلام في الحضارة الغربية الحديثة

إن الذين انبهروا وأصيبوا بالهزيمة النفسية أمام التقدم الصناعي الاوروبي الاخيرة انما هم يجهلون الذخائر الثقافية والدراسات العلمية والفنية للمسلمين وأثرها الحاسم في هذه الحركة الغربية الاخيرة، أو هم يتجاهلون ذلك.

إن الحركة التي أحدثها الإسلام في البشرية كانت من القدرة وقوة البناء بحيث جعلت أكثر الأمم تأخيراً من أكثرهم تقدماً في أقصر مدة ممكنة، وإن أمواج تلك الحركة كانت الى مدد طويلة تمدّ العالمين حياة وتقدماً ووضوحاً.

إنّ من أكبر معاجز الإسلام أنّه هبط في جوّ مليء بالجهل وعدم المعرفة فصنع من تلك الامة التي كانت تعدّ خارجة عن صفوف الإنسانية أمة أسّست أساسها على قاعدة حديثة لا تستلهم من الجبر الطبيعي أبداً، وعندئذٍ اتّجهت كلّ شؤون حياة الناس نحو الصلاح وتحقّقت أكبر حركة بل نهضة عرفها التاريخ، فتحرّر البشر من «إصرهم والاغلال الّتي كانت عليهم» من دون أن تتكفّل بذلك العوامل المادية أو البيئية، أجل لم يكن هناك أي عامل آخر سوى الإسلام يربط بين حياة الناس وشؤونهم وبين الفلاح والصدق والصلاح.

يوم قدِم الإسلام الى حياة الناس غيّر منهم كل شيء إدراكاتهم وأحاسيسهم وأفكارهم، وأحدث تغييراً في جميع شؤون الحياة وعلاقات الفرد والمجتمع بل الافراد والمجتمعات.

كان الإسلام في القرن الثاني من شروقه يتقدم بسرعة وبصورة هادئة وطبيعية، حتى شمل سواحل البحر الابيض المتوسط حتى صحراء أفريقيا، ومن المحيط الاطلنطي حتى جدار الصين، وظفر بأوسع القوى الحاكمة يومئذٍ في العالم وأقواها، ففي الشمال كان الجنود

المسلمون بعد فتح الاندلس يطوون جبال بيرنه ويصلون الى المدن الحدودية لفرنسا، وآخرون منهم من الناحية الشرقية بعد فتح السند والبنجاب يتقدمون نحو الصين.

وكانت هذه الفتوحات والانتصارات التي كان يلاحظ فيها أدق الاصول الإنسانية بالقياس الى الحركات التي وقعت لحد الآن في العالم، كانت نسيج وحدها. إن ما أحدثه المجتمع الإسلامي من واقع مُعجب لم يكن متمركزاً في أراضي جزيرة العرب فحسب، بل إن المسلمين أينما وضعوا أقدامهم وحلّوا حملوا رسالة الإسلام وأصول العدالة الإنسانية والمساواة والاخوة والامل للناس هدية.

إن الإسلام بعد تحطيمه للقوات الوحشية اللاإنسانية يومئذٍ، أخذ في ظلّ حكومة العدالة بنشر الحقائق وتنوير أفكار الشعوب المغلوبة المفتوحة، وألفت قلوب الناس الى حقائق الإسلام بتدبير خاص، وبمنطقه الواضح وعمق تعاليمه نفذ في أديان الاراضي المفتوحة وأثّر في عقائد أمم ذلک اليوم أثراً كثيراً، بحيث أن الاديان والمذاهب السائدة أخلت متارسها وتقهقرت أمامه، فالمشركون في جزيرة العرب والمجوس في إيران والنصارى في مصر والشام كانوا يرون الإسلام ديناً جديراً بالقبول ويؤمنون به.

ولم يكن قد تراءا بين الامة العربية قبل الإسلام ما يمكن أن يكون أساساً لمثل هذه الحضارة، ولم تكن هناک أرضية مساعدة تؤمّل تأسّس مثل هذه الحضارة العظيمة أبداً، إذ أن الجوّ الذي كان يعيش فيه ا لعرب يومئذٍ كان جوّاً يفتقد العلم والمعرفة والاقتصاد، أضف الى ذلک أنهم كانوا من حيث الجغرافية في نقطة لا تبشّر بخير.

بإمكاننا أن نرى في الصفحات المشرقة والخالدة من الحضارة الإسلامية أسمى أدوار الحضارة البشرية بكل وضوح، كانت تلک الحضارة عبارة عن سعي حثيث يكاد لا ينتهي في طلب العلم، فالمسلمون هم الذين فتحوا أبواب الطريقة التجريبية، وقد ظهر نموذج بارز من ذلک السعي في الاندلس في مدة قصيرة. والحقائق التاريخية تشهد بحقيقة أن الحضارة التي ظهرت في ظل الإسلام لا يمكن قياسها بالحضارات السابقة. ولا يمكن لاعداء الإسلام أبداً أن ينكروا ما كان للإسلام من الدور التاريخي العظيم في النموّ والتقدم العقلي والروحي والماديّ، وحقاً إنّ ما كان لتلک الحضارة الإسلامية من نموّ وتقدم سريع لا نظير له في تاريخ البشرية.

إن الإسلام لم ير نفسه بحاجة الى الإبتذال والفوضى الاخلاقية من أجل ذلک التقدم

الفكري والعلمي والحصول على القوة والقدرة المادية على طول مدته أبداً. بل إنّ تلك الحضارة العريقة والمشرقة التي تجلّت في ظلّ الوحي السماوي نفذ الى أعماق قلوب الشعوب فضلًا عن تغييرها لكثير من مظاهر حياة الناس، إنّه بثورته العظيمة حطّم أساس الارجاس والخرافات والعصبيات الجاهلية وأطاح بها، وبدلها بالسجايا الاخلاقية والملكات الانسانية.

في الادوار المظلمة من القرون الوسطى التي كانت أوروبا فيها تتخبط في مخالب ضغط الكنيسة ونظامها المتحكم، والتي كان فيها التوحش والظلام والتشتت شاملًا لكل أوروبا، جاء الإسلام بحضارة شاملة هي التي قدمت أطروحة التطوّر العلمي والصناعي في عهد النهضة الصناعية بعد «الرونسانس».

وحينئذٍ حاكموا «غاليلو» على قوله بكرويةالارض تبعاً لنظرية «كوبرنيک» وأجبروه على التراجع من رأيه وأن يتوب فيقول ما يلي:

«أنا غاليلو في السبعين عاماً من حياتي أركع على ركبتي أمام حضراتكم (البابا والقسس) وأتوب والكتاب المقدّس أمام عيني وألمسه بيدي، وأنكر دعوى حركة الارض وأطردها عني وأتنفر منها»[1].

«ومنع الفيلسوف المعروف «بيجن» عن البحث في علم الكيمياء بأمر «إدوارد الاول» ملک انجلترا، ومنع عن المحاضرة في هذا الموضوع بجامعة «اكسفورد» ثم أبعد الى باريس ليكون تحت نظر الكنيسة، و كانوا يرون وَلَعه بذلک بلاهة وسفاهة، لانّهم كانوا يرون البحث لمعرفة حقائق الاشياء محاولة للارتباط بالشياطين ولذلک فهم كانوا يصرخون بوجهه ويقولون: اقطعوا يد هذا الساحر، واسقطوا هذا المسلم! عن العمل».

وإن دور الإسلام في تأسيس النهضة العلمية الاوروبية واقع لا يمكن إنكاره، ويصرّح به العلماء الغربيون ومؤرخوهم. ونحن هنا نشير الى طرف من التقدم العلمي والفني للمسلمين على لسان العلماء الغربيين.

---

(١) بالفارسية: تاريخ علوم.

الثورة الثقافية

إن الإسلام منذ بداية اشراقه قام الى جانب المعرفة والعلم وبحمايته، بل فرض طلب العلم على كل مسلم، ومن أجل تعميم الثقافة والتعليم والتربية رغّب العلماء في تعليم التلامذة وتوسيع نطاق الثقافة والعلم، بل حرم عليهم احتكار علومهم لانفسهم (في بعض الصور).

وإن نبي الإسلام بالإضافة الى ما كان يقوم به من أنواع الترغيب لإشاعة العلم، كان يفيد عملياً من كل فرصة لترفيع مستوى معلومات المسلمين وقدرتهم العلمية. وهناك نموذج تاريخي يبيّن هذه الحقيقة جيداً: أن رسول الإسلام الى أيّ مدى كان يولي عناية بتعريف المسلمين بقيمة المعرفة والعلم:

روى ابن سعد في «الطبقات» بسنده عن عامر، قال: أسر رسول الله يوم بدر سبعين أسيراً، وكان يفادي بهم على قدر أموالهم. وكان أهل مكة يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون، فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة من غلمان المدينة فعلّمهم، فإذا حذقوا فهو فداؤه[1].

وإنّ علياً عليه السلام يعدّ نشر العلم والثقافة من وظائف وتكاليف الحكومة الإسلامية إذ يقول في كلام له عليه السلام:

«أيها الناس، إنّ لي عليكم حقاً، ولكم عليّ حق؛ فأمّا حقكم عليّ: فالنصحية لكم، وتوفير فيئكم عليكم، وتعليمكم كي لا تجهلوا وتأديبكم كيما تعلموا»[2].

---

(١) طبقات ابن سعد ٢: ١٤.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٢: ١٨٩.

وكتب «ويل دورانت» يقول: «إن المأمون الخليفة العباسي أحدث في سنة ٢١٥ هجرية في بغداد «بيت الحكمة» وكان فيه مرصد ومكتبة عامة، وصرَف لهذا العمل مئتي دينار، والذي كان يساوي ذلك اليوم أكثر من سبعة ملايين توماناً، وجمع إليه جمعاً من المترجمين الذين كانت لهم معرفة تامة باللغات الاجنبية والعلوم المختلفة من أمثال «إسحاق بن حنين» و«بختيشوع» و«ابن بطريق» و«ابن المقفّع» و«حجّاج بن مطر» و«سرجيس الراسى» وقرّر لهم رواتب من بيت المال»[1].

ونقل فريد وجدي في كتابه «دائرة معارف القرن العشرين» عن العلّامة «درابر» الاستاذ بجامعة نيويورک الامريكية في كتابه «المنازعة بين العلم والدين» من النسخة الفرنسية في طبعتها العاشرة التي ظهرت سنة ١٩٠٠ ما ترجمته:

«وبعد وفاة محمّد(ص) تُرجمت الى العربية أهم المؤلفات اليونانينة...ولكن عصر العلم الزاهر في القارة الآسيوية لم يشرق إلّا في خلافة المأمون، الذي تولّى الخلافة من سنة ٨١٣م الى سنة ٨٣٢م فإنّه جعل بغداد العاصمة العلمية العظمى، وجمع إليها كتباً لا تحصى، وقرّب إليه العلماء وبالغ في الحفاوة بهم».

«ولقد دأبوا على جمع الكتب بصفة منتظمة لاجل أن يتوصّلوا الى تكوين المكتبات وقد قيل: إن المأمون نقل الى بغداد مئة حمل بعير من الكتب»[2].

في حين لم يكن يوجد في كافة انحاء اوروبا مركز ثقافي واحد كان للمسلمين فى بلادهم مراكز علمية وثقافية كثيرة، وكان لهم فى مختلف فنون العلم أفراد أخصّائيّون خبراء ومَهرة، وبالحروب الصليبية فاضت هذه الامواج الفكرية المشرقه والحضارة الإسلامية الى خارج حدود بلاد الإسلام حتى ارتوت اوربا من ينابيع علوم المسلمين. وحتى كتب «غوستاف لوبون» يقول:

«في ذلک العهد الذي لم يكن للكتاب والمكتبة أيّة قيمة أو معنى لدى الناس في اوربا، ولم يكن يوجد في جميع الصوامع وعند جميع القسس في اوربا أكثر من خمسمأة كتاب

(١) بالفارسية: تاريخ تمدن ١١: ١٤٧، من: ويل دورانت.

(٢) دائرة معارف القرن العشرين ٦: ٦٠٨، ٦٠٩.

ديني، كان للدول الاسلامية ما يكفي من الكتب والمكاتب، ففي مكتبة «بيت الحكمة» ببغداد أربعة ملايين كتاباً، وفي مكتبة الملوك بالقاهرة مليون كتاباً، وفي مكتبة «طرابلس» في الشام ثلاثة ملايين كتاباً، وفي إسبانيا كان يصدر سنوياً ما يقرب سبعين الى ثمانين ألف كتاب»[1].

وكتب «لوسترانجر» يقول: «كان لجامعة المستنصرية بناية عظيمة مزّينة، في أرض واسعة، وفيها أثاث من النوع الفاخر العالي، لم يكن يُر مثله قبله في العالم الإسلامي. وكان لها أربعة مدارس للحقوق، في كل مدرسة خمس وسبعون طالباً، ولكل مدرسة استاذ يدرسهم مجاناً، ولهم رواتب شهرية منتظمة، وكان يُعطى لكل من الطلاب والاساتذة يومياً كمّية معينة من اللحم والخبز. ووفقاً لما قاله «ابن فرات» كانت بها مكتبة فيها الكتب القيّمة النفيسة والنادرة في مختلف العلوم والفنون في متناول أيدي الطلاب، وكانت الجامعة تعطي الطلاب الاقلام والدفاتر إذا أرادوا أن يستنسخوا شيئاً من الكتب. وكان للجامعة مستشفى وحمّامات خاصة، وكان طبيب المستشفى يتعهد الجامعة صباح كل يوم فيكتب للمرضى منهم ما يخصّهم. وكانت المدارس مليئة من المواد الغذائية والمشروبات من الادوية العلاجية وغيرها. ولا ننسى أن كل هذه التوسعة في وسائل تحصيل العلم والمعرفة كانت في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي[2].

وكتب الكتور «ماكس ميرهوف» يقول: «يوجد في اسطنبول أكثر من ثمانين مكتبة في المساجد فيها عشرات الآلاف من الكتب والنسخ المخطوطة القديمة.

وفي القاهرة ودمشق والموصل وبغداد وكذلك في إيران والهند توجد مكتبات اخرى كبرى تحتوى آثاراً قيّمة نفيسة، لم يفهرس لكثير منها والمطبوع المنشور منها أقل القليل. وحتى فهرست مكتبة «اسكوريال» في إسبانيا التي تشتمل على شطر كبير من الكتب والرسائل في العلوم الإسلامية ناقص لم يكمل بعد. طبيعي أن الذي كُشف عنه أخيراً يلقي الضوء على التاريخ القديم للعلوم في العالم الإسلامي، ولكن لا يكفي ذلك قطعاً، وسيدرك

---

(١) بالفارسية: تاريخ تمدن اسلام وعرب ٣: ٣٢٩.

(٢) بالفارسية: ميراث اسلام: ٢٣.

العالم في المستقبل أهمية العلوم الإسلامية أكثر من ذي قبل»[1].

وكتب «غوستاف لوبون» يقول: «ان الجديّة التي أبداها المسلمون في طلب العلوم مُدهشة حقاً، إنهم كانوا إذا افتتحوا مدينة واستولوا عليها كان أول ما يُقدمون عليه أن يبنوا فيه مسجداً ومدرسة. أما في المدن العظمى فقد كانت لهم فيها مدارس كثيرة حتى كتب «بنجامن توول المتوفى في ١١٧٣م» يقول: رأيت في الاسكندرية عشرين مدرسة عامرة.

بالإضافة الى المدارس العامة، كانت قد تأسّست في بغداد والقاهرة وقرطبة وغيرها جامعات كان فيها مختبرات ومراصد ومكاتب كبرى وسائر وسائل التحقيق والتنقيب والدراسة، كما كان في الاندلس سبعون مكتبة عامة. وكان في مكتبة الحاكم الثاني في قرطبة ستمئة كتاب أربع وأربعون منها فهارس المكتبة. في حين أن «شارل العاقل» حينما أسّس المكتبة الحكومية في باريس بعد ذلك بأربعمئة سنة إنّما استطاع بعد تعب كثير أن يجمع تسعمئة كتاب كان ثلثها من الكتب الدينية»[2].

وأضاف يقول: «إن خدمة المسلمين لم تكن أن تقدموا بالعلم من خلال التحقيق والتنقيب والدراسة والاكتشاف وأنهم نفخوا فيه بروح حديثة جديدة، بل إنّهم بتأسيسهم للمدارس وتأليفهم وتصنيفهم وكتابتهم للكتب أشاعوها ونشروها في العالم ومنه عالم العلوم والفنون والمعارف في اوربا، والاحسان الذي أسدوه إليه من خلال ذلك لا يمكن أن يُحدّ بحدّ، كما سنبيّن في أحد الأبواب الآتية تحت عنوان: الآثار العلمية والادبية للمسلمين انهم كانوا لعدة قرون أساتذة اوربا، وبواسطتهم فقط شاعت العلوم والفنون القديمة اليونانية والرومية في اوربا»[3].

وكتب الاستاذ محمّد فريد وجدي في موسوعته «دائرة معارف القرن العشرين» يقول:

«إن اوربا في القرون الوسطى وقعت في ظلام حالك من الجهل فوقف بها تيّار العلم، ونضبت موارد الحكمة، وبقى الناس في طخية عمياء نحواً من ألف سنة! ونقول الآن: إن بلاد

---

(١) بالفارسية: ميراث اسلام: ٢٣.

(٢) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٥٥٧، ٥٥٨.

(٣) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٥٦٢.

المسلمين كانت في تلك الفترة ملجأ العلم والحكمة وموطن المدنية والحضارة، فبلغت فيها المعارف والفنون أرفع ما قدر لها في تلك القرون»[1].

وكتب «جوزيف ماك كاپ» بشأن التقدم الثقافي للمسلمين في القرون الاولى يقول:

«وكان المجتمع ـ وحتى الطبقة السفلى منه ـ متعطشاً لقراءة الكتب، فكان العُمال يقنعون بطعام قليل ولباس حقير ليتمكّنوا من شراء الكتب حتى بآخر قطعة من نقودهم، حتى كان لاحد العُمال مكتبة كبرى يُسرع إليها العلماء باشتياق، وحتى أنّا في «وفيات الاعيان لابن خلكان» نجد الموالي المتحررين أو أبناءهم من مشاهير العلماء يومئذٍ، وكذلك نجد كثيراً من النساء في زمرة مشاهير ذلك العهد»[2].

وكتب جواهر لال نهرو في كتابه «نظرة الى تاريخ العالم» بشأن حضارة المسلمين وتقدمهم وحركتهم الثقافية في الاندلس يقول: «كانت قرطبة مدينة كبيرة جداً فيها مليون نسمة، وكانت المدينة تشبه حديقة كبرى طولها عشرون كيلومتراً وحومتها أربعون كيلومتراً. يقال: كان فيها ستون ألف قصراً وداراً كبرى ومئتاألف دور صغرى، وثمانون الف حانوتاً وثلاثة آلاف وثمانمئة مسجداً وسبعمئة حماماً عاماً. ومن الممكن أن تكون هذه الارقام مُبالَغاً فيها ولكن بإمكانها أن تقدم لنا تصويراً تقريباً عن هذه المدينة العظمى.

كان في هذه المدينة مكاتب كثيرة من أكثرها اعتباراً وأهمها المكتبة الملكية للامير التي كان فيها أربعمئة ألف كتاب. وكانت جامعة قرطبة معروفة في كافة أنحاء اوربا وحتى في آسيا الغربية، وكانت هناك مدارس كثيرة للفقراء بالمجّان.

ويقول أحد المورخين: كان كل أحد في إسبانيا يعرف القراءة والكتابة، في حين أنه في اوربا المسيحية كان الرجال في الطبقات العليا من المجتمع يعيشون في جهل كامل عدا رجال الدين»[3].

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين ٦: ٦٠٧.

(٢) بالفارسية: عظمت مسلمين در إسبانيا: ١٧٠.

(٣) عن الترجمة الفارسية: نگاهى بتاريخ جهان: ٤١٣.

الطبابة والصحة

كتب الدكتور «ميرهوف» بشأن تقدم المسلمين في الطبّ يقول: «في الحروب الصليبية كان الاطباء يضحكون من الاطباء الاروبيين لانهم كانوا يرون معلوماتهم بدائية حقيرة جداً!

فترجم النصارى كتب «ابن سينا» و«جابر» و«الحسن بن الهيثم» و«الرازي» الى اللغة اللاتينية، ولا تزال تلك التراجم موجودة من دون علم بمترجميها. وفي القرن السادس عشر ترجمت كتب «ابن سينا» و«ابن رشد» في إيطاليا الى الإيطاليّة، وكانت هذه الكتب تدرّس في جامعات إيطاليا وفرنسا»[1].

«وبعد موت الرازي لم يطل العهد حتى اشرقت شمس ابن سينا في عالم العلم والمعرفة (٣٧٠ – ٤٢٩ هـ ق) وهو وان كان يعرف في الفلسفة أكثر من الطب ولكن انتشار طبّه في اوربا مدهش أيضاً»[2].

«وكان هناك في مختلف النواحي الاسلامية أطبّاء غير الرازى وابن سينا، مثل: ابن رشد الاندلسي، وأبى القيس الاندلسي، وابن وفيد الإسباني، وعلى بن رضوان المصري، وأبي الموفق منصور الهراتي، وابن عباس الإيراني(؟) وقد تركوا كتباً ورسائل قيّمة وثمينة ونفيسة

---

(١) بالفارسية: ميراث اسلام: ١٣٢.

(٢) بالفارسية: ميراث اسلام: ١١٦.

ترجمت الى اللاتينية وغيرها مراراً أفاد منها اوربا كثيراً»[1].

«إن المسلمين سبقوا أقرانهم في عصرهم في كثير من العلوم وبذلك حيّروا العالم وأدهشوه. وحينما دخل المسلمون اوربا لم يكن العالم الاوربي اكتشف ميكروب الوباء (الكوليرا) وكان الناس في إسبانيا يقولون إن الوباء بلاء سماوي ينزل من السماء لتنبيه العاصين من الناس. وأثبت الاطباء المسلمون أنّ وباء الطاعون ليس إلّا مرضاً مُعدياً»[2].

وكتب الدكتور «ميرهوف» بشأن كتاب «القانون» لابن سينا يقول: «إنه إحدى الاعمال العجيبة الطبيّة في العالم الإسلامي، وقد طبع هذا الكتاب ونشر في اوربا في أواخر القرن الخامس عشر ست عشرة مرة إحداها بالعبرية وخمس عشرة مرة باللاتينية، وطبع في القرن السادس عشر أكثر من عشرين مرة. ومن هنا نعلم بأهمية كتاب القانون لابن سينا جداً.

وقد كتبت عليه شروح وتفاسير بالعبرية واللاتينية. وطبع الى منتصف القرن التاسع عشر عدّة مرات، وكان مدة مديدة من الكتب الدراسية، ولعلّه لم ينتشر أي كتاب طبي سواه مثله، ومع كل ما حصل من التقدم الطبي لا زال مرجعاً للعلماء وموئلًا للاطباء»[3].

وكتب «ويل دورانت» يقول: «إنّ من أشهر الاطباء الإسلاميين وأقدمهم هو محمّد بن زكريا الرازي، انّه ألّف أكثر من مئتي كتاب ورسالة أكثرها طبيّة ومفيدة جداً وملفتة للنظر، ومن أهم كتبه وأقومها وأكثرها قيمة كتابان هما:

١ــ كتاب الجُدري والحصباء، وقد تُرجم هذا الكتاب الى اللاتينية ثم الى سائر اللغات الاوربية، وقد طبعت تراجمه المختلفة من سنة ١٤٩٨ حتى سنة ١٨٦٦م أي أربعة قرون: أربعين مرة.

٢ــ الحاوي الكبير: هذا الكتاب حصيلة عمر كامل من المطالعة والتجارب الطبيّة في جميع المسائل الطبية، وهو عشرون مجلداً، انتشرت منه عشرة مجلّدات، خمسة منها في أمراض العيون. تُرجم هذا الكتاب في سنة ١٢٧٩م الى اللاتينية وطبع في سنة ١٥٤٢م خمس

(١) بالفارسية: ميراث اسلام: ١١٨.

(٢) بالفارسية: ميراث اسلام: ١٢٨.

(٣) بالفارسية: ميراث اسلام: ١١٦.

مرات، وكان يُعد من أهم المراجع والمصادر في الطب في العالم، وكان أحد الكتب التسعة التي كانت تشكل مكتبة كلّية الطبّ في باريس في سنة ١٣٩٤م»[1].

«وإن التقدم العلمي في العلميات الجراحية بدأ من العلماء الإسلاميين، وكانت المدارس الطبيّة في اوربا الى العهود الاخيرة تدور على رحى تصانيفهم، وحتى أنّ عقار البنج (الاغماء الطبي) الذي يُعدّ من المكتشفات الحديثة، لم يكن يخفى على الجرّاحين المسلمين فانّهم كانوا يفعلون ذلك بالمرضى بما كانوا يسمّونه ببذر البنج»[2].

«وقد اكتشف الرازي أساليب علاج طبيّة جديدة من قبيل: استعمال الماء البارد في الحُمى الدائمة، واستعمال المنفخة في السكتة، واستعمال الخيوط المصنوعة من أمعاء الحيوانات في خياطة الجروح، واكتشاف ضماد الجيوة»[3].

«وقد ترجمت كتب ابن سينا الى أكثر اللغات في العالم يومئذٍ، وكانت حتى ستة قرون أصول علم الطب ومبناه، بل لم تكن دروس الطب في دار الفنون في فرنسا وإيطاليا إلّا من كتب ابن سينا، ولم تترك كتبه في فرنسا إلّا منذ خمسين سنة فقط»[4].

«وقد أحدث العلماء الإسلاميون اموراً جديدة في علم الطب والجراحة،على من يريد تفصيلها أن يراجع الكتب المفصلة في ذلك، ومنها: تشخيص مرض السلّ من الاظافر، ومعالجة مرض اليرقان، ووقف النزيف الدموي بالماء البارد، وتفتيت أحجار المثانة والكلية ومن ثم إخراجها، ومعالجة عملية الفتق بالجراحة»[5].

«من أكبر الجرّاحين الإسلاميين: أبو القيس أبو القاسم الاندلسي الذي كان يعيش في القرن الحادي عشر، والذي اخترع كثيراً من آلات العمليات الجراحية صوّرها في كتبه

---

(١) بالفارسية: تاريخ تمدن، ويل دورانت ٧: ٧٥٩.

(٢) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٦٣٧.

(٣) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٦٣٠.

(٤) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٦٣٣.

(٥) بالفارسية: تاريخ تمدن اسلام ٧: ٧٨.

وكتب «هالر» يقول: إن كتب أبي القيس كانت مصادر لكل الجراحيين منذ القرن الرابع عشر، وقد طبعت كتبه باللاتينية لعدة مرات آخرها في سنة ١٨١٦م»[1].

---

(١) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٦٣٢.

صنع العقاقير الطبية

كتب الدكتور غوستاف لوبون: «اكتشف المسلمون عدّة اكتشافات في طرق المعالجات، منها: استعمالهم الماء البارد في حمّى «التيفوئيد» وتركته اوربا عدّة قرون ثم عادت إليه اليوم. وكأنّهم هم المخترعون والمحدثون لكثير من التركيبات الكيمياوية وأكثرها لا زالت معمولة حتى اليوم.

واكتشف المسلمون طرقاً خاصة في استعمال العقاقير والادوية، لا زالت بعد سنين طوال تستعمل بوصفها اكتشافات جديدة.

وكانت لهم – كما اليوم – مستوصفات مجّانية كان الناس يراجعونها في أيام خاصة، وبالنسبة الى النقاط التي لم يكن فيها مستشفى أو مستوصف، كانوا يُرسلون إليها الاطباء في أوقات خاصة معهم أدويتهم وأدواتهم»[1].

وكتب جرجي زيدان يقول: إن علماء اوربا في نهضتهم العلمية الاخيرة حينما بحثوا في فنون صناعة الادوية أدركوا أن المسلمين هم الموسّسون لهذا العلم (بمعناه العلمي) فهم الذين رتّبوا ونظّموا الطرق الفنيّة لصناعة الادوية لاول مرة وأحدثوا أدوية جديدة، وهم الذين افتتحوا لاول مرة حوانيت لتصنيع وبيع الادوية والعقاقير كما في الصيدليات اليوم، وكما يقول «ماك كاب» كان في بغداد فقط ستون حانوتاً لبيع الادوية برأسمال بيت المال وبأمر

---

(١) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٦٥ و ٦٣٧.

الخليفة»[1].

«والدليل على ذلک أن لا زالت أسامي بعض الادوية والاعشاب التي يستعملها الاوربيون هي نفس الاسامي العربية والهندية والفارسية التي كان يستعملها العرب»[2].

(١) بالفارسية: عظمت مسملين در إسبانيا: ١٨٣.

(٢) بالفارسية: تاريخ تمدن اسلام ٣: ٢٧٩.

المستشفيات

كتب جرجي زيدان يقول: «لم يكن القرن الثالث قد انتهى حتى بنيت في مكة والمدينة وساير المدن «البيمارستانات» وتسابق على بنائها المقتدر العباسي ووزراؤه، وفي بغداد فقط بنيت في فترة قصيرة أربعة «بيمارستانات» حتى بنى عضد الدولة البويهي في سنة ٣٦٨ هجرية في القسم الغربي ببغداد (البيمارستان العضدى) الذي كان فيه أربع وعشرون طبيباً اخصائياً كل واحد منهم في فرع من فروع الطب، وكان هذا المستشفى لما فيه من مزايا على رأس كل البيمارستانات الإسلامية»[1].

«وكانت المستشفيات الإسلامية ذلك اليوم تدار بترتيب ونظام تام كامل، وكان كل المرضى يعالجون بكل دقة من دون التفات الى قوميتهم ومذهبهم وشغلهم، وكان لكل مرض أو لعدة أمراض صالون خاص، وكان يدرّس الطب وتصنيع الادوية في محل مجاور، فكان الطلاب بالاضافة الى دراستهم العلمية يمارسون ذلك عملياً. وكان المسلمون قد شكّلوا مستشفيات سيّارة – كما اليوم – يذهبون بها الى هنا وهناك، ومنها ما كان في عسكر السلطان محمود السلجوقي إذ كان له مستشفى يحمله أربعون بعيراً»[2].

وكتب الدكتور «غوستاف لوبون» يقول: «كانت مستشفيات المسلمين قد بنيت وفقاً لاصول الصحة وكانت بالنسبة لزمانها أحسن من مستشفيات اوربا اليوم! لانها كانت واسعة

(١) بالفارسية: تاريخ تمدن اسلام ٣: ٢٧٩.

(٢) بالفارسية: تمدن اسلام ٣: ٢٨٢.

جداً وكان جريان الماء والهواء فيها كثيراً جداً. وحينما أمر محمّد بن زكريا الرازي أن يختار أحسن نقطة في بغداد من حيث الماء والهواء لبناء البيمارستان، فما أجراه من اختيار يعترف به اليوم الباحثون في الامراض المُعدية انه علّق في كل نقطة من جهات المدينة قطعة لحم، وأوعز أن يبنوا المستشفى في النقطة التي كانت آخر نقطة تعفّنت فيها قطعة اللحم أي كانت آخرها عفونة وفساداً.

كانت مستشفيات المسلمين كالمستشفيات اليوم لها صالونات كبرى للمرضى، وغرف خاصة لطلّاب الطبّ، وكانوا يقصدون من ذلك الى أن يفيد الطلّاب من معاينة المرضى ويكمّلوا معلوماتهم من خلال المشاهدات والتجارب.

وكان المسلمون – كما اليوم – قد أُسسوا للمجانين مصّحات خاصة بالامراض العقلية وكان فيها حوانيت لتوزيع الادوية مجاناً»[1].

وكتب «ماک کاب» يقول: «كانوا قد بنوا في القاهرة مستشفى كبيراً كان فيها حدائق كبرى من الاوراد والازهار والرياحين العطرة، وصحون أربعة فيها حياض كبرى فيها فوّارات أو نافورات المياه. وكانت تستقبل المرضى الفقراء وبعد العلاج كانوا يرفدون كل واحد منهم بأربع قِطع من المسكوكات الذهبية»[2].

«وكان في مدينة قرطبة خمسون مستشفى وتسعمئة حمام وستمئة مسجد جامع»[3].

(١) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٦٣٥.

(٢) بالفارسية: عظمت مسلمين در إسبانيا: ١٨٣.

(٣) بالفاسية: جهان اسلام: ٨٢، ٨٣.

الكيمياء

كان جابر بن حيان من تلامذة الإمام الصادق عليه السلام أحد الشخصيات العلمية الكبرى، وكانت له خبرة ومهارة خاصة في علم الكيمياء، حتى قال «ماكس ميرهوف» فيه: «يعرف جابر بن حيان في العالم اليوم بأبي الكيمياء، ولا زالت منه بأيدينا تسعمئة كتاب في الكيمياء ولا يخفى ما لكتبه من النفوذ والشهرة في تاريخ الكيمياء في اوربا»[1].

وكتب المرحوم العلّامة السيد هبة الدين الشهرستاني في كتابه «الدلائل والمسائل» بشأن كتب جابر بن حيان يقول: «رأيت خمسين رسالة منه قديمة الخط يقول فيهنّ: «قال لي جعفر عليه السلام» أو «ألقى علىّ جعفر» أو: «حدّثني مولاي جعفر عليه السلام» وقال في رسالته الموسومة بالمنفعة: «أخذت هذا العلم من سيدي جعفر بن محمّد سيّد أهل زمانه...» وقد طبعت خمسمئة رسالة منها في ألمانيا قبل ثلاثمئة سنة أو اكثر، وهي موجودة في مكتبة الدولة ببرلين ومكتبة باريس...وله مؤلفات كثيرة في الهيئة والنجوم طبعت في ألمانيا قبل مئات السنين...وقد سمّاه الإفرنج: أستاذ الحكمة، ولذكره تجليل وتبجيل لديهم، واعترفوا بأنه المكتشف لتسعة عشر عنصراً من عناصر المواد التي بلغت اليوم فوق المئة...ونسبوا إليه القول بوحدة العناصر وأنها جميعاً تنتهي الى عنصر النار المخبوءة في باطن الذرة من ذرات المادة. وقد كشف الإفرنج حديثاً النار القوية الالكترونية في باطن الذرة (الاتم)...»[2].

---

(١) بالفارسية: ميراث اسلام: ١١٢.

(٢) الدلائل والمسائل، للسيد هبة الدين الشهرستاني: ٥١ - ٥٣، ط. بغداد.

ويقول الدكتور «غوستاف لوبون»: «اكتشف المسلمون سلسلة من المواد لا زالت مورد الحاجة في الاستعمالات الكيمياوية والصناعات اليومية، وكان العلماء المسلمون يعلمون هذا العلم ولكن مع الاسف فقد الكثير من كتبهم في هذا الموضوع، ومن النظر في التركيبات الكيمياوية المذكورة في كتبهم الموجودة يعلم مدى ما توصّلت إليه أفكارهم ومعلوماتهم، وإن خبرتهم ومهارتهم في صنع الاصباغ والالوان واستخراج أنواع الفلزّات وصناعة الفولاذ والجلود تثبت لنا أنهم كانوا يفيدون من الكيمياء في مختلف فنونهم.

والذي يقولون: إن «لاوازيه» كان مُحدث هذا العلم ليس صحيحاً، إذ علينا أن نعلم أن أي علم أعم من الكيمياء وغيره لا يوجد دفعة واحدة، فلو لم تكن مختبرات المسلمين واكتشافاتهم المهمة في هذا العلم قبل ألف عام لما كان لاوزايه يتقدّم خطوة في هذا المجال»[1].

وكتب جرجي زيدان يقول: «لا شک فی أن المسلمين هم الذين أسّسوا كثيراً من التركيبات الكيماوية وعليها ابتنت الاكتشافات الكيماوية الحديثة. وهم يقرّون ويعترفون أن المسلمين هم الذين اكتشفوا: الاسيد نتريک، والاسيد سولفوريک، والاسيد نترو، والهيدرو كلوريک، والبوتاس، وجوهر النشادور، وملح النشادور، ونيترات الدارجن، والكلوريد سولفوريک، ونترات البوتاس، والكحول، والزرنيخ، والبورق، والقليا، وغيرها كثير. وقد اكتشف علماء الكيمياء في الإسلام أشياء لا علم لنا عن كيفيتها إلّا اجمالاً»[2].

وكتب «السير إدوارد» في كتابه «من تاريخ علم الكيمياء» يقول: «تقدّم علم الكيمياء على عهد الخلفاء العباسيين تقدماً ملحوظاً، فكان المسلمون يومئذٍ يستعملون التقطير والتبخير والتصعيد، وكانوا يعرفون ويستعملون لاول مرة: الصوديوم، والكربون، والكربونات، وسولفات فريک، والالمنيوم، وسولفات بوتاسيوم، وكلورويد امونيوم، دوبوتاس، وبرات دوصوديوم، ونيترات دوكواريوم، ومركورى سالفيدوم، وكروسيو سابليميت»[3].

(١) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٦١٢.

(٢) بالفارسية: تاريخ تمدن اسلام ١: ٢٧٩.

(٣) بالفارسية: عظمت مسلمين در إسبانيا: ١٨١.

وكتب الدكتور «ميرهوف» بشأن الرازي بصفته الوجه المشرق في الكيمياء يقول: «وجد كتابه الكبير «صناعة الكيمياء» أخيراً في مكتبة أحد أبناء الملوك الهنود، وقد قسّم الرازي في هذا الكتاب مختلف المواد الى طبقات ثم شرح الخواص الكيمياوية لكل واحدة منها»[1].

وكتب «ويل دورانت» يقول: «إن الكيمياء بوصفه أحد العلوم كان من إبداع المسلمين تقريباً، فانّهم هم الذين أضافوا على عمل اليونان الذي كان محصوراً على بعض التجارب ثم الافتراضات المبهمة أضافوا إليها المشاهدات الدقيقة والتحاليل العلمية وثبّت النتائج. انّهم حلّلوا كثيراً من المواد. ولهم كتب بشأن بعض الاحجار، وميّزوا بين أنواع الاسيد والمواد القليائية. وبحثوا حول مئات الادوية الطبية وصنّعوا مئات اخرى. ومن تبديل المواد بعضها ببعض ولا سيّما الذهب والفضة توصّلوا الى الكيمياء الحقيقية. وبكثير من كتب العلماء المسلمين التي لم يعرف مولّفوها ولكنها تُرجمت الى اللغة اللاتينية تقدم الكيمياء في اوربا»[2].

---

(١) بالفارسية: ميراث اسلام: ١٢.

(١) عن الترجمة الفارسية لتاريخ التمدن، ويل دورانت ١١: ١٥٥.

الصناعات

كانت الساعة أول أثر صناعي كبير أخترع أو ابدع من قبل المسلمين على عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد، فبعث هارون الرشيد بالساعة المخترعة كهدية الى «شارلمان» ملک فرنسا! و کتب الد کتور «غوستاف لوبون» الفرنسي يقول بهذا الصدد:

«كان هارون الرشيد قد بعث مع سفير شارلمان ملک فرنسا وامبراطور العرب بهدايا كثيرة إليه، كان من أهمها ساعة تعيّن الوقت وتدق جرساً بذلک. وأصبح شارلمان وأصحابه مبهوتين بروٴيتهم لهذه الساعة، ولم يجد في بلاطه أحداً يعرف كيفية صناعتها»[٢].

وأضاف يقول: «إن انحطاط الاندلس بعد إخراج المسلمين العرب منها كان من الشدةبحيث لا يوجد في جميع صفحات التاريخ قوم انحطّوا هكذا والى هذه الدرجة وبهذه السرعة: فقد غاب عن الانظار فجأة كل ما كان من أسباب الرقي لاية دولة أو شعب: العلوم والفنون والزراعة والفلاحة والحرف، وبالتالي كل شيء...

انسدّت وأغلقت المصانع والمعامل الكبرى، واختلّت امور الزراعة رأساً، وبارت الاراضي الزراعية المثمرة، والمدن التي كانت بالطبع لا تبقى عامرة بدون زراعة وحرف، خربت وبارت، فقلّت نفوس «مدريد» التي كانت أكثر من أربعمئة ألف الى مئتي ألف! وفي «اشبيلية» التي كان بها ألف وستمئة معمل وكان يعمل فيها مئة وثلاثون ألف عامل، انحصرت المعامل في ثلاثمئة! وأما نفوسها فمن المعلومات التي قدّمتها الهيئة التشريعية الى

---

(٢) بالفارسية: اسلام وعرب.

«ڤليپ الرابع» يعلم أن عدد نفوسها كانت قد بلغت الربع مما كانت عليه»[1].

وأضاف يقول: «كانت كتابات اوربا في القرون الوسطى الى مُدد طويلة على الجلود المدبوغة، وكانت تكلّف من المصاريف ما كان يمنع من نشر الكتب واشاعتها، وكانت قليلة جداً بحيث كان رهبان الروم واليونان يجمعون الكتب القديمة فيمسحون كتاباتها ليكتبوا عليها كتاباتهم الدينية! فلو لم يكن المسلمون اخترعوا الورق لكان هولاء الرهبان اليونان والرومان يفسدون كل الكتب القديمة التي يستولون عليها! فهذا الاختراع من المسلمين قدّم خدمة قيّمة ثمينة الى عالم العلوم في الحقيقة.

وقد عثر «كاسيري» في مكتبة «اسكوريال» على كتاب كُتب في سنة ١٠٠٩م يعرف أنه أقدم الكتب المخطوطة في مكاتب اوربا، ويعلم من هذا الكتاب أن المسلمين هم أول من كتب على الورق بدل الجلود المدبوغة قبل غيرهم.

ولم يكن الورق الحريري (الصيني) يفيد لاوربا يومئذٍ إذ لم يكن في اوربا حرير ولا دود القزّ، وإنّما كان القطن، والمسلمون الذين اخترعوا الورق من القطن، ومن هنا فقد امتنّوا على اوربا. ويعلم من ورق الكتب القديمة للمسلمين أنهم كانوا قد تقدّموا بهذا الفن كثيراً حتى أنه لم يصنع إلى الآن ورق أحسن من تلك الاوراق! وقد ثبتت هذه الحقيقة وهي: أن صناعة الورق من الثياب القطنية البالية والذي يعد عملًا صعباً وبحاجة إلى أعمال يدوية كثيرة كان يخص المسلمين»[2].

---

(١) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب.

(٢) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب.

العلوم الرياضية

كتب «بارون كارول دو» يقول: «إن المسلمين اكتسبوا توفيقاً كبيراً في علوم مختلفة، وهم الذين علّموا الناس استعمال الاعداد...ونظّموا الجبر والمقابلة على شكل علم صحيح، وتقدّموا به خطوات كبرى، وأسّسوا أساس الهندسة التحليلية، ولا شك أنهم هم مخترعوا المثلثات السطحية والكروية التي لم يكن لها سابقة في اليونان من قبل.

حينما كان العالم المسيحي الغربي في حروب مع البربر كان المسلمون العرب مشتغلون بدراسة العلوم، وكانوا يسعون سعياً حثيثاً للحفاظ على معنوياتهم ودينهم»[1].

«تقدّم المسلمون في مدة قليلة في علوم كثيرة منها في العلوم الرياضية، واكتشفوا في الهندسة الجبر والمثلثات وغيرها اكتشافات كثيرة، ومن المسلّم به أن شطراً كبيراً من العلوم الرياضية اليوم قد ذهب من المسلمين الى اوربا، وخير دليل على ذلك أن مصطلحات هذه العلوم المذكورة لا تزال باقية على صورتها العربية، فلغة «الجبر= Algedre»عربية، وفي الفرنسية يطلقون على الارقام والاعداد الرياضية: ChiffreBrBde أي الرقم العربي. وقد ظهر في المسلمين علماء رياضيون كبار ولهم اكتشافات مهمة لا زالت مورد اهتمام العالم، فالمسلمون هم الذين اكتشفوا الاسطرلاب، واكتشف وابتدع المثلثات ومصطلحاتها العلماء الرياضيون المسلمون من العرب والإيرانيين، فمن إيران قام علماء كبار مثل أبي ريحان البيروني والحكيم عمر الخيّام النيشابوري، وقد تركوا آثاراً كبيرة منهم في فنون الرياضيات،

(١) بالفارسية: ميراث اسلام: ٢٩٣.

حتى قال «ولز» الإنجليزي في كتابه في التاريخ العام: إن كل ما لدينا من العلوم الرياضية إنّما هي من المسلمين»[1].

---

(١) نقلًا عن منشورات دار التبليغ الاسلامي بالفارسية

الجغرافيا

كتب الدكتور «غوستاف لوبون» المؤرخ الفرنسي الشهير يقول: «إن المسلمين كانوا شجعاناً في ركوب السفن في البحار دائماً، ولم يكونوا يترددون في السفر الى النقاط البعيدة، إنهم في أوائل استقرار حكومة الإسلام أقاموا علاقات تجاريةمع الدول البعيدة عنهم كالصين ونواحي روسيا ومناطق من افريقيا، ولم يكن الاوربيون يومئذٍ يدركون ذلك.

ونشر «سليمان الرحالة» مذكراته من رحلته الى الصين فكان أول كتاب انتشر في اوربا عن الصين، وفي أوائل هذا القرن ترجمت هذه الرحلة الى اللغة الفرنسية.

وكان «ابن حوقل» أحد علماء الجغرافيا في الإسلام يقول في كتابه: كتبت في هذا الكتاب طول الارض وعرضها، وشرحت كل الدول والحدود والثغور الإسلامية وضممت الى ذلك صورة مرسومة عن كل بلد تبدي مختلف النقاط لتلك البلاد، وشرحت الأمور التي تتعلق بكل مملكة من المدن والقصبات والانهار والبحار والثمار والزروع والطرق، وفواصلها مع جاراتها، وبضائعها التجارية وبالاخرة كل ما يحسن من علم الجغرافيا في نظر الملوك والوزراء أو غيرهما من أي طبقة كانوا، قد شرحت ذلك كلّه في هذا الكتاب.

ثم يذكر المؤرخ المذكور أسامي عدد من علماء الجغرافيا في الإسلام مثل أبي ريحان البيروني وابن بطوطة وأبي الحسن الرحّالة ثم يضيف قائلًا: «لقد تقدّم المسلمون في الجغرافيا تقدماً كثيراً وكان السبب الاصلي في هذا التقدم ما كان لهم من معلومات واطلاعات عن علم الهيئة والفلك ثم ما كانت لهم من أسفار وسياحات ورحلات»[1].

---

(١) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب.

الفنون الجميلة

كتب العالم والمؤرخ الفرنسي الشهير الدكتور «غوستاف لوبون» يقول: «حينما نلاحظ المساجد والمدارس والخانات الإسلامية نفهم كم امتزج الدين — في الإسلام — مع الحضارة بحيث لا يمكن تفكيك أحدهما عن الآخر. والذوق الفني لأية امة إنّما يفهم من تلك التغييرات الاساسية التي يدخلونها على ما يقتبسونه بسرعة ومن الصبغة التي يصبغونها به من صبغتهم وكأنهم يصنعون منه شيئاً مستقلًا.

وحسب الشواهد التي بأيدينا لم تتمكن أية امة حتى الآن أن تتقدّم على المسلمين من هذه الجهة، كما يمكن إدراك قوة إبداعهم وابتكاراتهم جيداً من مشاهدة الابنية القديمة، خير نموذج لذلك هو مسجد «قرطبة» الذي بني على المعمارية الوطنية الاندلسية ولكنهم أضافوا فيه أساليب حديثة أيضاً.

والنحت فى الخشب او العاج والصدف من الصنائع التى طوّرها المسلمون كثيراً، فالمساجد القديمة والابواب الجميلة والمنابرالمنحوتةوالمرصعة بالخاتم، والسقوف الخشبية المنحوتة والمنقوشة على الخشب، والشبابيك المتشابكة والمتداخلة، كل ذلك ذكريات اثرت من المسلمين، ولا يمكن صنعها اليوم بتكاليف كثيرة.

إنّهم كانت لهم معلومات وخبرة كافية في النحت على العاج، كما تشهد لذلك المنضدة في كنيسة «سنتى زيدوليئون» والصندوق العاجي الذي صنعوه في القرن الحادي عشر الميلادي لملك «اشيبيلية» وكذلك صندوق العاج الذي في كنيسة «بايو» والمصنوع في القرن الثاني عشر الميلادي، وهو منبت بالفضة والذهب، والظاهر أنه مما أتى به الصليبيون

أيام الحروب الصليبية من مصر.

والعجيب جداً هو أنهم يصنعون أشياء ظريفة جداً ولكن بالآت ساذجة بل وخشنة، وهذا هو خير شاهد على فطنتهم وذوقهم الفني. فآلات الزينة والمجوهرات المرصعة التي تصنع اليوم في القاهرة ودمشق لا يوجد في اوربا أي صائغ يتمكّن أن يقوم بنحت في خشب أو الترصيع فيه أو من الخزف أو الذهب والفضة بنفس الآلات الساذجة القديمة التي كانوا يستعملونها في الشرق الاوسط.

وقد تقدم المسلمون في فن الفيسيفساء والكاشاني بخطوات سريعة كما في المعمارية، بحيث لم يستطع أحد بعدهم أن يحشر نفسه في صفوفهم.

في أوائل القرن العاشر الميلادي بدأ المسلمون في الاندلس باستعمال الكاشاني الفسيفساء وأسّسوا لذلك مصنعاً ومعملاً كان يصدر الكاشاني منه الى كثير من أنحاء العالم. وقد رأيت أنا (لوبون) الكاشاني الفسيفساء من القرن الثالث عشر الميلادي الذي رُكّب بشكل لا مثيل له في قصر الحمراء فرأيتها كأنّها جواهر مشرقة، وهي كالكاشاني الإيطالي الذي عُرف فيما بعد باسم «مجالكا» مشرق لماع، وقد تعلّم الإيطاليون صناعة الكاشاني من المسلمين. ومن ذكريات المسلمين في صناعة الكاشاني تلك المزهرية الشهيرة في قصر الحمراء، هذه المزهرية طولها متر ونصف المتر وفيها بدائع جميلة»[1].

وكتب الدكتور «ماكس ميرهوف»: «تظهر اليوم شيئاً فشيئاً ذخائر علوم الامم الإسلامية ويفيد منها الجميع، والمكتشف في هذه السنين الاخيرة قد القى ضوءً جديداً على التاريخ القديم لعلوم العالم الإسلامي، ولكنّها ليست كافية بعد قطعاً وسيدرك العالم في المستقبل أهمية العلوم الإسلامية.

انّ علوم المسلمين العرب أضاءت الليالي المظلمة في اوربا القرون الوسطى كالبدر الطالع، ولما ظهرت العلوم الجديدة فقد القمر إشراقة ضوئه، ولكنّه هو القمر الذي هدانا في تلك الليالي المظلمة حتى بلغ بنا اليوم الى ها هنا، بل نستطيع أن نقول ان أضواءه لا زالت

---

(١) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب.

معنا»[1].

وكتب «جان برندترند» أستاذ جامعة كامبريج يقول: «حينما كانت اوربا ترزح بالبؤس والتعاسة والشقاء المادّي والمعنوي، كان المسلمون في إسبانيا قد احدثوا حضارة عظمى بنظام اقتصادى رتيب.

إن إسبانيا المسلمة لعبت دوراً مهمّاً في نشأة الصناعات والعلوم والفلسفة والشعر وتطوّرها، وفي القرن الثالث عشر بلغ الحال الى أن أثر في أكبر العلماء والمفكرين في اوربا مثل «دانته» و«توماس اكيناس» وعليه فينبغي أن نسمّى إسبانيا حاملة مشعل الحضارة الاوربية»[2].

وكتب العالم الإنجليزي «جمبر» يقول: « حقاً إن القلم يعجز عن بيان ما جاء به المسلمون من الآداب والمراسيم الإنسانية ومن سعادة الحياة، وكم سبّبوا في تربية الاوربيين وتطورهم.

لو لم يكن المسلمون ينزلون بقيادة «طارق بن زياد» في جبل الطارق سنة ٧١١م ومن هناك لم ينطلقوا الى أراضي اوربا، لكان يعلم مدى ما كنّا نخسر نحن شعوب اوربا وكم كنا نتخلّف عن التقدّم القائم اليوم»[3].

وكتب العالم الإنجليزي «بوجولد» يقول: «إن الجامعات الإسلامية في بغداد والاندلس، كانت ترحّب بالطلّاب الاجانب من اليهود والنصارى، وكانت تدفع مصارفهم من بيت المال، وكانوا يحترمونهم ويكرمونهم، فكان مئات من الشباب الاوربي يفيدون من هذه الحرية والمساعدات ويذهبون لطلب العلوم إلى تلك المراكز العلمية الإسلامية».

وكتب المؤرخ الشهير الامريكي «درابر» يقول: «كان للعلماء المسلمين يد طولى في أكثر العلوم القديمة والحديثة، وكانت لهم خبرة ومهارة تامة في علوم الميكانيک ومعادلات السوائل، وعلم الحركات الاولية «الديناميک» وحل المعادلات الكيمياوية والفيزياء والتقطير والتصعيد.

---

(١) بالفارسية: ميراث اسلام: ١٠٠ و ١٠١ و ١٣٤.

(٢) بالفارسية: ميراث اسلام: ١٥٢.

(٣) فتوح العرب وكنوز الآداب: ٢٦.

في الجامعات الإسلامية كانت تدرّس مختلف العلوم من الفيزياء والكيمياء والهيئةوالفلك الى دروس الزراعة والطب والاخلاق، وكان فيها أساتذة فلاسفة كبار، ولم تكن يومئذ أيّ جامعة كالجامعة الإسلامية تشتمل على ستة آلاف طالب».

ويقول «فيليب حتّي»: «كان في قرطبة طرق حجرية متبدة تستضيئ من أضواء الدور على جانبي الطرق، بينما لم يكن للندن ولا باريس طرق كهذه حتى بعد سبعة قرون، بل الى قرون بعد ذلك كان إذا تجرأ فرنسي وخرج من داره في يوم ممطر كان عليه أن يطمس حتى كعبيه في الطين والوحل. وحينما كانت جامعة اكسفورد ترى أن الاستحمام من مراسيم عبدة الاوثان، كانت أجيال متعاقبة من مسلمي قرطبة تتمتع بأجمل الحمامات هناك»[1].

وكتب «برولت» في كتاب «صنع الإنسان» يقول: «لا ريب أننا بإمكاننا أن نردّ أيّ فرع من فروع العلوم والفنون الى أصول من عوامل الثقافة الإسلامية...بل انّ العلم (القديم) كان هدية منحها المسلمون العرب الى العلم الحديث...وإنّما تظهر هذه العوامل الثقافية الإسلامية حينما نشاهد آثارها في ظهور هذه القوة العظمى التي جتهزت العالم بقوى غريبة، تلك القوة التي تكمن في روح البحث العلمي والعلوم الطبيعية.

والذي يدين به علمنا الحديث لعلوم العرب (المسلمين) ليست اكتشافات مفاجئة وأفكار ناشئة متطفّلة، بل الموضوع أعلى مما نتصوره نحن هكذا، فانّ العلم الحديث يجد نفسه رهيناً في وجوده لعلوم العرب (المسلمين) نحن نتذكر كيف أن علومنا كانت فاقدة الصلة بالعلم القديم بل لم يكن هناك علم أصلًا.

إن ما ندرسه نحن اليوم باسم العلم إنّما وجد في اوربا على أثر الاساليب الحديثة التي ظهرت على صعيد التجارب والمشاهدات والتقديرات الدقيقة، وقد تطوّرت العلوم الرياضية بما لم يُعهد في اليونان القديم...وهذه الروح الوثّابة وهذه الاساليب العلمية إنما جاء بها العرب (المسلمون) هدية الى اوربا».

أمّا لو كنّا نحن ورثة حضارة مشرقة إسلامية عظمى فلماذا نحن اليوم نعيش هكذا؟ ماذا حدث فأطاح بنا من مقام قيادة العالم؟ وضعفت حضارتنا وعلومنا وقوانا السياسية وتوقّفت

(١) بالفارسية: تاريخ عرب ١: ٦٧٣.

مسيرة تقدمنا ؟وبدلنا مكاننا مع الغربيين. فأصبحنامحتاجين إليهمفي العلوموالصناعات وهم مستغنون عنّا ؟! ما الذي سبّب في أن يعيش المسلمون اليوم بهذه الذلة مع كل ما كان لهم من سوابق مشرقة في شرق الارض وغربها ؟!

وللإجابة نقول: إن المسلمين لم يجدوا رونقهم بطبول فارغة وتجميل الصور الظاهرية، بل إن كيفية التربية الإسلامية كانت بحيث أحدث هذا التطوّر الغريب، والمجتمع الذي كان بعيداً عن كل نظام اجتماعي، والذي كان كل قواه تصرف في سبيل الخلافات والحروب، أصبح باتّحاد كلمته ذا عظمة ووحدة، وأصبحوا في فترة قصيرة قادة الأمم الكبرى، وأطلّت حكومتهم وقدرتهم على سايرالدول المقتدرة.

إن نظام أيّة أمّة قوية بحاجة الى قواعد أساسية محكمة وأصول وآداب وأخلاق وأنظمة تامّة كاملة، كي تتمكن من البقاء والدوام والاستمرار والاطراد والتطوّر والتقدّم. والإسلام لم يمنح أمة القدرة والقوة بالاسلحة والاعتدة والمدافع والدّبابات، وانّما بدأ بدعم الافكار على واقع الصراط المستقيم، ونفث في المجتمع روح الاخوة والالفة والعدالة.

وقد أثبت التاريخ بوضوح أنّه متى ما فارق المسلمون روح التعاليم السماوية أحاطت بهم أمواج الذلة والتعاسة والشقاء. إن المسلمين الذين أسّسوا في الماضي قاعدة حضارة عظيمة مدهشة كانوا أقرب الى روح الإسلام، وإنّما افتقدت حركة الحياة الفردية والاجتماعية للدول الإسلامية مسيرتها نحو التكامل، واتّجهت شمس الحضارة الإسلامية نحو الافول، حينما افتقد التوازن بين العلم والفكر، وبين المادة والروح، وحينما سقطت راية السعي والنشاط والجهاد من أيدي المسلمين، حملتها الشعوب الغربية واتّجهوا الى الامام حتى تغلغلت أفكارهم وعلومهم وحضارتهم في أنحاء العالم، من دون أن يكون لهم في كتبهم الدينية وأحكامهم المذهبية أي أمر أو وصية بهذا الصدد.

وفي صعيد الصفات والمزايا الاخلاقية أيضاً تغيّرت أوضاع المسلمين وأحوالهم، فجانبوا الصفاء في الإخاء والصدق في القول والفعل والصحة في الاعمال وسائر المزايا الاخلاقية واحدة بعد الاخرى، وحينما تجاوز المسلمون هذه الحدود ودّعوا دينهم الإسلام! فاتّجهوا يتخبّطون في طرق الضلال والضياع عن البرنامج السماوي المقدّس الذي كان منذ أول يوم أعلن فيه منزّهاً عن أيّ ضلال وجهل وبؤس وشقاء.

إن لم يكن المسلمون يبتعدون عن واقع الإسلام الاصيل، لم يكن يظهر في جمعهم الموحّد ذلك الشقاق العميق، بل كانوا يتوفّقون لفتح جميع بلاد الارض، ولم يكن يحكم اليوم في العالم دين سوى الإسلام.

كتب «لاكاس» وهو أحد أصحاب نابليون في جزيرة «سنت هيلين» يقول:

«حينما كان نابليون يعيش في مصر كان يُبدي استغرابه قائلًا: كيف توفّق الرجال التاريخيين من المسلمين أن يطأوا هذه الدول الاجنبية عنهم فيجعلونها تحت نفوذهم وتصرفهم؟ وكان هذا المعنى عاملًا سبّب حسن ظنّه بالإسلام فكان يقول: إني أراني سأتقبّل الإسلام.

واليوم قد أبعد الإسلام كليّاً تقريباً عن ميادين النظم الاجتماعية والسياسية القانونية والتشريعية، وعن ساحة حياة المسلمين أيضاً.

وبنظرة جذرية وأساسية نقول: إن المجتمع الإسلامي يختلف عن هذا المجتمع القائم اختلافاً كثيراً، فان كل مجتمع يتّبع نُظماً وقرارات وقوانين غير إسلاميةهو مجتمع غير إسلامي.

والخلاصة: أن المجتمع الإسلامي في الحال الحاضر لا يتملك أفكاراً إسلامية ولا أخلاقاً إسلامية، وإن أيّ فرع من فروع حضارتهم لم يُبن وفقاً للاصول الإسلامية الصحيحة.

والخلاصة مرة أخرى: أنه لم يبق بين إسلامهم وعملهم أيّة علاقة أو ارتباط. وعليه فيجب أن نحمل هذه الهزيمة والنكسة الحاضرة على حساب المسلمين الإسلام. والســلام!

إنّ المسلمين اليوم من أجل أن يُسهموا في الثورة الحضارية في العالم بصورة مؤثرة، عليهم أن يدركوا وضع العالم، وأن يقيّموا موقعهم فيه، ومن أجل أن يجبروا ما لحق بهم من التأخّر وأن يقوموا باصلاح عام لاوضاعهم عليهم أن يعيدوا النظر في رسالتهم المعنوية وفي رسالتهم المادية معاً لكي يصلوا الى نتائج مفيدة مثمرة.

والخلاصة مرة أخرى: ما لم يعُد المسلمون الى المنبع العذب للحضارة الإسلامية، والمصدر الحقيقي لتعاليم الإسلام القيّمة، فانّهم لن يستعيدوا عظمتهم السابقة، ولا يزالون متخلّفين. فعلى المسلمين أن يعودوا الى الإسلام الاصيل والكامل الشامل لامور الدنيا والآخرة، وأن يوثقوا علاقتهم بأسلوب الفكر الإسلامي، وأن يحافظوا على كرامة وحرمة العهد

الذي قطعوه لله على أنفسهم بانتمائهم الى الإسلام، فهذا هو السبيل الذي بإمكانه أن يعود بالمسلمين الى ذلک الشرف والعظمة السابقة.

الاسلام والمشروبات الكحولية

إن نظام التربية والتعليم في الإسلام نظام اجتماعي عالمي يؤمّن سعادة الإنسانية على صعيد الحضارة. وإن دعوة الإسلام تبتني على أساس الخطاب مع العقل والوجدان وضمير الإنسان. وإن كثيراً من آيات القرآن الكريم يبيّن المعارف العقائدية والعملية بأسلوب استدلالي برهاني، ويعرض أهدافه ومقاصده على غريزة حبّ الحقيقة والواقع في الإنسان بدلائل كافية وافية. فالإسلام – في الحقيقة – يقول بقيمة خاصة واعتبار كثير للقوة المدركة والقوى الحسّاسة في الإنسان.

إنّ الإسلام يريد أن يتقدّم الإنسان – بصفته ظاهرة من ظواهر الخلقة والذي يمتاز عن صفوف سائر الحيوانات بقوة العقل والمنطق – يتقدّم الى الغاية المركّزة في هيكله الوجوديّ بإدراكه وشعوره الفطري.

إن الإسلام قد أودع إدارة الامور الفردية والاجتماعية الى العقل، وأولى هذه الموهبة العظمى الاهمية والقيمة حتى أنه جعلها الحجّة الباطنية، وحتى أنه منع بشدة عن أيّ شيء يحبط نشاط العقل ويخلّ بالعمل الطبيعي لهذه الموهبة الإلّهيّة، وحتى أنه لا يسمح بذلك حتى للحظة واحدة!

والمشروبات الكحولية من جملة ما يؤثر على جهاز العقل، وتترتّب عليها آثار مشؤمة من حيث الاخلاق والصحة والنفس في المجتمعات البشرية. لا شيء يؤسف له أشدّ من أن يفتقد الإنسان عقله وإدراكه الصحيح والنزيه بمئات الليترات من المشروبات الكحولية، بل الملايين منها، وبذلك ينحرف عن مسيرة التكامل الإلّهي في العالم، ولا ينبغي لنا أن نتوقّع

السعادة العامة لمجتمع يفتقد عقله وإدراكه باستعماله للمشروبات الكحولية أي انّه يفتقد بها المائز الوحيد لإنسانيته عن الحيوانية!

إنّ المشرّع الإسلامي صاحب النظرة الصائبة فيما يصلح للبشرية قد حرّم شرب المسكّرات التي تخمّر العقل وتستره وتسكّر عليه بابه، منع ذلك منعاً شديداً ليست فيه رخصة ولا لشرب قطرة منها.

استعيدوا النظرة إلى المجتمع الذي بدأ فيه الإسلام بتحريم شرب الخمر قبل أربعة عشر قرناً والذي كان الجهل والفساد قد أوغل مخالبه في أفكارهم وأرواحهم، وكان يسود فيهم البؤس والتعاسة والشقاء والغرور وإرادة الشر والضلال والضياع، وفي هكذا جوّ وبيئة قام رجل إلّهي وأقام قواعد سعادة البشر على أساس الإيمان والتقوى، وهدى الناس الى مهيع الحياة ومنهجها اللاحب بأوامره الكريمة والعميقة الغور.

وإن توفيق الإسلام في تنفيذ حكم التحريم والمؤدي إلى ترك هذه العادة العامة من قبل العموم كان توفيقاً غريباً للغاية. وان كان الإسلام قد سلك الى اجتثاث هذه العادة سبيل المداراة والتدرج، ولاول مرة انّما أشار إشارة إجمالية مبهمة الى مفاسدها الفردية والاجتماعية وأطلق على ذلك عنوان الإثم فقال: «يسألونك عن ٱلخمر وٱلميسر، قل: فيهما إثم كبير ومنافع للناس، واثمهما أكبر من نفعهما»[1].

ولكنّه في المرة الاخيرة ذكّر بمفاسدها وأضرارها بشكل صريح وأصدر حكمه الحاسم بالتحريم: «إنّما يريد ٱلشّيطان أن يوقع بينكم ٱلعداوة وٱلبغضاء في ٱلخمر وٱلميسر، ويصُدّكم عن ذكر ٱللّه وعن ٱلصّلاة، فهل أنتم منتهون»[2].

وحينما نزلت هذه الآية كان عدد من المسلمين مشتغلين بالخمرة، وبعد سماعهم لهذا الحكم الحاسم أراقوا خمورهم وكسّروا أوانيهم.

وقد نُفّذ هذا القانون من قبل المسلمين بحيث كانت الاراضي والمدن المفتوحة بأيديهم ترفع فيها موائد الخمور وتمنع في فترة قصيرة. وفي هذا العصر أيضاً مع ما تغلغل

---

(١) سورة الاعراف: ٣٣.

(٢) سورة المائدة: ٩١.

من أنواع المفاسد والضلال والتي هي هدية الحضارة الحديثة بين صفوف المسلمين، مع ذلك يوجد ملايين منهم في نواحي العالم لا يلوّثون شفاههم بالخمرة حتى الدقائق الاخيرة من حياتهم، بل وحتى لا يتصورون ذلک لانفسهم أبداً قط.

أما القانون الوضعي البشريّ فمن نقائصه أنه يتلوّن بتلوّن الإنسان، وبتلوّن القانون تتلون حياة البشر وتصبح معرضاً لتغيّرات وتطوّرات أُخرى كثيرة، لاحظوا هاتين التجربتين: تجربة نزول آية تحريم الخمر بين المسلمين في الصدر الاول، والتجربة الامريكية إذ أرادت أمريكا أن تحمل الناس على ترک هذه العادة المضرة التي هي منبع كبير للضلال والشقاء، وأن تصلح أخلاق المجتمع بوضع قانون لتحريم المسكرات وتنفيذه بالقوة.

قبل أن يلحق الامريكان المادة الثامنة عشر الاصلاحية بالدستور الامريكي بدأت دعايات واسعة وطويلة الامد من قبل جمع من الناس الخيّريين من المجتمع الامريكي، ضد شرب الخمرة في تلک البلاد، إنّهم وفي مدة عشرة أعوام ذكّروا الناس بالمفاسد والاضرار الروحية والجسمية والاخلاقية والاقتصادية للمشروبات الكحولية، من خلال تأليف الكتب وطبعها ونشرها، وبثّ مختلف الافلام عن الحياة المنكوبة للكحوليّين المُدمنين، وإيراد الخطابات العامة، وبسعي لا يعرف الاعياء حذّروا شعب أمريكا من إدمان الخمرة.

بدأت هذه الدّعايات منذ سنة ١٩٢٥ حتى سنة ١٩٣٣م وصُرف عليها خمس وستون ميليون دولاراً، ثم قدّم المشروع إلى مجلس الكونجرس الامريكي، وبعد ملاحظة الموضوع ومنافعه ومضاره بدقة صودق على المشروع في الكونجرس ومجلس الشيوخ الامريكي.

وفي فترة أكثر من عشر سنين بقليل تبدّل الناس عن آرائهم السابقة الى الاشتياق الى المشروبات الكحولية، وعلى أثر ذلک دارت و شاعت البارات السرّية، وكانت تُباع فيها أكثر المشروبات ضرراً، وللفرار عن العقوبات القانونية أقدموا على البيع والشراء بمختلف السبل والوسائل، وزادت مراكز بيع المشروب غير القانوني حتى بلغت أضعاف عددها السابق، فقبل الاقتراع والتصويب على هذا القانون كان عدد مصانع المشروبات في حدود الاربعمئة وبعد سبعة أعوام من التحريم تكاثرت المعامل حتى بلغت ثمانين ألفاً، وشاع الأمر حتى شمل اليافعين واليافعات، وأصبح عدد من الباعة المتجوّلين يرتادون البيوت والمنتزهات والفنادق والهوتيلات وحتى الثانويات والجامعات، وتدرّج هذا الشراب الممنوع حتى شمل القرى

والارياف، وتصاعدت أرقام الجرائم والجنايات، ووفقاً لاحصاء ديوان القضاء الامريكي قتل قرابة مئتين شخصاً في سبيل تنفيذ هذا القانون، وصودرت من الاموال أربعمئة مليون دولاراً، وأُخذ من المتخلّفين مليوناً ونصف المليون دولاراً من الغرامات. وزادت الجرائم بين الاطفال حتى أعلن قضاة أمريكا: أنه لم يكن من المعهود سابقاً أن يقبض على هذا العدد من الاطفال في حال السكر، فوفقاً لتقرير الشرطة زاد شرب الخمر والسكر بين الشباب حتى بلغ عدد المدمنين منهم إلى ثلاثة أضعاف ما قبل التحريم منذ سنة ١٩٢٠ حتى ثمان سنين فحسب.
وتصاعد عدد الوفيات على أثر صرف المشروبات الكحولية: ففي سنة ١٩١٨م كان عدد المصابين بأمراض الكحول في نيويورك يصل إلى ٣٧٤١ والمتوفين بها ٢٥٢، وفي سنة ١٩٢٧ أي بعد التحريم بثمان سنين، وصل عدد المرضى بآثار شرب المشروبات الكحولية إلى أكثر من أحد عشر ألفاً، والمتوفين بها إلى سبعة آلآف وخمسمئة شخصاً.

و على أثر كل هذه الخسائر التي تحمّلتها أمريكا في الأموال و الأرواح على أثر تنفيذ قانون تحريم المسكرات انهزمت الدولة وتراجعت في هذا القانون، فسمحت في أبريل سنة ١٩٣٣ بصرف المشروبات التي نسبة كحولها أقل من ٣٣٪ وفي أوائل ديسمبر من نفس السنة صدر إعلان رسمي أُلغيت بموجبه المادة الثامنة عشر الاصلاحية من الدستور الامريكي القاضية بتحريم المشروبات الكحولية! وعاد شعب العالم المتحضّر الى شرب الخمرة بحرية بعد أن تألّموا من تحمّل قانون تحريمه أربع عشرة سنة تقريباً.

و في بريطانيا أيضاً على أثر زيادة احتساء المشروبات الكحولية زيادة مدهشة، زاد زعماء الوقت في وضع الضرائب الثقيلة عليها وصوّتوا عليه في البرلمان الإنجليزي بهدف تقليل شرب الكحول، وبعد التصويت عليه هاج الشعب الإنجليزي وعطّلوا الاسواق والمؤسسات اعتراضاً على القانون وإضراباً ضدّه، فاضطرت الدولة أن تصرف النظر عن قرارها بتنفيذ القانون الى تجميده رأساً.

هذا التضاد في وضع القوانين نتيجة لتضاد مصالح المجتمع مع ميوله وأهوائه.

وفي الإسلام إنّما يُنظر الى سلامة المجتمع وسعادته ثم لا يُلتفت الى مشتهياتهم وأهوائهم بأيّ وجه كان أبداً قط.

وكلّما توسّع العلم وأُجريت تجارب ودراسات أكثر تبيّنت المضار المختلفة للكحول

أكثر، ففضلًا عن الفساد وسفك الدماء والخسارات الاجتماعية والخلافات الاسرية والعائلية التي توجبها الكحول، لا تنكر صدماتها الفتاكة على هيكل السلامة الإنسانية في مجال الطب والصحة.

ومع ملايين الكتب وآلاف المجلات الاختصاصية التي انتشرت بمختلف اللغات في أضرار الكحول منذ قرنين من الزمان، وما قاموا به من نشاطات ملفتة للنظر للحدّ من شربه ومنعه، مع كل ذلك...فانّ كل تلك المحاولات لا يمكن قياسها مع النتيجة التي حصل عليها الإسلام بحكم بالتحريم الحاسم، أما هؤلاء فلم يقدروا على مثل ذلك حتى في بلد واحد من باب النموذج.

وأمّا في الإسلام فلم ينعقد لذلك مجلس ولا محفل، ولم يقوموا لذلك بتبليغات ودعايات ضدّ المسكرات، ولم يصرف الإسلام لتنفيذ قانونه بالمنع ديناراً واحداً، وانّما أعلن رسول الله صلّى الله عليه وآله للمسلمين أن الله قد حرّم الخمر، وحينما أبلغ هذا الحكم للناس لم يكن للعرب أية لذّة أحبّ من شرب الخمر، وكان الخمر رائجاً بين كل المجتمعات يومئذٍ ما عدا اليهود فقط. ولم يكن نداء الرسول صلّى الله عليه وآله قد انتهى حتى ترك المسلمون الخمرة وودّعوها للابد.

إن من احدى المميّزات الكبرى للقوانين الآلهية على القوانين الوضعية البشرية أن المنظّمات التشريعية البشرية لا تعير أهمية ولا تفتح حساباً للعواطف والاحاسيس الإنسانية، وليس لهم سبيل لدعوة الناس الى رعاية القانون والعمل وفق القرارات القانونية.

وإنما يمتنع الناس عن كسر طوق القانون والتعدّي عن حدود القرارات القانونية خوف العقوبة والابتلاء في مخالب الاجهزة القضائية والجنائية بينما يعتمد المبدأ الإلّهي على العواطف الإنسانية، وهو في الدرجة الاولى يطلب من الناس العمل بالقوانين استناداً الى الصفات الإنسانية السامية ويفيد من جميع القوى والعواطف الإنسانية في سبيل العمل بالقرار الشرعي.

إن الناس يستوحشون من القانون والعقوبات القانونية، ولكن لهم مكامن لا ينفذ إليها القانون أبداً قطّ. والإنسان يتابع اللّذة طبعاً ولا ينصرف عنها لخاطر الدولة فقط. بل يحاول بكل قواه أن يُروي عطش مشتهياته في خُفية عن القانون.

لو تصدّت الدولة لتعقيب الجرائم اللاّأخلاقية حسب القوانين العرفية فانّها لا تقدر على

المنع من وقوع الجرائم كليّةً وأن تعقّب كل المجرمين، بل يبقى كثير من الجرائم لا يمكن إثباتها ويبقى مجرموها بلا عقوبة.

ما لم تقم في باطن نفوس الناس محكمة، ولم يتوفّر فيهم ما يحدّد فيهم ميولهم وشهواتهم فآن كلّ خطوة الى الإصلاح ستبوء بالفشل والهزيمة.

ولو آمن الناس بالله وخافوا من عقوبة تلك القدرة الخالدة الخالقة لنظام الوجود والنافذة في جميع شؤون السموات والارضين، فالى أين يفرّون ؟ وأيّ مكمن يخفيهم عنه ؟!

ولذلك فلا ضمان لامتناع الناس عن القيام بكثير من الجرائم إلّا الارتباط بالله تعالى.

فبالإيمان بالله تكتمل صورة الحياة، إذ حينما يعتقد الإنسان أنه لا ينتهي كل شيء بانتهاء هذه الحياة عندئذ يجد طمأنينة خاصة في نفسه، وسيخطو في حياته باعتدال.

أضف الى ذلك أن القانون الإلّهي سيهب الإنسان دستوراً ثابتاً للحياة لا يتزلزل، ولا يتلوّن، وهو بعيد عن أمواج التغيرات والتطوّرات، فلا يمكن للشيء الذي كان حراماً وممنوعاً بالامس أن يصبح اليوم لا مانع منه، فهي قوانين وضعت على أساس النظرة الواقعية ولا هدف منها سوى تنفيذ الحقّ، والحقّ أمر ثابت بعيد عن التحوّل والتزلزل. ولذلك فالقوانين والقرارات التي تحاول إبزار الحقّ ينبغي أن تكون ثابتة باقية خالدة، وليس لإرادة الناس وميولهم أن تتدخل فيها أو أن تتجاوزها وتتعداها.

العالم المتحضّر اليوم يفخر بأنه ضمن حرّية الإرادة لافراد الإنسان، وأنه جعل «سيادة الإرادة الوطنية» أصلًا ثابتاً ومقدّساً في تشريع القوانين.

وعند تحليل هذه الدعوى تبيّن أنّ سيادة لإرادة الاكثرية تستلزم محكومية الإرادة وسلب الحرية عن الاقيلية (تأمّل[1]).

مثلًا لو أراد الأكثرية (واحد وخمسون بالمئة) تشريع قانون لا توافق عليه الأقلّية (تسع وأربعون بالمئة) فانّ القانون سينفّذ وفقاً لنظر الاكثرية، وعلى الاقلية أن تقبل بنظر الاكثرية وتخضع لها. وبديهي أنّ هذا تحمّل إضطراري لا ترضى به الاقلّية أبداً.

---

(١) إنّما يتكلّم المؤلف عن مقارنة الدستور الإلّهي بالدساتير الوضعية، أما القوانين العادية في منطقة الفراغ عن النصوص والاحكام الشرعية فلا مانع من أن تكون على نظر الاكثرية ـ المترجم.

والآن لنلاحظ أليست الاقلية من البشرية حتى تمنع عن حق الحرية في الرأي، ولا يكون لرأيها أية قيمة أو اعتبار؟! أليست حقيقة العبودية سوى حرمان العبد عن حق الرأي؟! أليس حمل إرادة الاكثرية على إرادة الاقلية رقيّة جمع بأيدي جمع آخر؟

إذن ففي حقيقة هذه الحرية عبودية ورقّيّة!

أما في القوانين الإلٓهيّة: فهي تحرّر البشر عن رقيّة أبناء جنسه وعن عبوديتهم، فلا معنى هناك لإرادة الاكثرية والاقلية، بل بُنيت هذه القوانين على أساس المصالح العامة ولصالح العموم، والهدف منها ضمان سعادة المجتمع البشري.

حسب عقيدة الشخص المتدين حيث أن المشرّع المطلق هو الله تعالى، وهو يؤمن أن إطاعة تلك القوانين إنّما هي في مسار منافع العموم ومصالحها وخيرها، فهو يراقب أعماله لكي يبقى دائماً في إطار طاعة الله والقرارات الإلٓهيّة، ولا يقترب الحدود الممنوعة في الظاهر والباطن من دون أن تكون هناك قوة قاهرة تراقبه من قريب.

إن التجارب المكررة بشأن القوانين الوضعية البشرية تثبت أن هكذا قوانين نشأت من فكر البشر لا تقدر أن تحدث في وجود الإنسان الدافع الاخلاقي فتنصره على شهواته وميوله غير الصحيحة. إن دنيا البشرية مهما تقدمت في فنونها وعلومها ومهما ارتفع مستوى أفكار الامم والشعوب، فانّهم لا يزالون أُسراء تحت مخالب شياطين الاهواء. وإنّما يمكن النجاة من قيود الميول والشهوات والامتناع عن القبائح والارجاس، في ظلال الإيمان بالله والخضوع للقوانين الإلٓهيّة. وإن التجربة البشرية في طوال القرون المتمادية قد اثبتت حقيقة هي: أنه إما أن يتّجه الإنسان الى هداية الله، أو أن يتورط في بحر الشهوات والميول المختلفة والمتنوعة.

وهنا ننقل مقاطع من اعترافات عدد من العلماء غير المسلمين بشأن قيمة قانون تحريم المسكرات: قال العلّامة الإنجليزي «بنتام» في كتاب «أصول الشرائع» ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا، تحت عنوان «الجرائم الشخصية» ما نصّه:

«النبيذ في الاقاليم الشمالية يجعل الإنسان كالابله، وفي الاقاليم الجنوبية يُصيّره كالمجنون، ففي الاول يكتفى بمعاقبة الاوّل على السكر كعمل وحشي، وفي الثانية يجب منع ذلك بطرق أشد. وقد حرّمت ديانة محمّد صلّى الله عليه وآله جميع المشروبات، وهذه

من محاسنها»[1].

ويقول فولتير: «إنّ دين محمّد(ص) دين معقول وجدّي وطاهر ومحبّ للإنسانية. معقول لانه لم يتلوث بجنون الشرك والوثنية، ولم يجعل لله شريكاً ولا شبيهاً، ولم يبن أُصوله على أُسس أسرار متناقضة بعيدة عن العقل. وجدّي لانه حرّم القمار والخمر وسائر وسائل اللهو واللعب، وأقر بمكانهن خمس صلوات في اليوم والليلة، وطاهر ونزيه لأنّه حدّد عدد النساء اللواتي كنّ يرتمين على فرش شيوخ آسيا في أربعة فقط. ومحبّ للإنسانية لأنّه جعل الزّكاة ومعونة الآخرين أفضل من الحجّ، وهذا كله من ملامح حقيقة الإسلام»[2].

ويقول المسيو «جول لابوم»: «كان العرب يفرطون في شرب الخمر ويتباهون بلعب القمار، وكان الرجل يتزَوّج ما شاء من النساء ويطلّق متى ما شاء، وكنّ – النساء – يُحسبن من تركة الرجل وبعد موته يتزوجُهنّ أبناؤه من سواها. والإسلام نسخ كل ذلک»[3].

ويقول البروفيسور «ادوارد مونته»: «إن القرآن منع من التقرب بضحية الإنسان، ومن قتل البنات، واستعمال المسكرات، ولعب القمار الذي كان متداولاً بين العرب. والتقدّم الذي حصل للبشرية نتيجة لهذه الاصلاحات كان من الكبر والعظمة بحيث جعل محمّداً(ص) من أكبر مريدي الخير للبشرية»[4].

---

(١) تفسير الجواهر للجوهري الطنطاوي ١: ١٩٦.

(٢) بالفارسية: اسلام از نظر وولتر.

(٣) عن دائرة معارف القرن العشرين.

(٤) بالفارسية: أفكار وعقائد.

الاسلام وانواع التمايز

كما أن المسائل العقائدية والفكرية في الإسلام بُنيت على أساس التوحيد، كذلك يشكّل التوحيد البنية التحتية للمجتمع الإسلامي، فالإنسانية في نظر الإسلام وحدة كبرى وكل البشر أعضاء مجتمع واحد. وعلى أساس تطوير فكري واسع يمكن نفي جميع عوامل التشتّت والاختلاف والتفرقة بين البشر في هذا المجتمع الكبير، فانّ هناك أواصر أخوّة إنسانية وروابط ألفة وعاطفة تربط بين جميع أفراد البشر على كثرتهم.

وحيث أن الإسلام تقدم بأطروحة المجتمع الإنساني الواحد على مقياس عالمي، لذلك لم يفتح أيّ حساب ولم يُعر أيّة أهمية لأمور تشكل قومية خاصة وتسبّب في انفصال البشر وتمايز بعضهم عن بعض، من مثل: اللغة والعنصر والوحدة الثقافية والاشتراك في الآداب والعادات والمراسيم والتقاليد والطقوس، بل وصف هذه الأمور بأنها عوامل تخلّ بوحدة المجتمع وتسبّب انفصال بعضه عن بعض، وإنّ أول أساس للتعاون بين الافراد والاحترام المتبادل فيما بينهم، والذي ينبغي أن يسود المجتمع الإسلامي العالمي بل وبين كل أفراد الإنسان ومختلف فرقه، ينبع من هذا النبع الصافي، والإسلام يبني مجتمعه العالمي على مثل هذا الاساس بنظرة واقعية،ولكي ينكر ويشجب جميع أنواع التمايز، ويؤكد على أن لا فضل لايّ فرد على آخر بلونه أو نسبه أو عنصره أو لغته، ركّز على أنّ جميع أفراد البشرد خلقوا من عرق واحد، وأن الرجل والمرأة، والابيض والاسود، والفقير والغني، والمتحضّر والوحشي يشتركون في المميزات الإنسانية الاصيلة، وأن الوحدة تسودهم بالنظر الى خلقتهم، وأنهم

يرجعون الى أصل واحد: «يا أيها آلنّاس اتّقوا ربّكم آلّذي خلقكم من نفس واحدة»[1] وهكذا جعل «القومية»: «الناسيوناليزم» القوميّ والوطنيّ شيئاً موهوماً وأنهى كلّ تفوّق عنصري، وأبطل كل فخر باللون أو اللغة، وكذلك سائر المميزات التي لا أساس لها في أصل الخليقة.

إن الإسلام عدّ اختلاف الالوان والالسن من سمات قدرة الخالق جلّ وعلا، و دعى الناس إلى دراسة هذا الموضوع والدقة في أن البشر الذين وجدوا من عنصر واحد وعرق واحد كيف تنوعت ألوانهم وصورهم وأصبحوا يتكلّمون بألسنة مختلفة، نتيجة سلسلة من العوامل الطبيعية والتكوينية:«ومن آياته خلق آلسماوات وآلارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن في ذلك لآيات لقوم يعملون»[2] و«كان آلنّاس أمة واحدة فبعث آللّه النبيّين مبشّرين ومنذرين»[3].

وقد صرّحت هذه الآية بنقطة أن الفواصل والتفرقة الموجودة لم تكن موجودة في المجتمع البشريّ، بل كانوا يتمتّعون بوحدة وتعاون تام.

وقد ذكّر الإمام علي عليه السلام بهذه الحقيقة في عهده التاريخي خطاباً الى «مالك بن الاشتر النخعي»:

«وأشعِر قلبَكَ الرحمةَ للرّعيّة والمحبّة لهم واللطف بهم، ولا تكوننّ عليهم سبُعاً ضارياً تغتنم اكلَهم، فانّهم صنفان: إما أخٌ لك في الدّين، أو نظير لك في الخلق»[4].

وبهذه الرؤية الواسعة يُعتبر مختلف العناصر من أعضاء المجتمع عند الإسلام بمختلف ألسنتهم وثقافاتهم.

ثم إن اتّحاد الافراد في ظل الوحدة الفكرية والروحية والعقيدية وفي الاهداف سيبقى – هذا الاتّحاد – ثابتاً، بل لا تبقى أيّة وحدة ثابتة ومنتظمة إلّا في ظلال العقيدة. فلو كان مجتمع ما فاقداً للمحور الفكري والعقائدي كانت روابط ألفتهم هيّنة متزلزلة، فعند التناقص

---

(١) سورة النّساء: ١.

(٢) سورة الرّوم: ٢٢.

(٣) سورة البقرة: ٢١٣.

(٤) نهج البلاغة: ٤٢٧، ط. صبحي الصالح.

مع المنافع المادية ستتبدل تلك الوحدة - لو كانت - الى اختلاف أو نفاق. وعليه فانّ أقوى وأثبت الروابط بين الأمم والشعوب هي الرابطة الدينية والمذهبية، والتي تربط مختلف الطبقات والعناصر والقوميات بعضهم ببعض على أحسن الوجوه.

وإنّ الإسلام قد ضمن ترابط جميع أفراد البشر بهذه الوسيلة الفكرية، وبذلک قد كسّر أغلال الاختلالات والاختلافات وأيّ تشتّت وتفرّق، وفي دعوته الى توطيد أسس الوحدة دعا أفراد المجتمع المؤمن إخوة لدين واحد، وانّ رابطة الأخوة من أوثق الروابط بين أفراد البشر وأكثرها طبيعيةً، ورابطة الابوة والبنوة وإن كانت أقوى من رابطة الاخوة لكن لا مساواة بينهما بالنظر الى مراتب الاكرام والشخصية.

إذن فرابطة الأخوة مظهر كامل للعلاقة القلبية الشديدة بين فردين من البشر، يعيشون في مستوى وأُفق واحد تقريباً. ولهذا فالقرآن في دعوته هذه يريد أن يثبّت أسمى مراتب المحبة المتبادلة بين المسلمين ولذلک فهو يدعوهم اخوة بعضهم لبعض، وبهذا التعبير يكون قد هدى أفراد المجتمع الإسلامي الى ألطف صداقة وأجمل صورةٍ للمساواة بينهم.

وليست هذه الأخوة الدينية والمذهبية عنواناً تشريفياً، بل إنّ الهدف من تشريع هذا العنوان هو أن يقبل كل مسلم على القيام بتكاليف الاخوة بالنسبة الى إخوته في الدين.

لا ريب في أن العقيدة هي أغلى وأحبّ شيء عند المعتقد بها،فهذاالترابط بين أفراد المسلمين الذي ينبع من الوحدة الروحية والعقيدية عندهم هو أعلى وأعمق حتى من الأخوة الطبيعية لديهم. حينما يشترک شخصان في هدف واحد وتسودهما الوحدة الفكرية فانّهما سوف يكونان أقرب من الأخوة في النسب بعضهم لبعض، فان أقرب القرب هو قرب القلوب.

«إنّما ٱلمؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم، وٱتّقوا ٱللّه لعلّكم تُرحمون»[1].

وروى عن النبيّ صلّى اللّه عليه وآله قال: «إنّما المؤمنون في تراحمهم وتعاطفهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمّى والسهر»[2].

---

(١) سورة الحجرات: ١٠.

(٢) سفينة البحار ١: ١٣.

إن الإسلام دين الحرية والعدالة، الحرية عن سلطة الظالمين الجبارين الذين يستخدمون القوى الفتالة البشرية في سبيل غرورهم وأغراضهم الشخصية، ويذهبون بشرفهم وماء وجوههم وأموالهم وأنفسهم ويجعلونهم عبيداً يخضعون لميولهم اجباراً وصغاراً. وفي الانظمة الاستبدادية والديكتاتورية والرأسمالية والعمالية «البروليتارية» يحمّلون الناس هكذا عبودية، ويحملون المجتمع قهراً على التبعية من القوانين والمقررات المخالفة للحق والعدالة.

والإسلام إذ يحصر شؤون القدرة في ذات الله المقدسة، يحرّر الناس من قيد أسر الطغاة الجبّارين، وعن رقّ العبودية، كي يتمكنّوا من أن يصلوا الى الحرية الواقعية، تلك الحرية المطلقة التي لا يجدِونها في ظلّ أي نظام سواه.

إن الإسلام يريد أن يُشعر البشر في قرارة نفسه بشرف الإنسانية، ولا يتحقق هذا الاحساس إلّا في ظلّ تساوي جميع أفراد المجتمع في مقام العبودية لله تعالى، إذ لا يتمكّن أحد من أن يجعل أفراد المجتمع يخضعون لإرادته ويطيعونها مكرهين، وأن يتظاهر أمام الآخرين وكأنه أرفع منهم ويتولّى شؤونهم بغير رضىً منهم.

إن الإسلام اعتبر القيم الإنسانية، وإن هدفه الاوسع هو الحفاظ على الحقوق الطبيعية للبشر وتثبيت العدل في كل شؤون الحياة الفردية والاجتماعية، إن القانون في المجتمع الإسلامي قد ضمن أسمى تساوٍ لعامّة الناس، فالكلّ سواسية أمام قانونه.

لو كان الإسلام يركز على العنصر أو القومية أو الوطنية أو على عنصر خاص لم يكن ينال كل هذا التقدّم المشرق والمدهش، وإن هذه الميزة هي رمز هذا التقدّم السريع لهذا الدين حيث نفذ في فترة أقل من قرن من الزمان في أكثر نقاط العالَم يومئذٍ، وفي جميع النقاط واجهه الناس كحركة معنوية باستقبال حارّ، واتّجهت إليه القوميات والأمم والشعوب المختلفة اتّجاهاً خاصاً.

والتاريخ يُبدي لنا بوضوح أن هناك في كل عصر عقائد وأفكار موهومة ولا أساس لها، يمكن أن نعدّ من أعمقها وأهمّها التفوّق العنصري، والقومية، وسوء الفهم للعقائد الدينية والاحاسيس المذهبية، كانت تمنع عن تحقق الوحدة بين المجتمعات الإنسانية وكانت دائماً تُشعل نيران الحروب بين مختلف الفرق البشرية، وكان لها دور مهم في تأجيج المنازعات والمماطلات الواسعة المتطاولة دائماً.

والإسلام قبل أن يُعير أهمية لعوامل الخلاف بين المجتمع اعتبر عوامل الوحدة في الإنسانية والإيمان أصلًا، فهو يقول لليهودي والمجوسي والنصراني: «قل: يا أهل ٱلكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: أن لا نعبد إلّا ٱللّه ولا نشرك به شيئاً، ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون اللّه»[1].

واليوم على الامم والشعوب التي تريد الوحدة والعدالة والتحرّر من يد المستعمر، والانطلاق من ضغط التمييز العنصري وغيره، أن تبحث عن أُمنياتها في ظل أنظمة الإسلام. ففي ظل الإسلام تتحقق وحدة الأُمم ومساواة أفراد البشر، وبإمكان الفرق والعناصر البشرية البيضاء والسوداء والصفراء والحمراء أن تعيش في مساواة الإنسانية وبحرّية تامّة.

إن التفاضل بين الناس في نظر الإسلام إنما يبتنى على عمادين أساسيين هما: العلم والعمل، وإنما يدور الامتياز بينهم فيه حول محور الفضائل الاخلاقية وطهارة الروح. إن الإسلام أقرّ قاعدة الشرف والشخصية على أساس التقوى والخوف من اللّه تعالى، ولم يعترف لاحد بأيّة فضيلة أو مزيّة عداه: «إن أكرمكم عند ٱللّه أتقاكم»[2].

وأعلن الرسول الاكرم صلّى اللّه عليه وآله بصراحة تامّة يقول: «ألا لا فضل لعربيّ على أعجمي ولا لابيض على أسود إلا بالتقوى».

وحينما فتح رسول الإسلام مكة خاطب جماعة المتكبرين الذين كانوا يفخرون ويتمايزون باللغة والعنصر، فقال لهم: «الحمد للّه الذي أذهب عنكم نخوة الجاهلية وكِبرها» .

وقال رجل للرّضا عليه السلام: «واللّه ما على وجه الارض رجل أشرف منك آباءً. فقال عليه السلام: التقوى شرّفهم وطاعة اللّه أحاطتهم»[3].

كان هذا الرجل يريد القول بالتفضيل بالنَسَب للإمام، ولكنّ الإمام أنكر ذلك وذكّره بفضيلة التقوى في الإسلام.

---

(١) سورة آل عِمْران : ٦٤.

(٢) سورة الحجرات: ١٣.

(٣) تفسير البرهان ٤: ٢١١.

وقال له آخر: «أنت والله خير الناس» فقال عليه السلام: «لا تحلف يا هذا، خيرٌ مني من كان أتقى لله تعالى وأطوع له، والله ما نُسخت هذه الآية: «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم»[1].

والتقوى حرية وليست رقيّة أو عبودية، فان ذلك يحرّم على الإنسان موهبة السعادة بينما التقوى درع الروح وصون للإنسان ويمنحه الحريّة المعنوية التي تحرّره من قيود رقّية الهوى، ويضع عن رقبته أغلال الشهوة والغضب والحرص والطمع. والتقوى في الحياة الاجتماعية أيضاً تمنح الفرد حرية فيه، فالمتقيّد بقيد رقيّة المال والجاه لا حرية له في حياته في المجتمع أيضاً.

ويقول مولى المتقين علي عليه السلام: «فانّ تقوى الله مفتاح سداد وذخيرة معاد، وعتق من كل ملكة ونجاة من كل هلكة، بها ينجح الطالب وينجو الهارب وتنال الرغائب»[2].

في ذلك العالَم المظلم الذي كان فيه التنازع الطبقي والعنصريّ قائماً على أشدّه بين الناس، وكانت الامتيازات المضادة للعقل والفضيلة والحرية رائجة شائعة بمقياس واسع، وفي أيام كان فيها الضعفاء والفقراء محرومين عن جميع حقوقهم الفردية والاجتماعية وكان عامة الناس فيها يتخبطون تحت مخالب الاشراف والامراء الدمويّين...في تلك الايام ألغى قائد الإسلام العظيم وبشهامة لا نظير لها كل الامتيازات الموهومة والسنن الخاطئة، وأعلن المساواة التامّة لجميع الافراد، وأعاد للناس حريتهم المطلقة والمعقولة في ظلّ عبودية الله سبحانه وتعالى، حتى تأيدت في ظلّ قوانين الإسلام العادلة تلك الطبقات الفقيرة والمحرومة في المجتمع والذين لم تكن لهم جرأة على أيّ ردّ فعل أمام إرادة الكبراء والاشراف المترفين، حتى أصبحوا يتماشون مع أولئك الرؤساء والكبراء جنباً الى جنب.

أما الذين يتصورون أن سائر المدارس والمبادئ الاجتماعية تستطيع أن تدافع عن المعذّبين والمحرومين والمظلومين في المجتمع البشري – كما فعل الإسلام – وتجعلهم يكافحون الطغاة والبغاة والظالمين والجبارين...هؤلاء في وهم فاضح، وإنّما لم يدركوا من

---

(١) تفسير البرهان ٤: ٢١١.

(٢) نهج البلاغة: ٣٥١، ط. صبحي الصالح.

الإسلام شيئاً.

حقاً إن الاسلام قد أحدث أكمل صورة من العدالة الاجتماعية وأكثرها إنسانية، بحيث لم يقدر أي نظام أو مبدأ اجتماعي على أن يقوم بمثله، وحتى أن الشيوعيين أعداء الدين يعترفون بالدور الاساس والمؤثر لتعاليم الإسلام في تحرير الشعوب وإنقاذ الامم، بصراحة تامّة.

فقد كتبت مجلة حزب توده الإيراني تقول: «إن ظاهرة الإسلام في أوائل القرن السابع الميلادي من الوقائع التاريخية الاساسية التي غيّرت صورة الحضارة البشرية، وتركت آثاراً عميقة في مسيرة التطوّر لما بعدها. إن هذه الواقعة العظمى أي ظهور الإسلام الذي اتّسعت فتوحاته في أقل من قرن حتى ساحل السند وجيحون من جانب والى ساحل «لوآر» من جانب آخر، تملأ باباً آخر غريباً من كتاب حياة البشرية.

لقد كانت في جزيرة العرب مراكز أُخرى لنشر العقائد الدينية اليهودية أو المسيحية، وكان عرب مكة وقبائلها وثنيين، ومكّة مركز تجارتها واستغلال المرابين بها، ومركز الشعور القومي العربي(؟!) ومركز تضارب الاديان المختلفة وتطور النظام القبلي الى النظام الاقطاعي الفئودالي(؟!).

وانتشر الإسلام في البداية بين صغار الكسبة والفلاحين والعبيد، وكان يشكّل حركة ديمقراطية ضدّ استغلال الربويّين الكبار، ولهذا اضطر الى ترك مكّة الى المدينة.

إن دين الإسلام كان يحتوي من ناحية على خصائص سائر الاديان أيضاً، ولكنه من جانب آخر كانت فيه جوانب حيويّة ومادّية، فاجتنابه عن الرهبنة، وآتجاهه إلى التساوي بين العناصر والقبائل، والتساوي النسبي بين حقوق الرجل والمرأة، ودفاعه عن العبيد والفقراء وأبناء السبيل، وسذاجة أصوله وبساطتها، كل ذلك من مميّزاته عن سائر الاديان، والتي تمنحه عنوان نهضة اجتماعية متحركة وحيوية.

نزل الاسلام على رأس الحكام الدّمويّين والمغرورين كأقوى ضربة دامغة، وتلقاه الفلّاحون وصغار الكسبة والتجار المدنيين كرحمة وإنقاذ. وأورد الإسلام ضربته القوية في فرصة مناسبة على الجسد العظيم ولكنه الواهي للامبراطوريتين، فسقطتا من تلك الضربة

القاضية، ثم شكّل هو امبراطورية عظمى من حدود الصين حتى حدود إسبانيا والاندلس»[1].

وحينما بلغ علياً عليه السلام تقرير بأن أغنياء البصرة قد رتّبوا لعامله عليها «عثمان بن حنيف» مجلس ضيافة لتكريمه، ثقل عليه (عليه السلام) أن يتوثق بين عامله وبين طبقة الاشراف في المدينة علاقات خاصة تستتبع احرازهم لامتيازات خاصة تزيد في قدرتهم. ولذلك كتب إليه كتاباً اعترض فيه عليه ولامه بشدة[2].

إن الإسلام في كفاحه ضدّ التمييز العنصري من أكثر مبادئ العالم تقدمية. واليوم وإن كان نداء التساوي القانوني بين البيض والسود نداءً مرتفعاً في كافة أنحاء العالَم، ولكن بين القول والعمل فواصل كثيرة، والتمييز بمختلف أشكاله وصوره قائم على قدم وساق كما كان في العصور المظلمة، فما فائدة كل هذه العناوين الخدّاعة بالمساواة والحرية وخلفها يختفي الواقع المُرّ، وهل لنا مع كل هذه الفجائع والامتيازات الجائرة أن نصف الامم المتحضرة اليوم بأنها تنادي للحرية حقاً ؟!

إن «إعلان حقوق الإنسان» الذي صودق عليه بعد الثورة الفرنسية، وإعلان حقوق الحرية والمساواة، الذي صادق عليه جميع الدول المقتدرة، إنّما يُنَفّذ ما يوافق منها مع مصالحهم ومنافعهم الخاصة ومع ميولهم وأهوائهم، وإلّا فانهم سوف يتخلّون عنهما بمختلف الحجج والمعاذير.

لا يزال من المشكل أن يدرك كثير من شعوب الدول المتحضّرة أن اختلاف الالوان والعناصر لا يشكل فضلًا وتفوقاً. ولم يشكل «التمييز العنصريّ» في طول تاريخ الإسلام مسألة أو مشكلة، وما زال ولا يزال السود أو الملوّنون يشتركون في أيّ مجتمع أو مجمع اجتماعي إسلامي ديني من دون أيّ شعور مزاحم، وهم يتمتّعون بكافة الحقوق في جميع الشؤون الاجتماعية.

إن قائد الإسلام العظيم الرسول الاكرم صلّى الله عليه وآله قد أبدى هذه المساواة عملياً في ذلك العالَم المظلم قبل أربعة عشر قرناً، ومن أجل تحقيق ذلك عملياً زوّج ابنة عمه من

---

(١) بالفارسية: ما هنامهٔ مردم - مجلة الشعب العدد ٢، السنة الثالثة.

(٢) راجع نهج البلاغة: ٤١٦، ط. صبحي الصالح.

زيد بن حارثة مولاه.

وروى الكليني في «الكافي» بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام، قال: «إن رجلًا من أهل اليمامة يقال له «جويبر» أتى رسول الله صلّى الله عليه وآله منتجعاً الإسلام، فاسلم وحسن اسلامه. وكان رجلًا قصيراً دميماً محتاجاً عارياً، وكان من قباح السودان، فضمّه رسول الله لحال غربته وعراه، وكان يجري عليه طعامه صاعاً من تمر، وكساه شملتين، وأمره أن يلزم المسجد ويرقد فيه بالليل. فمكث بذلك ما شاء الله.

حتى كثر الغرباء ممّن يدخل في الإسلام من أهل الحاجة بالمدينة، وضاق بهم المسجد، فأوحى الله عزّوجلّ الى نبيّه: أن طهّر مسجدك، وأخرج من المسجد من يرقد فيه بالليل، ومُر بسدّ أبواب من كان له في مسجدك باب، إلّا باب علي عليه السلام ومسكن فاطمة عليها السلام، ولا يمرنّ فيه جنب، ولا يرقد فيه غريب...

ثم إن رسول الله صلّى الله عليه وآله أمر أن يُتّخذ للمسلمين سقيفة. فعُملت لهم، وهي الصُفّة، ثم أمر الغرباء والمساكين أن يظلّوا فيها نهارهم وليلهم. فنزلوها واجتمعوا فيها. فكان رسول الله يتعاهدهم بالبرّ والتمر والشعير والزبيب اذا كان عنده، وكان المسلمون يتعاهدونهم ويرقّون عليهم لرقة رسول الله، ويصرفون صدقاتهم إليهم.

وإنّ رسول الله نظر الى جويبر ذات يوم برحمة منه له ورقة عليه فقال له: يا جويبر لو تزوّجت امرأة فعففت بها فرجك، وأعانتك على دنياك وآخرتك؟

فقال جويبر: يا رسول الله بأبي أنت وأمي مَن يرغب فيّ، فوالله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال، فأيّة امرأة ترغب فيّ؟

فقال له رسول الله: يا جويبر إن الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية ذليلًا، وأذهب بالإسلام ما كان من نخوة الجاهلية وتفاخرها بعشائرها وباسق أنسابها، فالناس اليوم كلهم أبيضهم وأسودهم وقرشيّهم وعربيّهم وعجميّهم من آدم إنّ آدم خلقه الله من طين، وإنّ أحبّ الناس إلى الله عزّوجلّ يوم القيامة أطوعهم له وأتقاهم، وما أعلم – يا جويبر – لاحد من المسلمين عليك اليوم فضلًا إلّا لمن كان أتقى لله منك وأطوع.

ثم قال له: انطلق – يا جويبر – إلى زياد بن لُبيد، فانّه من أشرف بني بياضة حسباً فيهم، فقل له، إني رسول رسولِ الله إليك وهو يقول: زوّج جُويبراً ابنتك الزلفاء.

فانطلق جويبر برسالة رسول الله صلّى الله عليه وآله إلى زياد بن لُبيد وهو في منزله وجماعة من قومه عنده، فأستأذن، فأعلم فأذن له، فدخل وسلّم عليه، ثم قال: يا زياد بن لبيد، إنّي رسولُ رسولِ الله إليک في حاجة لي، فأبوحُ بها أم أسترها أليک؟ فقال له زياد: بل بُح بها فانّ ذلک شرف لي وفخر.

فقال له جويبر: إن رسول الله يقول لک: زوّج جُويبراً ابنتک الزّلفاء.

فقال له زياد: أرسول الله أرسلک إليّ بهذا؟

فقال له: نعم، ما كنتُ لاكذب على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم.

فقال له زياد: إنّا لا نُزوّج فتياتنا إلّا آكفاءنا من الانصار، فانصرف يا جُويبر حتى ألقى رسول الله فأُخبره بعذري.

فانصرف جويبر وهو يقول: والله ما بهذا نزل القرآن ولا بهذا اظهرت نبوّة محمد صلّى الله وعليه وآله وسلّم.

فسمعت مقالته الزّلفاء بنت زياد وهي في خدرها، فأرسلت إلى أبيها: أدخل إليّ. فدخل إليها فقالت له: ما هذا الكلام الذي سمعتهُ منک تحاور به جُويبر؟

قال لها: ذكر لي: أن رسول الله أرسله وقال: يقول لک رسول الله: زوّج جويبراً ابنتک الزّلفاء. فقالت له: والله ما كان جويبر ليكذب على رسول الله بحضرته، فابعث الآن رسولاً يردّ عليک جويبراً.

فبعث زياد رسولاً فلحق جويبر، فقال له زياد: يا جويبر مرحباً بک، إطْمئِنّ حتى أعود إليک.

ثم انطلق زياد الى رسول الله فقال له: بأبي أنت وأمّي، إنّ جويبراً أتاني برسالتک وقال: إنّ رسول الله يقول لک: زَوّج جويبراً ابنتک الزلفاء. فلم أَلِن له بالقول، ورأيت لقاءک. ونحن لا نزَوّج إلّا أكفاءنا من الانصار!

فقال له رسول الله: يا زياد، جويبر مؤمن، والمؤمن كفو المؤمنة، والمسلم كفو المسلمة، فزوّجه يا زياد ولا ترغب عنه.

فرجع زياد إلى منزله ودخل على ابنته فقال لها ما سمعه من رسول الله صلّى الله عليه وآله. فقالت له: إنک إن عصيتَ رسولَ الله كفرت، فَزَوّج جُويبراً.

فخرج زياد فأخذ بيد جويبر ثم أخرجه إلى قومه، فزوّجه على سنّة الله وسُنّة رسوله، وضمن صداقه. فجهّزها زياد وهيّأوها، ثم أرسلوا إلى جويبراً فقالوا له، ألك منزل فنسوقها إليك؟ فقال: والله ما لي من منزل. قال: فهيّأوها وهيّأوا لها منزلاً، وهيّأوا فيه فراشاً ومتاعاً. وكَسَوا جويبراً ثوبين. وأُدخلت الزّلفاء في بيتها وأُدخل جويبر عليها مُعتمّاً..»[1].

وهكذا زوج رسول الله صلّى الله عليه وآله ابنة أحد أكبر أشراف القبيلة برجل أسود فقير لا جمال له سوى إيمانه ومعرفته بالله تعالى.

وكتب العالم الفرنسي الشهير الدكتور «غوستاف لوبون» يقول: «إن المساواة في المسلمين تبلغ الى درجات الكمال، هذه المساواة التي تذكر في اوربا بكل حرارة وهياج وهي وِردٌ على ألسنة مختلف الطبقات من الناس، ولكن لا نرى منها أثراً في الواقع الخارجي سوى في بطون الكتب... كانت موجودة بين المسلمين عملياً وفي سلوك الشرقيين. وهذا الخلاف الشديد الذي نراه بين مختلف طبقات أصحاب الثورة الاوربية (الفرنيسة) لا نرى له نظيراً بين المسلمين، فقد ألغى الإسلام التمايز الطبقي والاسري والعائلي والشخصي بصورة كلية، والمسلمون كلهم في نظر رسول الإسلام إخوة متساوون.

قامت في العالَم العربي هذه الشخصية التي جمعت مختلف القبائل تحت كلمة واحدة، وربطتهم وقيّدتهم بسلسلة من القوانين والانظمة الخاصة، فهم من أيّ عنصر وبلد كانوا ليس بعضهم أجنبياً على الآخرين منهم، فللمسلم الصيني بإسلامه من الحقوق في البلد الإسلامي نفس ذلك الحقّ الذي يكون للمسلم العربي، وإن كان بينهم بالنظر الى عناصرهم وقومياتهم اختلاف كثير، ولكنهم لهم بدينهم ارتباط معنويّ خاصّ يستهل عليهم اجتماعهم تحت لواء واحد»[2].

وكتب الدكتور «لويلاي» يقول: «لم يظهر في مجتمع المسلمين ما أُصيبت به اوربا

---

(١) الكافي ٥: ٣٣٩، الحديث الأول من الباب ٢١ من الكتاب ١٨. وعنه في مفتاح الكتب الأربعة ١١: ١٣٥ - ١٣٩.

(٢) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٥١٦، ٥١٧.

من النتائج والآثار السيئة والمحاذير الجانبية للانظمة الاصلاحية لاوضاع العمال والكادحين، فانّ بين المسلمين أنظمة أساسية توطد فيهم أسس التعايش السلمي بين الاغنياء والفقراء، ويكفي أن نقول: إن أولئك الذين تدعي اوربا أنّ عليهم أن يتعلّموا ويتثقّفوا وأن تُربّيهم هي بتعاليمها وثقافتها، عليها أن تتعلم منهم. فليس في الإسلام طبقات ممتازة ولا مناصب موروثة، وإنّ أصول الانظمة السياسية في الإسلام ساذجة بسيطة، وأنّ كلّ من يُساسون بتلك الانظمة السياسية من الوضيع والشريف والغني والفقير والاسود والابيض متساوون جميعاً»[1].

وكتب «جوب» يقول: «للإسلام وحده لا يزال القدرة على أن يخدم الانسانية خدمة كبيرة وعُليا، وليس هناك أيّ نظام أو مبدأ أو منظمة أو فرقة سوى الإسلام يستطيع أن يلمع بانتصار كبير في الجمع بين العناصر البشرية المختلفة في جبهة واحدة على أساس المساواة. إن المجتمع الإسلامي الكبير من أفريقيا والهند وأندونيسياوهذا المجتمع الصغير في الصين وذلك المجتمع الصغير في اليابان كلّ ذلك يدلّ على أنّ للإسلام القدرة على أن ينفذ في كلّ هذه العناصر والطبقات المختلفة والمتنوّعة. وحينما نزن اختلاف الدول الكبرى الشرقية والغربية بميزان التقييم نجد أن لا علاج لاقتلاع جذور الخلافات فيهم سوى الالتجاء الى الإسلام»!

إن تعاليم الحجّ في الإسلام هي الاخرى مبنيّة على أساس وحدة الفكر والعمل أيضاً، فلا يُرى هناك أيّ أثر للامتيازات الظاهرية، فالكعبة تجتذب إليها جميع الفرق الإسلامية المختلفة بجاذبية كبرى عجيبة، ويتبع عامة الناس حولها قانوناً عجيباً على قدم المساواة، ويقوم بالعبادة وبأداء هذه الشعائر العظيمة حولها الابيض والاسود والاحمر والاصفر في صف واحد من دون أيّ ميزة لبعضهم على بعض.

كتب «فيليب حتّي» أُستاذ جامعة «برينستون» يقول: «أصبحت فريضة الحجّ في الإسلام على طول العصور والقرون من العوامل الاجتماعية المهمة، فهي من أكبر أسباب الوحدة في المجتمع بين الامم الإسلامية، إذ يجب على كل مسلم (مستطيع) أن يقوم بهذه السفرة المقدّسة في العمر مرّة واحدة على الاقل، ولهذا الاجتماع العظيم الذي يشارك

---

(١) بالفارسية: تمدن الاسلام وعرب: ٥١٥، ٥١٦.

فيه المؤمنون من كافة أنحاء الارض ويدعو بعضهم بعضاً إخواناً، أثر عظيم لا يمكن إنكاره.

فهناكم عند بيت الرّبّ يتصافح الزنوج والبربر والصينيّون والإيرانيون والاتراك والهنود والعرب السوريون والاردنيّون واللبنانيون مع غيرهم، غنيّهم وفقيرهم وعاليهم ودانيهم، يتصافحون تصافح الاخوة، وينطق جميعهم بكلمة الشهادتين معاً. والظاهر أن الإسلام هو الوحيد بين كلّ أديان العالَم الذي رفع الحدود والفواصل بين مختلف الدماء والعناصر والقوميات، والذي بذلك أوجد وحدة كبرى في اطار المجتمع الإسلامي، بحيث جعل الخط الفاصل الوحيد بين أفراد البشر في نظر الإسلام مسألة الكفر والإيمان فقط.

ولا شك في أنّ هذا الاجتماع العظيم في موسم الحجّ يؤدي خدمة كبرى بهذا الصدد، وينشر الدين الإلّهي بين ملايين البشر الذين يعيشون في أماكن مختلفة»[1].

ومن المؤسف اليوم أن الوحدة الإسلامية قد تصدّعت كثيراً فيما بين بعض الدول الإسلامية تحت ضغط مختلف الهتافات العنصرية والاحاسيس القومية، وبدت اتّجاهات خاصة الى الجهات القومية والوطنية التي لا تنسجم مع روح الإسلام أبداً.

وفي النظام القضائي في الإسلام نشاهد عدة مشاهد من المساواة بصورة واضحة تماماً، مما لا يوجد في اسلوب الجهاز القضائي في هذا العالَم المتحضّراليوم نموذج واحد منه، مع أن المساواة بين جميع الافراد أمام القانون كانت من أهداف العالَم المتحضّر في النظام الاجتماعي وهو يسعى للوصول إليه ويحاول.

إن الشُعل المتّقدة التي أوقدها الإسلام في باطن ضمائر أفراده لم تنطفئ ولم تخمد حتى في أحلك أيام التاريخ سواداً وظلاماً، لان يقظة الضمير لديهم كانت قد بلغت الحدّ النهائي من الدقة والعناية.

يُحكى أنّ الخليفة هارون الرشيد كان عليه في قضيّة أن يحلف في حضور القاضي، وأن يشهد الفضل بن الربيع له، ولكنّ القاضي لم يقبل شهادته، فغضب الخليفة وقال: لِمَ لَمْ تقبل شهادته ؟ قال القاضي: سمعته يقول لک: أنا عبدک. فان كان صادقاً فلا تقبل شهادة العبد لمولاه، وإن كان كاذباً فلا تقبل شهادة الكاذب!!

---

(١) بالفاسية: اسلام أز نظرگاه دانشمندان غرب: ٢٣٩، ٢٤٠.

واكترى الخليفة العباسي المنصور جِمالاً لسفر الحج وبعد السفر وأداء شعائر الحج امتنع من أن يدفع لهم كراية الجِمال بمختلف الحجج والمعاذير، فشكاه الجّمالون إلى قاضي المدينة، فأحضر القاضي المنصور وأجلسه الى جانب الجمّالين وحاكمه وحكم عليه بدفع الكراية وأخذها منه ورفعها للجّمالين في المجلس فوراً.

كتب العالم الفرنسي الشهير الدكتور «غوستاف لوبون» بشأن الامور القضائية في الإسلام يقول: «إن الامور القضائية وترتيب المحاكمات في المسلمين بسيط ساذج ومختصر جداً، فالذي يُعيّن من قبل أمير العصر بمنصب القضاء يحاكم جميع الدعاوى ويفصل فيها الحكم شخصياً، والحكم يكون حكماً قطعياً، يُحضر طرفا الدعوى فيشرحون قضاياهم ويقيمون دلائلهم، ثم يقضي القاضي ويصدر الحكم في نفس تلك الجلسة من دون أيّ تأخير.

اتّفق لي أن حضرت إحدى المحاكم في مراكش والقاضي كان يستمع الى الدعاوى والادلة فشاهدت المجلس وقضاء القاضي، كان القاضي جالساً في مكان متصل بدار الحكومة من دون حصار حوله، وكل واحد من طرفي الدعوى وشهوده حوله وبيّن كل واحد منهم مطاليبه في ألفاظ ساذجة مختصرة، وإذا كان أحدهم يحكم عليه بعقوبة السياط كان الحكم ينفّذ في نهاية الجسلة وفي نفس المكان.

ومن أكبر الفوائد في هذا الاسلوب من القضاء أن لا تتلف أوقات أصحاب الدعوى، ولا يخسر هنا أحدهم تلك الخسائر الباهضة التي نراها اليوم على أثر التعقيدات المحكمية الكثيرة اليوم، ويُنفّذ بالعدل والإنصاف كل الاحكام الصادرة بصورة ساذجة ومن دون تشريفات كثيرة»».

إذا اطمأنّ أفراد المجتمع الى أنّ القانون الذي يسودهم قانون إلّهي من قبل إلهٍ عادل، وأنّ الامير المتعهد بإرادة أمورهم لا يتمتّع إلّا بحقوق متكافئة لحقوقهم، وأن القاضي المستند الى مسند القضاء يأخذ حكمه من القانون الإلّهي ولا يستلهمها من أهوائه حينئذٍ تجفّ جذور القلق والاضطراب الناتج من العدوان على العدل، ويتمتّع جميع أفراد المجتمع بطمأنينة وأمان كامل تام.

فلو أراد العالَم أن يمنع من العدوان وأن ينجو بنفسه من مخالب التمييزات المختلفة وأن يعيش في ظل طمأنينة وسلام، فعليه أن يستلهم من تعاليم الإسلام القيّمة وأُصوله وأنظمته

الاجتماعية والسياسية. إن مختلف الاحلاف في العالَم اليوم بما أنها تدور في دائرة محدودة حول محور القومية أو المنطقة الجغرافية أو العنصر، فانها لا يمكنها أن تحلّ مشاكل العالم اليوم، وأن تربط بين جميع الأُمم على الارض بما لهم من خلافات فيما بينهم، وأن تدعوهم الى توحيد الافكار والتعاون من أجل بناء عالم جديد على أساس العدالة والمساواة. بل إنّ الاحساس القومي الحديث الذي يُدعم في كثير من الدول هو منشأ كثير من الاختلافات والنزاعات والتفرقات الاكثر بين أُمم العالَم.

يبيّن هذه الحقيقة أحد أساتذة جامعات أمريكا الدكتور «لويس سنايدر» يقول: «لقد ثارت في ظل «القومية الحديثة» نزاعات كثيرة على الحدود التاريخية والطبيعية فيما بينهم، واضمحلّت المناسبات الثقافية والاقتصادية القديمة فيما بينهم وانجرّت نتيجتها (فقدان الامان) في كثير من الموارد الى تحديد الحرية الفردية، وزيادة التسلّح وتأزّم العلاقات الدولية.

إن الاستقلال والسيادة الذاتية وان كان قد توسع توقّعها في هذه العشرة الاخيرة من عمر القرن العشرين وأصبحتا تعدّان في عداد المقدّسات، لكنهما ليستا سبيلًا يُطْمأنّ إليه إلى الحرية الفردية وإلى سلام دولي أكثر طمأنينة»[1].

إنّ الوسيلة الوحيدة التي بإمكانها أن تجمع الجميع تحت راية واحدة وأن تقدّم هذه الخدمة الثمينة الى المجتمع البشري إنما هي الوحدة التي تدور حول محور الإيمان بالله والفضائل الروحية والاخلاقية، ففي هكذا وحدة تستيقظ روح الاخوة والصداقة الصحيحة وترتبط القلوب والافكار، ولا تقدر الامكانيات المادية والاختلافات القومية والجغرافية والعنصرية أن تدخل عليها خللًا أو وهناً.

وبحكم الاشتراك في الإيمان بالله الواحد الاحد الفرد الصمد والاعتقاد بالاصول الاسلامية الاساسية والاحساس بالمسؤولية الباطنية أمام التكاليف الإنسانية، يتمتّع جميع أفراد المجتمع في المجتمع الإسلامي بمزايا حياة هادئة متعاونة ومتواسية ومع تفاهم عميق فيما بينهم بما فيهم من أنواع العناصر واللغات والرسوم والعادات والمراسيم المحلية المختلفة، ومع كل الاختلاف العميق في مختلف المستويات.

(١) بالفارسية: جهان در قرن بيستم: ٣٤، ٣٥.

إن الاسلام جدّ جادٌّ في تصعيد المجتمع الى المستوى الإنساني الرفيع والعالي، ويريد أن يكون التعاون والوحدة في المسلمين فيما بينهم نافذاً على أساس المحبة والعواطف، وأن تكون قلوبهم ترتبط فيما بينهم بالمشاعر الإنسانية الطاهرة والنزية. إن الله لا يخلق أفراد البشر مريداً أن يكون فيما بينهم فواصل عميقة، أو أن تنفصم عواصمهم وعلاقاتهم فلا يعرف بعضهم بعضاً:

«يا أيّها ٱلنّاس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لِتعارفوا إنّ أكرمكم عند ٱللّه أتقاكم»[1].

إن الاخوة الإسلامية ليست مسألة فارغة جوفاء، بل هي واقعية قيّمة يجب أن تصبح منبعاً لأيّ نوع من العواطف والمحبة المتبادلة. إن تشكيل كل هذه المجتمعات وتواجد القبائل وأنسابها إنّما هو ليتمكّن الإنسان من إن يقرّر علاقاته بسائر الافراد فيتكامل في ظل تلك العلاقات.

واليوم مع أنه على أثر نفوذ الافكار الغربية المغلوطة الى الاجواء الإسلامية قد توسّعت وانتشرت فيها الروحية المادية والنفعية، مع ذلك لا زالت تضلّل على أجواء حياة كثير من المسلمين العواطف الإنسانية والفضائل الاخلاقية والصداقة الصحيحة، أكثر من أيّ شيء آخر.

وقد تأثّر بهذه المزايا الروحية للمسلمين الفيلسوف المعروف «لاينتر» فقال: «إنّ إشفاق الشرقيين وملاطفتهم مع الغرباء وطبيعة استضافتهم للضيوف ولا سيّما بفضل تعاليم الإسلام السامية، قد أضفى عليهم رونقاً وصفاءً خاصاً بهم دون سواهم، بحيث لا يوجد من كل ذلك حتى القليل في الجوّ المادّي والرجال القاسية قلوبهم والنفعيّين الاوربيين»!

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

دوافع الجهاد الاسلامي

لم يكن هدف الإسلام ولا دوافعه في الحروب والجهاد والقتال العام مع المشركين، دوافع مادية كفتوح البلدان والتوسع على حساب الآخرين، ولا من أجل أهداف استعمارية كالسلطة على المنابع الاقتصادية للآخرين. فهنا يختلف حساب الإسلام مع سائر الطرق والمبادئ، فهو يعقب في ذلك أهدافاً إنسانية كبرى وعميقة.

إن الإسلام في بدء طلوعه وإشراقه كان يهدد الوضع القائم للظالمين والاشراف المغترين بما فيه هو من خصوصيات حيوية ومثيرة، ولذلك قد تشكلت ضده القوى المضادة ليمانعوا انتشار هذا الدين الجديد واشاعته وتقدم الإسلام. وأفادوا في ذلك من كل الامكانيات والوسائل والقوى المادية لمضادة الإسلام. وحتى أنهم كانوا يعذبون كل من كان يدرك حقيقة هذا الدين ويعتقد به تعذيباً فجيعاً.

وحتى أن قريش قطعت علاقاتها وارتباطاتها مع صحابة الرسول، فلجأ هو وأصحابه الى أحد شعاب جبال مكة لمدة ثلاث سنوات، وتحملوا هناك كل مشقة وألم، وحتى أنهم كانوا يعانون الآلام من شدة الحاجة الى أقواتهم قبل أن يموتوا من شدة الجوع!

وبعد أن استقر رسول الإسلام بالمدينة المنورة وشكل للمسلمين مجتمعاً قوياً أمام المشركين مع ذلك لم يسكت عنه المشركون، بل كان كيان الإسلام يشعر بخطر الهجوم منهم فى كل لحظة! في هكذا أوضاع أذن للمسلمين في أن يدفعوا عن كيانهم.

إن لاكثر غزوات الرسول صلى الله عليه وآله جهة دفاعية، والفرق العسكرية التي كان يرسلها لقمع الجموع المتواطئة للجهوم على المدينة كان الهدف منها في الواقع الجواب

على هجمات الاعداء ليحطّموهم من قبل أن يتجهزوا للهجوم على المدينة، ولكي يقضوا على الحركات المضادة للإسلام والتي كانت في طور التكوّن، وهي في مهدها.

وفي هذه الآيات التالية قد بيّن الله الدوافع الاولى لتشريع الجهاد وهو الإجابة على تعرّض الاعداء الظالمين، قال تعالى:

«أُذن للذين يقاتَلون بأنهم ظُلموا وإنّ آلله على نصرهم لقدير، آلذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلّا أن يقولوا ربّنا آلله...»[1].

«وقاتلوا آلذين يقاتلونكم في سبيل آلله ولا تعتدوا...»[2].

وبما أن الإسلام مبدأ عالمي لجميع البشرية وعليه أن يبلغ بفيضه الرّباني كل الوجود الإنساني، فلا يقدر على حصر نفسه في الحدود الجغرافية لمنطقة محصورة، بل عليه أن ينقذ البشرية من مخالب الشرك والتلوّثات الروحية، وأن يبلغ كلمته الحقة ورسالته العالمية الى آذان كلّ الجماهير في سائر أقطار العالَم.

وبصورة عامة فانّ كل نظام ودين يريد أن يحطّم الانظمة البائدة والعقائد الفاسدة، وأن يأتي بنظام جديد بدل تلك الانظمة البالية والقديمة، فانّ ذلك لا يمكن بلا جهاد وحروب وكفاح. وهل تحقّقت الثورات العالمية في طول التاريخ وانتجت من دون اصدام وحروب؟ بإمكاننا أن ندرك هذه الحقيقة بدراسة اجمالية في الثورات الفرنسية، والهندية، والامريكية، والروسية...فهل أثمرت هذه الثورات بدون حروب وسفك دماء؟ هل تمت للثوار فيها بصورة ساذجة بسيطة وسهلة بلا دفع ثمن باهض؟!

وحيث كان هدف الإسلام تغيير العادات والافكار الفاسدة السائدة، والغاء الامتيازات الموهومة، فهكذا ثورة واسعة في كل طبقات المجتمع وشرائحه ستتعرّض من قبل الفرق التي تصطدم في مطامعها ومنافعها لمعارضة شديدة لا محالة سواءً شاءت أم أبت وذلك طبعاً يستتبع الحرب والصِدام.

إن قوّة القلم والبيان ليست منتجة مئة بالمئة لإشاعة مبدأ عالمي يريد الاصلاح في

---

(١) سورة الحج: ٣٩، ٤٠.

(٢) سورة البقرة: ١٩٠.

جميع شؤون الناس، فان ثورة القلم والبيان ومهما كان البيان قوياً وحاسماً لا يمكن أن يكون لها دور مؤثر في الإطاحة بكل عوامل الفساد والانحراف والبؤس والتعاسة والشقاء في المجتمع ولإيجاد جوّ متحرّر من كل ذلك بما لها من سوابق ممتدة وطويلة.

فهناك أناس يُصّرون على عاداتهم ورسومهم بحيث لا يؤثّر في هدايتهم أي برهان أو منطق، فهم لا يرفعون أيديهم عن عاداتهم القبيحة وأساليبهم الخرافية والباطلة ولا يستسلمون للحقّ والحقيقة إلّا في ظلّ قوة السيف والضغط، ورسول الإسلام يحكي عن هذا الواقع فيما قال:

«والخير كلّه في السّيف، وتحت ظلّ السّيف، ولا يقيم الناس إلّا السّيف، والسّيوف مقاليد الجنّة والنّار»[1].

فلو أن القوى المضادّة وعساكرها النظامية أحدثت أمام نفوذ الحقّ وبسط العدل والدين الإلّهي سدّاً منيعاً، ومنعت من نشر الحقائق، هل هناك من سبيل إلّا التوسّل بقدرة عسكرية نظامية متكافئة تقابلها وتقاومها ؟

وإنّما صدر الامر بالحرب والتوسّل بالقدرة العسكرية في عهد كانت قد انتفت فيه الارضية المساعدة للتفكير الحرّ وإمكانية اختيار الطريق الاصلح. وإنما بدأ الإسلام الكفاح المسلّح لقمع الظالمين المعتدين الجبّارين الذين كانوا يمانعون حرّية الدعوة الإسلامية وذلك لكسر طوق الاختناق الفكري، وليتحرّر الناس من العوامل السلبية والهدامة، ولتتمكّن الجماهير البشرية من أن تختار الطريق الصحيح في الحياة في فضاء فكريّ متحرّر بكل إرادتها واختيارها، وإلّا فقد كانت الحقيقة الحقّة تنطفئ وهي في مهدها.

إن الحرب التي يبدؤها الإسلام انّما هي في الحقيقة حرب التحرير للبشرية بالمعنى الواقعي لهذه الكلمة، من أجل تحرير العقول من قيود الخرافات والاوهام، وتحرير البشر من كل القيود اللاإنسانية. حرب بعيده عن الاهواء والطغيان والامور المادية، حرب ضد الضلالات حتى ولو كانت باسم الله وهي تسعى في الارض فساداً وتحرم الإنسان من التمتّع بالعدل والتنوّر بالنور الكامن في اسم الله سبحانه وتعالى.

---

(١) وسائل الشيعة ١١: ٥ باب ١ من أبواب جهاد العدوّ عن الكليني والصدوق والطوسي.

إن الاسلام يحارب في سبيل تركيز المقاييس الإنسانية الصحيحة، وهو بذلك يمنح العزة والكرامة للبشرية.

إنّ الإسلام يريد الخير والصلاح لعموم الناس، ويريد أن يُعدم كلّ ما يوجب فساداً، وكل عوامل إحباط الصالح العام، من دون أن تكون له أهداف منفعية أو أهواء.

بينما كان المسلمون في مكّة (الضعفاء عن الهجرة) يرزحون تحت تعذيب المشركين وضغوطهم لانّهم مسلمون فقط، كُلّف المسلمون – بموجَب دستور سماوي – بتحرير الجماهير المظلومة عن سلطة الظالمين ومخالبهم، وأن يهدموا عوامل الاستعباد الفكري بالتوسّل بالقوة العسكرية، ليحافظ على كيان المجتمع الاسلامي الحديث العهد وليستمر ويطّرد في نموّه بكل حرّية:

«وما لكم لا تقاتلون في سبيل آللّه والمستضعفين من آلرجال وآلنساء وآلولدان آلذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه آلقرية آلظالم أهلها، واجعل لنا من لدنک وليّاً واجعل لنا من لدنک نصيراً»[1].

لا مفهوم للحرب في بادى النظر سوى القتل والقتال والسبي والاسر وإعدام الاعداء والشقاء. ولكنّ الإسلام يفسّر الحرب تفسيراً آخر فيقول: الحرب تعني الجهاد ضّد الظالمين والمعتدين والمفسدين والمستكبرين، واقتلاع الظلم والعدوان، لإحياء الحقّ والحقيقة، وبكلمة هي آخر السُبل لمحو الضلال ونشر العدالة والفضيلة.

إن أساس دعوة الإسلام يبتني على أن يتحرّر الناس من عبادة أي معبود سوى اللّه، وأن لا يحكم الافكار والقلوب شيء سوى شرائع الله وأحكامه وإرادته. وأي ضلال أضلّ من أن يخضع العباد ويتعبّدوا أمام الاحجار والاخشاب وسائر الموجودات غير ذات الشعور! إنّ هذا لاعظم إنحراف عن المسيرة الصحيحة للفطرة الإنسانية والعقل البشري.

وما تقرّر في أحكام الإسلام أن يدعو المسلمون أعداءهم الى الإسلام قبل التحام الحرب يبيّن بنفسه هدف الإسلام ومنظوره في حروبه وجهاده.

حينما تواجهت قوات الاسلام مع الجيش الإيراني الساساني، طلب رُسْتَمْ فَرُّخْ زاد،

(١) سورة النّساء: ٧٥.

الذي كان يتكفلّ بقيادة جيش إيران يومئذٍ، طلب من سعد بن أبي وقّاص قائد جيش المسلمين ممثّلاً، ليقف من خلال مفاوضته على الهدف من الجهاد الإسلامي، فبيّن له ممثل المسلمين الهدف من الجهاد الإسلامي هكذا:

قال له رستم: ما هو دينكم ؟

قال: «أما عموده الذي لا يصلح منه شيء إلّا به، فشهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمّداً رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله تعالى.

قال: ما أحسن هذا! وأيّ شيء أيضاً ؟

قال: وإخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله تعالى.

قال: حسن، وأيّ شيء أيضاً ؟

قال: والناس بنو آدم وحوّاء، إخوة لاب وأم.

قال رستم: ما أحسن هذا! ثم قال: أرأيت لو أني رضيت بهذا الامر وأجبتكم إليه ومعي قومي كيف يكون أمركم ؟ أترجعون ؟

قال: اي والله ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلّا في تجارة أو حاجة»[1].

ثم سرّح سعد بن أبي وقّاص الى رستم ربعي بن عامر اليربوعي التميمي (وهو أبو شبث بن ربعي) فقال له رستم: ما جاء بكم ؟

قال: «الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا الى سعتها، ومن جور الاديان الى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه الى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منّا ذلک قبلنا ذلک منه ورجعنا عنه وترکناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي الى موعود الله»[2].

ثم رجع...فلما كان من الغد بعثوا الى سعد: أن ابعث إلينا ذلک الرجل.

فبعث إليهم سعد: حذيفة بن مِحصَن...ثم ردّه رستم.

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٥١٨، ط. دار المعارف. ومحادثة زهرة بن عبدالله بن الحارث أمير مقدمة سعد بن وقّاص.

(٢) تاريخ الطبري ٤: ٥٢٠، ط. دار المعارف.

فلما كان من الغد أرسل رستم الى سعد: ابعثوا إلينا رجلًا.

فبعثوا اليهم المغيرة بن شعبه...وتكلم...فلم يختلفوا وسلكوا طريقاً واحداً ولزموا امراً واحداً...وقالوا: ندعوكم الى الإسلام وحكمه، فان اجبتمونا تركناكم ورجعنا وخلّفنا فيكم كتاب الله[1].

وقد روى الكليني في «الكافي» والطوسي في «التهذيب» باسنادهما الى الإمام الصادق عليه السلام: أن رسول الله لما بعث علياً عليه السلام الى اليمن قال له: «يا علي، لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه الى الإسلام ؟، وأيم الله لئن يهدي الله عزّوجلّ على يديك رجلًا خير لک مما طلعت عليه الشمس وغربت، ولک ولاؤه يا علي»[2].

إن منطق الإسلام في الحرب قد بُنى على أساس الجهاد في سبيل الله وللقربة إليه ونيل السعادة الابدية بذلک. ولم يقل الإسلام للمسلمين أن حاربوا وافتحوا المدن واستعمروا واستعبدوا الامم والشعوب. ولذلک فان الحروب الإسلامية لا يمكن أن تقاس بفتح البلدان من قبل الطغاة في طول التاريخ والذين لم يكن لهم في فتوحاتهم أي دافع إلّهي، بل لم يكن لهم أيّ هدف سوى المطامع المادية وطلب الاستعلاء واستعمار بل استعباد الامم والشعوب.

إنّ المسلم يزاول الحرب أداءً لوظيفة دينية خطيرة بل عبادة. إن المسلمين كانوا يجاهدون بلا هوادة في سبيل إعلاء كلمة الله والحقّ والحقيقة،وهم يعتقدون أن كلمة الله إذا طبّقت وجه الارض قاطبة انحسر عنه الظلم قاطبة، واستقرت المساواة التامّة بين كافّة أفراد البشر، وقد قال الله عزّ من قائل:

«إِنّ ٱللّه يحبّ ٱلّذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنّهم بُنيانٌ مرصُوصٌ»[3].

وحينما كان جمع من المجاهدين ناظرين على عاداتهم الجاهلية إلى الغنائم المادية لامهمالله ووبّخهم بشدة فقال تعالى:

---

(١) تاريخ الطبري ٤: ٥٢٤ - ٤٢٨، ط. دار المعارف.

(٢) وسائل الشيعة ١١: ٣ عن فروع الكافي: ٢٣٥، ٣٣٧ والتهذيب ٢: ٤٧.

(٣) سورة الصّف: ١.

«تريدون عَرَضَ ٱلدّنيا وٱللّه يريد الاخرة»[1].

ولا ريب في أن تلك مزية كبرى للإسلام في سوح الكفاح البشري في سبيل العدالةوالحرية والكرامة الإنسانية. كتب الدكتور مجيد خدّوري يقول:

«يجب أن نلتفت الى أنّ الإسلام قد نظر الى الحرب كوسيلة يبدّل بها «دار الحرب» الى «دار الاسلام» ولو كان يتحقق هذا يوماً ما لكانت تنتفي دار الحرب والغاية من الجهاد اللّهمّ إلّا لقمع أعداء الإسلام الداخليين، وكانت هي أيضا تنتفي بدورها.

وعليه فبالإمكان القول بأنّ الحرب لم تكن هدفاً في النظرة التشريعية في الإسلام، بل عرفها الإسلام كآخر وسيلة لتأمين السلام[2].

وفي أحكام الجهاد في الإسلام روعيت الاخلاق بصورة تامّة، وقد كانت أخلاقية المسلمين وعطفهم وكرامتهم في سوح الكفاح والحروب الدامية ملفتة للنظر جداً. إن برنامج الجهاد في الإسلام مزيج بالشرف والفتوة والاخلاق بحيث لا نرى له اليوم مثيلًا في أيّ من القوانين العسكرية والحربية. لقد خطا الإسلام في سبيل حفظ النفوس والمنع عن الحروب خطوات بارزة، وقد مانع عن سفك الدماء حتى الإمكان.

فمثلًا ليس سبيل ترك الخصام والصِدام ووقف إطلاق النّار والقتال في الإسلام محصوراً في استسلام الاعداء، بل يكفي في ذلك أن يأمن المسلمون من شر أعدائهم والإخلال بهم وأن يتعهدوا لهم بأن يمتنعوا عن التعدي على حقوق الآخرين وعلى المقدسات الإسلامية، وأن يمتنعوا عن الطغيان والفساد والفتنة بين المسلمين.

ولو كان أحد المسلمين المجاهدين يعاهد العدوّ أو يؤمنه لم يكن من الجائز لصاحب أعلى منصب إسلامي أن ينقض تلك المعاهدة!

وقد حرّم في القتال التخريب والتحريق للمزارع والتغريق لهم، وأعطى بذلك حصانة للاطفال والشيوخ والنساء والمجانين والمرضى، فلا يحق للمسلمين أن يلوّثوا أيديهم بدماء هؤلاء من أجل أن يصدموا عدوّهم، وكذلك لا يجوز لهم أن يتعرّضوا للمندوبين والممثّلين

---

(١) سورة الانفال: ٦٧.

(٢)بالفارسية: جنگ و صلح در اسلام: ٢١٤.

وسفراء الاعداء.

كتب البروفسور الدكتور محمّد حميد الله المستوفي أُستاذ جامعة باريس في كتابه قال:

«كان محمّد(ص) يحكم على أكثر من مليون ميلًا مربعاً من الارض، وهذه المساحة تعادل كل أراضي اوربا باستثناء روسيا، ومن المقطوع به أنّ هذه النقطة كانت مساكن ملايين من العرب، وقد قتل منهم ضمن عملية استيلائه عليهم مئة وخمسون رجلًا منهم في ساحات الحروب، أما من جانب المسلمين فقد كانت خسائرهم في أرواحهم في مدة عشر سنين تعادل كل شهر شهيداً. ولا نظير لهذه المثابة من تقدير الدم البشريّ وحرمته في تاريخهم الطويل»[1].

وهنا نأتي بمقاطع بارزة تبيّن هذه الحقيقة كنماذج شاهدة:

روى البرقي في «المحاسن» والكليني في «الكافي» بسندهما عن الصادق(ع) قال: كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلم إذا أراد أن يبعث سريّة دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول: «سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله، لا تغلّوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبيّاً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً الّا أن تضطرّوا إليها. وأيما رجل من أدنى المسلمين أو أقصاهم نظر الى أحد من المشركين فهو جار حتى يسمع كلام الله، فان تبعكم فأخوكم في الدين، وإن أبى فأبلغوه مأمنه واستعينوا بالله»[2].

وروى الكليني في «الكافي» والطوسي في «التهذيب» بسندهما عن الإمام عليّ بن الحسين قال: إن علياً عليه السلام كتب الى مالك (الاشتر) وهو على مقدمته في يوم البصرة بأن: «لا يطعن في غير مقبل، ولا يقتل مدبراً، ولا يجهز على جريح، ومن أغلق بابه فهو آمن»[3].

وقد يرتكب العدو في معمعة الحرب أعمالًا تحرك في المسلمين غريزة حبّ الانتقام،

---

(١) بالفارسية: رسول اكرم در ميدان جنگ: ٩.

(٢) وسائل الشيعة ١١: ٤٣ عن فروع الكافي ١: ٣٣٤ والمحاسن: ٣٥٥.

(٣) وسائل الشيعة ١١: ٥٥ عن فروع الكافي ١: ٣٣٦ والتهذيب ٢: ٥١.

فعلى المسلمين في هذه الموقعة الحسّاسة أن لا ينسوا هدفهم الاصلي وهو الدفاع عن حريم الحقّ والفضيلة. وأن يتغلّبوا على أحاسيسهم وهياجهم للانتقام.

إنّ الإسلام أحدث شعوراً إنسانياً بالنسبة الى كل أفراد البشر ولم يرخّص في الجور في أية لحظة. والمسلمون الذين يجاهدون في سبيل الله لا يحق لهم أن يتجاوزوا عن حدود العدل فيفكّروا في العدوان، وقد حدّد الإسلام العدوان- على العدوّ بحدود عدوان العدوّ ويذكّر صريحاً بهذا الموضوع فها هو نداء القرآن يقول:

«فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتّقوا ٱللّه واعلموا أنّ ٱللّه مع ٱلمتّقين»[1].

«يا أيّها ٱلذين آمنوا لا يجرمنّكم شنئان قوم على أن لا تعدلوا آعدلوا هو أقرب للتّقوى»[2].

«ولا يجرمنّكم شنئان قوم أن صدّوكم عن ٱلمسجد ٱلحرام أن تعتدوا»[3].

لقد جاء الاسلام لنشر العدل على وجه الارض بكل معنى الكلمة، وليقيم العدالة الاجتماعية والعدالة بين مختلف الامم والشعوب، ولهذا فلو أنّ جمعاً من المسلمين أرادوا أن ينحرفوا عن مسيرة الحقّ والعدل فيتّجهوا الى سبيل الظلم والعدوان وجب على سائر المسلمين بحكم الإسلام أن يقمعوا المسلمين المعتدين ولو بالحرب ضدّهم:

«وإن طائفتان من ٱلمؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما علىٰ الاخرى فقاتلوا ٱلتي تبغي حتى تفيء إلى أمر ٱللّه فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل، إن ٱللّه يحب المقسطين»[4].

والنقطة الملفتة للنظر في هذه الآية أنها تؤكّد على المصلحين أنّ الاصلاح بين الطائفتين المتخاصمتين يجب أن يكون على العدل التام، ليصل كل من الطرفين الى حقوقهم المشروعة لهم. ذلك أنه في هكذا موارد حيث بدأت الحرب بين الطرفين بعدوان أحدهما على الآخر،

---

(١) سورة البقرة: ١٩٤.

(٢) سورة المائدة: ٨.

(٣) سورة المائدة: ٢.

(٤) سورة الحجرات: ٩.

لو اراد المصلحون الذين يريدون أن ينهوا الحرب بالصلح أن يجعلوا جهدهم في الإصرار على العفو والاغماض من جانب، ويحصلوا على رضا أحد الطرفين بإعراض احدهما عن حقوقه لصالح الطرف الآخر، فمن الممكن أنّ نفس هذا العفو من طرف يقوى في الطرف الآخر روحية العدوان حيث حصل على امتيازات ومكاسب بالحرب. ومن المؤسف أنّ المصلحين غالباً ما يحاولون أن يُقنعوا المعتدي بوقف الحرب من خلال منحه بعض ما كان يريد (وإن كان باطلًا بلا حقّ).

إنّ العفو والاعراض عن الحقّ وإن كان في نفسه عملًا صالحاً مرغوباً فيه مندوباً إليه، ولكنّه في هكذا موارد يترك في روحية الشخص المعتدي أثراً غير صالح لا تحمد عاقبته. بينما هدف الإسلام أن يطوي موائد الظالمين والمعتدين في مجتمع المسلمين، وأن يطْمئن الناس الى أنهم سوف لا يحصلون على شيء من طريق الظلم والعدوان على الآخرين.

إن المعاملة الإنسانية من المسلمين بالنسبة الى الشعوب المغلوبة سببت في أنهم اينما كانوا يتّجهون كان الرأي العام يستقبلهم ويُرحّب بهم:

فأهالي مدينة «حِمص» مثلًا اغلقوا أبواب مدينتهم بوجه عسكر «هِرَقل» ولكنهم أرسلوا الى المسلمين: أن حكمهم العادل أحبّ إليهم من ظلم الروم.

وحينما وصل عساكر المسلمين بقيادة «أبي عبيدة الجرّاح» الى أراضي الاردن كتب النصارى الى المسلمين يقولون:

ايها المسلمون، أنتم أحبّ إلينا من الروميين، فانهم وإن كانوا معنا على دين واحد ولكنّكم أوفى لنا وأعدل بنا وأرحم وأرأف وأكثر إحساناً بالنسبة إلينا، فانّهم لم يحكمونا فقط بل نهبوا بيوتنا!!

وكتب المستشرق الشهير «فيليب حتّي» في احتلال إسبانيا من قبل المسلمين يقول:

«أينما كان يحلّ عسكر الإسلام كان الناس يتقبلونهم برحابة صدر ويحضّرون لهم الماء والطعام، ويخلون لهم خنادقهم. والذين يعلمون بجرائم سلاطين ويزيگوت وظلمهم يعلمون بسبب ذلک»[1].

---

(١) عن الترجمة الفارسية: تاريخ عرب ٢: ٦٣٨.

إنّ المسلمين لم يكونوا يُجبرون الناس في البلاد المفتوحة على ترك أديانهم.

إن النظام الإسلامي قد ضمن الحرية التامّة في العقيدة للاقليات الرسمية في بلاده، ولا يصطدم معهم في عباداتهم وأسلوب حياتهم الداخلية، وبكلمة: فانّ العقيدة الإسلامية وسائر العقائد الدينية الاخرى تتمتع بحقوق قانونيّة.

إنّ الضرائب المالية التي تؤخذ من المسلمين بعنوان الزّكاة هي عبادة وضريبة، ولكن الإسلام لم يكلّف بها أتباع ساير الاديان، بل انّهم يدفعون بدل الزكاة ضريبة أخرى باسم «الجزية» وهم بدفعهم لهذه الضريبة «الجزية» يتمتّعون بالحماية الكاملة من جانب الحكومة الإسلامية، ويفيدون من كافة التسهيلات والمزايا التى توفّرها الحكومة الإسلامية لافراد شعبها.

وعليه فان النظام الإسلامي لم يلاحظ مشاعر أتباع ساير الاديان السماوية بشأن الاحوال الشخصية فحسب بل في دائرة التشريع بصورة عامّة، وحتى أنه راعى أمورا ترتبط بالعقائد الدينية في قوانينه الجزائية والمدنية والتجارية، لكي تبقى للاقليات الرسمية الحرية التامة في هذه الامور مما يرتبط بعقائدها الدينية.

إن القرآن الكريم يعيّن كيفية علاقة المسلمين بأتباع الاديان الاخرى، ويرغبهم في الإحسان والمودّة مع المساكين من غير المسلمين، وإنّما منعهم عن المودة مع غير المسلمين المحاربين المعتدين والذين لهم مع الإسلام والمسلمين عداوة وخصومة سرّاً أو جهاراً: «لا ينهاكم ٱللّه عن ٱلذين لم يقاتلوكم ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إنّ ٱللّه يحبّ المقسطين إنّما ينهاكم ٱللّه عن ٱلذين قاتلوكم وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم ومن يتولّهم منكم فأولئك هم الظالمون»[1].

إنّ السياسة الإسلامية مع الاقليات المسيحية واليهودية التي كانت تعيش في الحكومة الإسلامية كانت مبنيّة على أساس المعاهدات المتقابلة والتعايش السلمي، ومع كل ما كان للحكومة الاسلامية من قوة وقدرة ما كان المسلمون ليعاملوهم معاملة خشنة. واليهود حول المدينة ما داموا يعملون على معاهداتهم المتقابلة كانوا يعيشون الى جانب المسلمين من دون أي ظلم أو خشونة معهم، وحتى روي عن النبيّ صلّى اللّه عليه وآله وسلم أنّه قال: من آذى ذميّاً

---

(١) سورة الممتحنة: ٨ - ٩.

فقد آذاني ألا ومن ظلم مُعاهداً أو كلّفه ما لا يطيق أو أخذ منه مالاً بغير رضاه فانا خصيمه يوم القيامة!

وروى الطوسي في «التهذيب» بسند مرسل قال: مرّ شيخ مكفوف كبير يسأل، فقال أمير المؤمنين عليه السلام ما هذا؟ قالوا: يا أمير المؤمنين، نصراني. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «استعملتموه حتى إذا كبر وعجز منعتموه؟! أنفقوا عليه من بيت المال»[1].

ويقول الدكتور «واجليري» أستاذ جامعة نابولي: «إن حياة الشعوب المغلوبة المفتوحة وحقوقها المدنية وأموالها أصبحت موضع حماية الحكومة الإسلامية بحيث كانت حقوقهم تقريباً تشابه الحقوق التي كان المسلمون يتمتعون بها. إن العرب في أوج قدرتهم وانتصارهم كانوا مستعدين دائماً ليقولوا لاعدائهم: لا تحاربونا وادفعوا إلينا ضرائب مالية معتدلة ثم تمتّعوا منا بحماية كاملة، تكون لكم من الحقوق مثل ما لنا. إنّنا لو التفتنا الى أقوال محمد(ص) أو فتوحات أصحابه في صدر الإسلام لرأينا بسهولة ويُسر كيف أن القول بأن الإسلام حمل نفسه على الناس بقوة السيف من الكذب القبيح، فالقرآن يقول: «لا إكراه في الدين»[2].

إن تاريخ الإسلام يضع في متناولنا نماذج عديدة عن المداراة التي كان يعملها المسلمون بالنسبة لاتباع ساير الاديان الرسمية، كما ضمِن شخصُ الرسول لنصارى نجران أن تبقى معابدهم في حماية المسلمين، ونهى قائد القوات التي ارسلها الى اليمن أن يؤذي أحداً من اليهود في حيطته، كذلک عامل المسلمون مع أتباع ساير الاديان غير الإسلام، فكانوا يسمحون لهم بالحرية في سننهم الدينية وآدابهم، وأن يتمتّعوا بحماية الدولة الاسلامية بدفعهم لضريبة «الجزية» التي كانت أقل من ضرائب المسلمين!

وكتب المستشرق الشهير «آدم متز» يقول: «إنّ مما ميّز الممالک الإسلامية عن اوربا المسيحية هو وجود عدد كثير من الاقليات الدينية غير المسلمة وهم يعيشون في الاراضي الإسلامية بحرية، في حين لم يتّفق مثل ذلک في اوربا المسيحية. ويُشاهد أن الكنائس والمعابد للاديان الاخرى في الاراضي الإسلامية في حرية تامّة وكأنها خارجة عن حدود

(١) وسائل الشيعة ١١: ٤٩ عن التهذيب ٢: ٨٨.

(٢) سورة البقَرة: آية الكرسي.

حكومة المسلمين، وهذه الحرية كانت من آثار عهود ومعاهدات حصل بها اليهود والنصارى على حقوقهم، بينما لم تكن اوربا تدرك شيئاً من هذا التعايش السلمي»[1].

وكتب المستشرق المسيحي والكاتب المعروف «جاك ديون بورت»:

«إن الإسلام قرّر وعمل بأصول العدالة المطلقة لا فيما بين أتباعه فقط بل فيما بين الشعوب المغلوبة المفتوحة عَنوةً وكانوا يعيشون في ظل الحكومة الإسلامية، وحتى أنه أعفى علماء سائر الاديان عن أداء الضرائب التي كانت على الكنائس وسائر الاجهزة الروحانية، وعن أنواع الضرائب التي كانوا يدفعونها للطبقة الحاكمة»[2].

وكتب العالم والمؤرخ الفرنسي الدكتور «غوستاف لوبون» يقول:

«إن المسلمين كانوا خلال بضع قرون قد غيّروا بلاد الاندلس علمياً واقتصادياً حتى جعلوها تاجاً من الفخر على مفرق اوربا، ولم تكن هذه الثورة في الامور المالية والعلمية فقط بل حتى في الاخلاق، فانّهم علّموا النصارى خصلة قيّمة إنسانية عالية – أو حاولوا أن يعلّموهم – وهي التعايش السلمي مع أتباع ساير الاديان. إن سلوك المسلمين مع الشعوب المغلوبة كان من اللين بحيث كان يُسمح لرؤساء الاساقفة أن يشكّلوا لانفسهم مجالس دينية، كما أقاموا لانفسهم مجالس دراسة دينية سنة ٨٧٢ ميلادية في اشبيلية، وسنة ٨٥٢ ميلادية في قرطبة.

ومن الكنائس الكثيرة التي كانت قد بُنيت في عهد الحكومة الإسلامية يمكننا أن ندرك مدى احترامهم وتقديرهم لاديان الشعوب المغلوبة.

نعم أسلم كثير من النصارى في حين لم تكن ضرورة تدعو الى ذلك.

في حكومة المسلمين كان اليهود والنصارى يشاركون المسلمين في حقوق متقاربة. وكان بإمكانهم أن يتسنّموا مناصب ومقامات ويزاولوا أشغالاً في بلاط الخلافة»[3].

ولا بأس بأن نقارن بين فتوّة المسلمين ومروّتهم وحريّتهم من جانب والاعمال الشنيعة

---

(١) نقلاً عن روح الدين الاسلامي لعبد العفيف طبّارة.

(٢) بالفارسية: عذر تقصير به پيشگاه محمّد وقرآن: ١٠٥.

(٣) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٣٤٥.

والمُخجلة للنصارى في الحروب الصليبية كي نقف على مغزى الغزوات في الإسلام. لقد كان فتح بيت المقدس على أيدي المسيحيين في الحروب الصليبية فتحاً وحشياً! فقد اتّفق في ذلك اليدم وقوع أبشع المجازر وأوقح الاعمال بالنسبة الى أهاليها على أيدي النصارى الفاتحين، حتى تشكّلت تلال من الايدي والارجل والرؤوس المقطوعة في ميادين هذه المدينة ومعابرها، وقد استطعمت سيوفهم في مسجد عُمر عشرة آلاف شخص كانوا قد التجأوا الى ذلك المسجد، وجرى من الدم في معبد سليمان ما كان يبلغ رُكب الافراس وتسبح فيها أجساد الضحايا!

ويقول الكاتب الاوربي «كللداك»:

«من المقطوع والمسلّم به أن عالَم الاخلاق لم ير أيّ بركة أو خير من المحاربين الصليبيّين، ذلك أنه لم تبلغ أية قوة مهاجمة من أيّة أمة في أي عصر وزمان ما بلغه هؤلاء المحاربون من الفسق والفجور والشر والفساد وإشباع الشهوات.

إن المحاربين الصليبيّين روّجوا ورغبوا في أشد نماذج التعصب المقيت والسخيف، كانت الحرب مقدّسة عندهم وبدل الدعاء والإحسان وأعمال الخير كان القتل وسفك الدماء كفّارة لذنوبهم!»[1].

وبعد حكم الصليبيّين في فلسطين أكثر من ثمان وثمانين من السنين أخذ المسلمون يفكّرون في استرداد فلسطين وبدأوا لذلك الحرب، وأرسلت اوربا ما كان في حوزتها من القوات الى آسيا لحفظ سلطتها على بيت المقدس، وبالتالي سقطت أركان حكومة الصليب في فلسطين على يد القائد الإسلامي الكبير صلاح الدين بن أيوب الكردي، ورجع جنود الصليب الى أراضي أوربا.

وفي شهر رجب من سنة ٥٨٣ هجرية (الموافق لعام ١١٨٧م) إذ استسلمت مدينة القدس لجيش الإسلام وافتُتحت أبواب المدينة بوجه جنود الإسلام الفدائيين أعلن الملك الغيور والعاقل صلاح الدين الايوبي العفو العام عوضاً عن الانتقام للمجازر العامة للمسلمين من قبل عسكر الصليب! وبذلك أضاف صفحة أخرى على مفاخر الفتوحات الإسلامية، في هذه

---

(١) بالفارسية: عذر تقصير به پيشگاه محمّد و قرآن: ١٣٩.

الحروب المؤلمة كان كل الجيش الإسلامي متأثراً بالروح الإسلامية العالية وكان سلوكهم بعيداً عن أيّ قسوة أو غلظة.

أعلن صلاح الدين أنّ كل أهالي البلد في أمان فان أرادوا الخروج من القدس الى بلادهم فعلى كل رجل عشرة دنانير وعلى كل امرأة خمسة دنانير وعلى كل طفل ديناران ثم ليذهبوا بكل مالهم وثرواتهم حيث شاؤوا. وحيث كان بيت المقدس أكثر أمناً من ساير مدن الدولة الرومانية لذلك كان أمراء الرومان الذين يعيشون في غير القدس قد أودعوا أزواجهم وأولادهم في القدس. وأراد الاسقف الكبير الخروج من القدس بكل أمواله الكثيرة، اقترح بعضهم على صلاح الدين أن يصادر أمواله فيقسّمها بين المسلمين المجاهدين. فقال صلاح الدين: لا يمكن أبداً أن ارتكب هذه الخيانة فآخذ منه أكثر من العشرة دنانير المقرّرة!

وكتب «جان ديون بورت» يقول:

«حينما استرجع صلاح الدين سلطان سورية للمرّة الثانية هذه المدينة (القدس) لم يقتل حتى رجلًا واحداً بل أظهر رحماً فائقاً بالنسبة الى الاسرى النصارى»[1].

ولم يكن توحش المسيحيين في المغرب (الاندلس) بأقل من ويلات الصليبيين في الشرق، فبعد كل تلكم الخدمات التي قام بها وقدّمها المسلمون في إسبانيا أفتى قادة الدين المسيحي بقتل الشيوخ والشباب من النساء والرجال من المسلمين، وأمر فيليب الثاني بإخراج المسلمين من أراضي إسبانيا ولكن قبل أن يتوفّق المسلمون الى ترك البلاد وقع ثلاثة أرباعهم ضحايا مضرّجين بدمائهم بحكم الكنيسة والذين سلموا من هذه المجازر الدامية الكبرى حكم عليهم في محاكم تفتيش العقائد بعد هذا بالإعدام، وبكلمة فقد قتل في هذه المدة ما يقرب من ثلاثة ملايين من المسلمين.

وكتب الكاتب المسيحي الشهير «جان ديون بورت» يقول:

«من هو الذي لم يلزم الحداد لفقد بقايا آثار الفتوة أي سقوط الامبراطورية الاسلامية في إسبانيا؟ ومن الذي لم يمتليء فضاء صدره من التمجيد والتكريم بالنسبة الى تلك الامة الشجاعة والكريمة؟ تلك الامة التي لم يستطع المؤرخون حتى المخالفين لهم أن يكتبوا

---

(١) بالفارسية: عذر تقصير به پيشگاه محمّد و قرآن: ١٣٩.

آقل نموذج من ظلم صدر منهم في طول ثمانمئة سنة من الحكم على إسبانيا.

ومن الذي لم يخجل من تحريكات الاجهزة المسيحية، تلك التحريكات التي هيّجت القوى الداخلية بما فيها من تعصب عنيف وظلم شيطاني ضدّ المسلمين، فارتكبت مظالم مؤلمة بالنسبة الى أولئك الذين كانوا قد أبدوا من أنفسهم كل تلك الإنسانية بشأن هؤلاء الجماعة أي الاسبانيين»[1].

وكتب المؤرخ الشهير «جرجي زيدان» يقول:

«وبعد أن انتصر النصارى في أندلس أجبروا المسلمين – كاليهود – على أن يحملوا معهم علامة يُعرفون بها. وبالتالي خيّروهم بين تقبّل المسيحية أو الموت»[2].

«النصارى الإنسانيّون(!) بعد أن ظفروا بالحكم في دولة إسبانيا بدّلوا مساجد المسلمين الى كنائس، وحرموا المسلمين حريتهم في إقامة شعائرهم الدينية، وخرّبوا وهدموا مقابرهم، ومنعوهم عن النظافة والاستحمام، وهدموا حماماتهم»[3].

«المجاهدون النصارى الصليبيّون الإسبان تحرّكوا ضدّ أهالي قصبة «دولان» المسلمين في عهد «هانري الرابع» فهجموا عليهم بشراسة ووحشية فخنقوهم بأيديهم وقالوا: إنّهم كانوا أربعمئة ألف نسمة»[4].

أجل، كان هذا هو معنى مسالمة المسيحيين في طول التاريخ!

وفي عالمنا الحاضر حينما نلاحظ سلوك المستعمرين المتحضّرين مع الشعوب المغلوبة على أمرها والاسيرة في أيديها، ندرك كيف أنهم يسحقون عزّتها وكرامتها ويحرمونهم من المزايا الحقيقية للحضارة، وأنهم يستعملون كل تعاليمهم وأساليبهم المرئية وغير المرئية لاستغلال النفوس والافكار وحتى الارواح، وللحفاظ على مصالحهم يحرمون الجماهير من حرية التفكير بشدة، ويجعلونهم في موقعية خاصة لا يتمكنون معها على أن

---

(١) بالفارسية: عذر تقصير به پيشگاه محمّد و قرآن: ١٣٣.

(٢) بالفارسية: تاريخ تمدن اسلام ٤: ٢٨٢.

(٣) بالفارسية: عظمت مسلمين در إسبانيا: ٢٤٣.

(٤) جنگهای صلیبی ١: ٤٧.

يخطوا خطوة واحدة على خلاف مسيرة مصالح أُولئك المستعمرين، وأنهم كلما ارتفعت صيحة تبحث عن العدالة الحقّة خنقوها في الحناجر قبل أن تنطلق.

إنّ الدفاع عن السّلام مُستمسک تتشبّث به الدول الكبرى دائماً، فهل أنّ هؤلاء الذين يدّعون أنّهم حماة السلام قد نبذوا الحروب جانباً يحلّون خلافاتهم مع الآخرين عن طريق الديبلوماسية والمفاوضات فقط؟! أم ماذا؟!

أما الإسلام فقد قرّر السلام على أساس تهذيب الانفس وتنظيم الدوافع، وهو يبدأ خلق الامن والاستقرار من خلال بواطن الافراد، وهكذا يتقدم نحو السلام العالمي والاممي، ذلك أنه ما دامت بواطن أفراد البشر لم تتمتع بالصلح والسلام الداخلي فانّ الامن سوف لا يستقر في هذا العالَم، وما لم يحكم على أفكار الجماهير البشرية ضمان أخلاقي، فان جميع النظريات والمؤسسات الطويلة العريضة سوف لا تكون أكثر من رسوم على وجه المياه! ولا تتمكن من أن تدير شؤون المجتمع البشري حيث السلام والتعايش السلمي كأُسرة واحدة كبيرة.

إن الفرد في الحقيقة لبنة تحتية أُولى لبناء المجتمع، ومن هنا فان الإسلام يبذّر بذور الامن والاستقرار من خلال العقيدة والإيمان في وجدان الإنسان، فهذا الإيمان سوف يتجلى في سلوكه وأفعاله وأعماله كحقيقة واضحة تدريجياً، فانّ الواقع في الحقيقة انّما هو ترجمة عملية لعالَم الوجدان والباطن (الضمير).

ثم هو لا يترك الإنسان على عهدة عقيدته الباطنية والروحية، بل يضع له قرارات وضمانات مُطَمئنة لا يشعر الفرد في ظلالها بشيء سوى الامن والعدالة. فالذين يعيشون في الجوّ الاسلامي يشعرون بأن أنفسهم وأعراضهم وأموالهم في الامان، فهو في الواقع يجعل أفراد المجتمع في تأمين عن الحوادث.

بينما يرى بعض المبادئ البشرية علاقة الفرد بالآخر علاقة صدام ومزاحمة ويقولون إن علاقة أيّة طبقة بأيّة طبقة أُخرى مبنيّة على الضغط والاجبار...يريد الإسلام أن تكون علاقة كلهم ببعضهم ببعض علاقة تعاون وأمن واستقرار، وارتباطهم ارتباط محبّة ومودّة، ثم هو يساعد الاتجاه نحو هذا الهدف المقدس بسلسلة من الآداب الفردية والاجتماعية والتعاليم الاخلاقية الوضّاءة والمشرقة، ويمنع بذلك عن إحياء روحية الحقد والعداوة والبغضاء في النفوس.

وحينما تعرّفت لحمة كيان الإنسان وسداه على الاحاسيس اللطيفة والمشاعر الطاهرة

غير المشوبة، واستيقظ في ضميره احساس الاخوة والقرابة، اتّقدت في قلوب الناس أنوار الرحمة والالتئام والعفو والانسجام، وضَعُفَت فيهم العوامل الاصلية في الخلافات والانفصالات والمنازعات والمعارضات والحروب، وحلّقت على مجتمعهم طيور الصفاء والسلام.

لا يمكن لايّ نظام على الارض أن يعمل بالعدل لكل أفراد البشر وفي جميع الاحوال، وإن العدالة الاجتماعية في العالَم مهما بلغت لا تقدر على رفع جميع المظالم عن جميع الناس أبداً.

إنّ تنفيذ العدالة بصورة تامّة كاملة لا يمكن للإسلام تحقيقه بما في يديه من وسائل، إذ هناك بعض المظالم تقع في العالم لا تقدر العدالة في الارض أن تدركها وتفهمها، وقد يقع بعض أنواع العدوان لا يلاحظه حتى صاحب الحق نفسه.

وحينما لا يعتقد كثير من الناس بالعدل الإلّهي المطلق الذي سينتقم للمظلومين من الظالمين يوم القيامة، فماذا يُتوقع منهم مع ذلك ؟

والآن لنلاحظ ما هو مفهوم الصلح والسلام في نظر الإسلام وفي العالَم المتحضّر ؟ إنّ الصلح الذي يريده الإسلام يتفاوت تفاوتاً عميقاً مع صلح قادة الدول الكبرى والاحزاب التي تمسك بمصائر شعوبها، ذلك أن صلحهم يعني استقرار الصلح والسلام والوئام والانسجام بين الدول الكبرى الاستعمارية كي يتمكّنوا من تقسيم منابع ا لثروات للدول الصغرى بينهم تحت عنوان السلام، ولكي يدخلوا مناطق العالَم تحت نفوذهم الاستعماري بسلام أيضاً.

وبعبارة أُخرى: إن الهدف من سلامهم هو: التفاهم فيما بينهم لنهب الآخرين! ولذلك فانهم لا يبدون أقل إقدام إيجابي وأيّ حسن نيّة في سبيل السلام الحقيقي. وأما الهتافات وعقد المجالس والابحاث والمفاوضات فانّما هي أعمال تشريفية ومساعٍ ظاهرية تنتهي من دون أيّة نتيجة عملية.

وأما السلام الذي يُريده الإسلام فهو يستقر على أساس تساوي حقوق مختلف شعوب العالم، وأن يظلّل الصلح الحقيقي من دون أيّ تمييز على رأس جميع أُمم العالَم الضعيفة منها والقوية. إن الإسلام يرسم لكل البشرية طريق الصلح الحقيقي الصلح الكامل الشامل والبعيد عن كل عدوان وفساد.

إن «بيان حقوق الإنسان» وإن كان قد اعلن عن هدفه بأنه على أساس السلام العالمي ومن أجل إحباط عوامل الاختلاف والتهاجمات، ولكن حتى لو تحقق هذا الهدف للبيان بالنسبة الى السلام العالمي، فهل تحقق حرية الفكر والإرادة لكل الامم؟ أم هـل يسود فـي حال السلم الاستعمار وخنق الحريات بين الشعوب؟

إن أصحاب المعسكرين الشرقي والغربي يقولون: انّهم يريدون استقرار نظام عالمي. ولكن هل من الممكن أن يستقر نظام عالمي من دون حرية تامّة كاملة؟

بل لا يحق الحياة للمعارضين السياسيين في معسكري الشرق والغرب عملياً، انهم بدل أن يكتفوا بعرض أسلوب أفكارهم بصورة صحيحة يحاولون أن يقضوا على عقائد الآخرين وآرائهم ومسالكهم بالضغط والقوة.

ولكنّ الإسلام لا يرى السلام كافياً لسعادة الإنسان، بل انّه يقرّر أصولاً وقيماً خاصة على أنها هي أساس الحياة الاجتماعية، فهو يهدف الى هدف أشمل وأكمل. إن الإسلام يريد أن يضمن حرية الفكر للبشر كي تتمكن المجتمعات البشرية من أن تشخّص الطرق الصحيحة والسعيدة في الحياة فتختار سلوك الطرق، ولذلك فقد انكر الاكراه وتحميل العقيدة على الآخرين في دعوته العالمية، وعنون أنّ العامل الوحيد لرقيّ عقيدته وايديولوجيته بين الامم والجماهير المختلفة هو العقل والنموّ الفكريّ: «لا إكراه في الدين قد تبيّن الرشد من الغيّ»[1].

«فذكّر إنّما أنت مذكّر * لست عليهم بمسيطر»[2].

إن الإسلام يقول بالحرية العقائدية ولا يرى صحة تقبّل الدين بالإجبار، إذ أنّ العقيدة والإيمان من الامور القلبية، ولا يتحقّق بالإجبار والضغط من دون ميول إنسانية باطنية، وانّ هناك عوامل مختلفة لانعقاد العقائد والافكار في الناس، ولذلك فان أي اصلاح أو تغيير يجب أن يتحقق من طريق التعليم والتربية الصحيحة والدليل، وإلّا فانّ القوة والاكراه لا يتمكّن من أن يزيل ما انعقد في فكر البشر من الرأي والعقيدة.

ولكن الإسلام حينما يحرر البيئة من خلال القدرة العسكرية ويزيل منها كل اختناق

(١) سورة البقرة: ٢٥٦.

(٢) سورة الأنعام: ١٠٤.

فكريّ حاكم، كان بإمكان الناس أن يعتقدوا بدين الإسلام بلا خوف ولا وجل، أو أن يتقبّلوا أي دين آخر من الاديان السماوية.

وعليه فان الإسلام لم يعمل بأي ضغط أو اكراه لاتّجاه الناس الى الإسلام.

إن المبشّرين المسيحيين والذين استنتجوا من وجود الجهاد الابتدائي أن الاسلام قد تقدم بقوة السيف، إنّ هذا الاستنباط مغرض وبعيد عن الواقع جداً.

«إنهم إن يستنتجوا هذه النتيجة الخاطئة من قانون الجهاد وغزوات رسول الإسلام، فليس ذلک عجيباً، بل العجيب الغريب أن أصحاب هذه الشبهة ليس لهم أي شغل شاغل إلّا الحروب وسفک الدماء والسلب والنهب والاستثمار، وحتى المقدسين والبابوات والرهبان منهم أوردوا من الضغوط وتفتيش العقائد على ما عدا المسيحيين، والمسيحيين المعروفين بالانحراف عن أفكار الكنائس وآرائها، ما لم يكن بأقل وحشية من توحش المغول والتاتار»[1].

إنّ عهد صلح «الحديبية» الذي عقده رسول الإسلام مع مشركي قريش، كان لاستقرار السلام العام والامن الاجتماعي في البيئة العربية بمكّة والحجاز، وإنّ مواد هذا العهد تعكس روح الإسلام والاصول الإنسانية فيه، وهو جواب دامغ بالنسبة الى أولئک المغرضين الذين يحاولون أن يعلنوا أنّ السبب في تقدم الإسلام هو القوة والإكراه. كان من بنود هذا العهد المهم قوله: «وأنه من أتى محمّداً بغير اذن وليّه يردّه إليه، وأنّه من أتى قريشاً من أصحاب محمّد لم يردّوه إليه».

فلما أجابهم رسول الله صلّى الله عليه وآله الى الصلح أنكر عامة أصحابه، وقال بعضهم: يا رسول الله، ألسنا على الحقّ وعدونا على الباطل ؟

قال: نعم. قال: فنعطى الدنيّة في ديننا ؟

قال: إن الله قد وعدني ولم يخلفني...وقال: من جاءهم من رجالنا فلا حاجة لنا فيه، ولكن على أن المسلمين بمكّة لا يؤذَوْن في إظهارهم الإسلام ولا يُكرَهون ولا يُنكَر عليهم شيء يفعلونه من شرائع الإسلام. فقبلوا ذلک»[2].

---

(١) بالفارسية: اسلام مكتب مبارز و مولّد: ٩.

(٢) بحار الأنوار ٢٠: ٣٥٢ عن تفسير القمي ٢: ٣١٣ وعن إعلام الورى في ٢: ٣٦٢.

وكان كما قال رسول الله سيهيّئ لهؤلاء المسلمين المستضعفين في مكّة طريقاً لخلاصهم، فقد جرت حوادث طلبت قريش على أثرها أن تُلغي هذه المادة من المعاهدة.

إن وجود الحروب والنزيف الدمويّ في مختلف نقاط العالم مظهر واضح من عجز الحضارة المادية عن بناء العالم على أساس القيم الإنسانية وتأمين السلام العالَمي.

أما الإسلام فبالاصول العامة التي فيه بشأن الحرب والسلم، قد حكم على عوامل نشوء الحروب الحاضرة وعلى جميع مؤجّجيها بالشجب بشدة، ويشنع على جميع الحروب التي أقامها العالم المتحضّر في سبيل منافعه المادية واسترقاق الشعوب.

ولا شك في أنه ما لم تحكم القيم المعنوية والإنسانية أفكار المجتمع، ومنها تقييم حقوق الآخرين والاستسلام أمام الحقيقة، فان من غير الممكن أن يرى العالَم تباشير السلام، وفي عالَم تحطمت فيه المقاييس الاخلاقية والاصول الإنسانية لا يمكن أن نتوقّع وضعاً أفضل من الوضع القائم الآن.

كلّما تطوّرت الوسائل التكنولوجية والحضارة المادية، وسعت الشعوب في إعداد أخطر الاسلحة الفتّاكة بحجّة أنها للحفاظ على سلامها عليها أن تكون مُعدة مستعدة، تجّلت حقيقة هي أنّ على البشرية أن تختار لعاقبة أمرها أحد طريقين لا ثالث لهما: فامّا الإنهيار التام وذوب الشعوب في نيران الحروب، أو الإيمان بالله والاتّجاه الى الاصول الاخلاقية والإنسانية التي هي أرقى هدية من أنبياء الله الى المجتمع البشري، لكي تصرف البشرية كل تلكم القوى البدنية والفكرية في سبيل سعادتها بدل أن تصرفها في سبيل فنائها وعدمها. وعلى الإنسان أن يختار بين الله والضلال، أو قل الفلاح والفناء أحد الطريقين.

ونحن نرى أن البشر سيجد يوماً قابلية أن يتعرّف على كل أُصول التعاليم لقادة الإسلام الكبار، ويتمكّن من أن يتمتع من المنبع الفيّاض في سبيل سعادته التامّة، ذلک أنه ليس للبشرية أي مفرّ أو مناص من الضلال والاضطراب وبالتالي الضياع في الحياة سوى أن يتمسک بذيل عناية الإسلام ورعايته، تماماً كما قال الفيلسوف الروسي الشهير «تولستوي»:

«إن شريعة محمد(ص) لتوافقها وانسجامها مع العقل والحكمة فانها سوف تسود العالَم»!

مكانة الاسرة في الاسلام

كما أنّ بدن الإنسان قد تركّب من وحدات مختلفة تربط بينها روابط طبيعية، كذلك المجتمع البشري قد تشكل من وحدات صغيرة هي الاسرة، فاذا ساد حسن التفاهم والعواطف الإنسانية على هذه الاعضاء العائلية، فكانت هذه الاعضاء الاسرية بمثابة سلسلة متصلة تربط حلقاتها الارتباط بل اتّحاد خاص، كانت لدينا من ذلك وفي ظل هذا الانسجام منظّمة صحيحة كاملة تامّة، وبالتالي يتأسّس بذلك بناء مجتمع قويّ وسليم تتعبّأ قواه في مسيرة السعادة العامّة.

وعلى العكس فيما لو تلاعبت الفوضى بهذه الوحدات الصغرى التي تشكّل المجتمع فابتعدت عن مسيرة الاعتدال، توقّفت عجلات المجتمعات الإنسانية عن النمو والتكامل، وقطع التشتّت والتفرقة أواصر نظام المجتمع بعضها عن بعض.

إن الإنسان بمقتضى خلقته يحبّ البقاء ودوام الحياة، وهو للوصول الى هذه الطلبة الباطنية لا يأبى عمل أي سعي أو محاولة. وإن خير وسيلة وأيسرها الى تأمين هذا الهدف الإنساني هو استمرار نسله لا نفسه، فالولد جزء من كيان الإنسان وذيل حياته ووجوده، وتبدأ مرحلة الاستجابة لهذه الطلبة الفطرية بتشكيل الاسرة والتعهد بمسؤولية العائلة.

وإنّ شطراً مهمّاً من الفعاليات والمساعي لإدارة عجلات الحياة والنشاطات الاقتصادية إنما تتحقق وتتنجزّ من خلال العلاقة بادارة الحياة العائلية.

وهنا ک أساليب تفكير مختلفة في علل تواجد الاسرة: فالزواج وتشكيل الاسرة في نظر أولئک القائلين بأصالة الغرائز الجنسية إنما هي الوسيلة الوحيدة الى تأمين الاهداف الجنسية

وإرضاء الاهواء الشهوانية فقط! وهناك طائفة أُخرى لهم ميول نفعية اقتصادية فيضفون على الزواج والاسرة بصبغة اقتصادية فهم يزعمون بأن العلاقة الزوجية نوع من أنواع المعاملات التجارية بين الاسرتين والعائلتين! وبين هذه الاساليب من التفكير وبين الهدف الاصيل من الزواج والذي هو ضرورة اجتماعية من أجل حفظ النوع وبقاء النسل، فواصل كثيرة وكبيرة.

إنّ ذلك الصفاء المعنوي والعاطفي بين الزوجين يطرد احتمال صحة قصة العامل الاقتصادي الذي يُعد أكبر تهمة متجهة الى الطبيعة الإنسانية والذي يعده البعض العامل الوحيد في حاجة المرأة الى الرجل. فالرجل وإن كان بلحاظ المال والاقتصاد لا حاجة له الى المرأة لكنّه لا يشعر بالنشاط والانبساط في الحياة من دون زوجة معه. وهناك حقيقة تقول بأن هذا الاحساس الباطني بالحاجة شعور مُودع في أعماق النفس الإنسانية، وإن كان هذا الهدف الاصلي مشوباً بالطلبات والميول الجنسية ومزيجاً بالامور والجوانب المادية.

ويقول العالم الاجتماعي الالماني «مولير» بشأن علل الزواج:

«هناك عوامل ثلاثة دفعت بالافراد الى الزواج، هي عبارة عن: الحاجة الاقتصادية (المادية) والهوى والغرام، وطلب الاولاد. وهذه العوامل وإن كانت تتواجد في جميع المجتمعات، لكن أهميتها كانت تختلف حسب اختلاف الادوار والعهود، ففي المجتمعات الاولية (البدائية) كان للعامل الاقتصادي (المادي) أهمية أكبر، وفي بدايات المدنيّة البشرية كانت الاهمية لطلب الولد، وفي الحضارات اليوم يحتل الهوى والغرام المقام الاهم»[1].

والاسلام بترغيبه في تشكيل الاسرة استجاب لنداء الفطرة الطبيعية كأفضل وسيلة للحفاظ على العفّة العامّة، وعرّف الزواج بصفته الطريق المشروع الوحيد لطلب الاولاد الصالحين واستمرار النسل في الباقين:

«وَاللّه جَعَل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيّبات...»[2].

إن الإسلام يوصي مسؤلي الاسر والعوائل بأن يُعدّوا لتزويج الشباب البالغين، للحدّ من

---

(١) بالفارسية: جامعه شناسی، ساموئيل كينگ: ٢٣٢.

(٢) سورة النحل: ٧٢.

انحراف الغريزة الجنسية لديهم عن مسيرتها الطبيعية، ولإنقاذهم من ضغط هذه الغريزة.

فربتما بل كثيراً ما يتّفق أن الشباب غير المتوفّر لهم إمكانية تشكيل الاسرة يتعرّضون للفساد والضلال على أثر ضغط القوة الغريزية، ولذلك فقد جعل الآباء والامهات مسؤولين عن تزويج أبنائهم، ورغّبهم كثيراً على العمل بهذه الوظيفة الإنسانية والوجدانية التي تورث استقرار الروح والحفاظ على الاخلاق والإيمان.

إنّ الإسلام يرى أنّ تشكيل الاسرة والعمل بأحكام الزواج هو السبيل الوحيد المشروع للمنع عن مفاسد الإفراط في الجنس، ولإسعاد المجتمع الإنساني.

روى الصدوق في كتابيه: علل الشرائع، وعيون أخبار الرضا عليه السلام بسنده عنه قال: «نزل جبرئيل على النبي صلّى الله عليه وآله فقال: يا محمّد، إنّ ربّك يقرؤك السلام ويقول: إن الابكار من النساء بمنزلة الثمر على الشجر.

وزاد الكليني بحذف السند: إن الابكار بمنزلة الثمر على الشجر إذا أدرك ثمارها فلم تُجن أفسدته الشمس ونثرته الرياح، وكذلك الابكار إذا أدركن ما يدرك النساء فليس لهنّ دواء إلّا البعولة، وإلّا لم يؤمن عليهنّ الفساد لانهن بشر.

فقام إليه رجل فقال: يا رسول الله، فمن نُزوّج؟ فقال: الاكفاء. فقال: ومن الاكفاء؟ فقال: المؤمنون بعضهم أكفاء بعض. المؤمنون بعضهم أكفاء بعض.

وزاد الصدوق: ثم لم ينزل (عن المنبر) حتى زوّج ضباعة بنت الزبير بن عبدالمطلب المقداد بن الاسود الكندي، ثم قال: أيها الناس إنما زوّجتُ ابنة عمي المقداد ليتّضع النكاح»[1].

وروى السيد ابن طاووس في كتاب (الاستخارات) نقلًا عن كتاب (الرسائل) في رسائل الائمة عليهم السلام لمحمّد بن يعقوب الكليني ورواه الطوسي في (التهذيب) بسنده عن علي بن مهزيار الاهوازيّ قال: قرأت كتاب أبي جعفر عليه السلام الى ابن أبي شيبة الاصفهاني، وفيه: «فهمت ما ذكرت من أمر بناتك وأنك لاتجد أحداً مثلك. فلا تنظر في ذلك رحمك الله، فانّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قال: «إذا جاءكم من ترضون خُلُقَه

---

(١) وسائل الشيعة ١٤: ٣٩.

ودينه فزوّجوه إن لا تفعلوه تكن فتنة في الارض وفساد كبير»[1].

إذن فالإسلام لا يعقّد مشكلة على طريق الزواج، بل هو يفيد من هذه القوة الطبيعية (الجنسية) لمصلحة الحياة الفردية والاجتماعية، وبالاضافة الى ملاحظته للراحة الجسدية للإنسان في حياته الزوجية يريد أن يؤمّن في ظلال العلاقة الزوجية إحدى قواعد السعادة الإنسانية وهي الطمأنينة الروحية والفكرية والسكون الاخلاقي؛ ذلك أنّ من كانت روحه مضطربة فانه لن يدرك القيمة الحقيقية للسعادة أبداً!

والإسلام يرى أنّ هذه العلاقة الإنسانية علاقة مقدسة بين القلوب، وهي من عوامل السكون والطمأنينة، ومن أجل الحصول على الاستقرار والراحة، ولكي يبني الطرفان في ظلّهما حياة سليمة هادئة، ولذلك فهو يضفي عليها صورة نزيهة وطاهرة، ويبذر في أعماق قلوبهما بذور المودّة والمحبة، وينفخ فيهما روح الإنسانية ونسيم الرحمة:

«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودّةورحمة إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون»[2].

إنّ الإسلام قرّر قوانين واحكاماً من أجل تحكيم العلائق بين أعضاء العائلة الواحدة وبين العوائل والاسر بعضها ببعض ونظّم علاقاتهم بأسلوب دقيق عميق.

عبّر عن الزواج بقوله سبحانه: «وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً»[3] وقد أبعد عن نظرته الى الزواج كل المسائل المادية (تقريباً) وقد قسّم الوظائف والتكاليف لإدارة هذه المؤسسة أو المنظمة بصورة عادلة بين الطرفين ليتمتع أعضاء العائلة بوحدة معنوية وصورية ولتدور روابطهم حول محور الوحدة التامّة، بحيث يتعهد كل منهم بمقتضى استعداده ومهارته في فنّه بإدارة شطر من أمور الحياة العائلية:

«ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف»[4].

---

(١) وسائل الشيعة ١٤: ٥١.

(٢) سورة الروم: ٢١.

(٣) سورة النساء: ٢١.

(٤) سورة البقرة: ٢٢٨.

وقد لاحظ في صعيد العمل والشغل كل الإمكانيات الطبيعية وفطرة كل من الرجل والمرأة بصورة دقيقة، فمن جانب يتعهد الرجل بالشؤون الاقتصادية والانتاج المادي وسائر الامور المتعلقة بذلک، ومن جانب آخر تتقبّل المرأة التوليد الإنساني وتربية النسل والإشراف على أمور الاسرة كوظيفتها الاصلية.

إن الاسلام جعل المرأة بذلک تتعهد بوظيفتها الفطرية، ولم يبخل عليها بحمايتها والدفاع عن حقوقها بهذا الشأن، وهو يمنع من أن تفسد فيها أبعادُها الطبيعية، وأن تذهب سدى مساعيها وأتعابها ولحمة محاولاتها المستمرة في داخل الدار وخارجه متقطعة منهكة ومبعثرة.

نعم هو يجوّز لها أن تقدم المرأة على أعمال أُخرى خارجة عن شؤون البيت والدار، حسب الحاجات الاجتماعية أو حاجاتها الفردية، ولكنّه لا يجوّز أبداً أن تقوم علاقات المرأة والرجل في ساحة المجتمع على أساس التمتع والاهواء الشهوانية الحيوانية فتبرز المرأة بصورةٍ محركة مهيّجة للرجال في مجال المجتمع وتُباشر الرجال مباشرة جنونية لا نتيجة لها سوى إثارة ما يورث الفتنة والشر والفساد والضلال والضياع.

لا شک في حاجة كل منظمة الى الوليّ والقيّم، والاسرة والعائلة منظمة لا تستغني عن مقام مسؤول ووليّ قيّم، وإلّا فانّ المنظمة من غير مسؤول ستُصاب بالفوضى وتنجرّ الى الفناء والدمار. ولهذا فلا بدّ من أن نعهد برئاسة الاسرة وولايتها وقيمومتها الى واحد من الرجل أو المرأة، والآن لنلاحظ أن أي واحد من الرجل والمرأة كفؤ لهذه الولاية والقيموميّة.

والرجل أجدر من المرأة بقبول المسؤولية عن هذه المنظمة وعن إدارة شؤون الاولاد والقيام بوظائف الولاية وتحمّل عبء القيموميّة الثقيل، بل هو الوحيد الذي بإمكانه أن يتحمّل ثقل المسؤولية بقدرة واستقامة فيحفظ كانون الاسرة من الفوضى.

لقد ثبت أنّ الانثى أكثر تأثراً بالعواطف، فهي بالنظر الى نفسيّتها قد خُلقت بحيث تكون العواطف أعمق أثراً وأشد في ضميرها، بحيث تتأثر وتتهيّج بالاحاسيس أسرع من الذكر، بينما الرجل بالنظر الى فطرته وطبيعته أطوع للعقل وأقرب.

وعليه فان «الفكر» أحرى من «العاطفة» بقبول المسؤوليات، ولهذا فقد اختار الاسلام

الذكر لرئاسة الاسرة[1] ولا منافاة بين هذا وبين المشاورة والتفاهم التام بين الزوجين، ولا يمكن أن نستنتج من ذلک أن للرجل أن يسلک في محيط الاسرة سبيل الاستبداد والديكتاتورية كيفما يشاء، فمع أن الاسلام أودع هذه الولاية الى عهدة الذكور منعهم في نفس الوقت عن أي ظلم أو اجحاف بالنسبة الى النساء:

«وعاشروهنّ بالمعروف»[2].

صحيح أن مسؤلية أمور الاسرة على عهدة الرجال، ولكن لها في محيط البيت الاستقلال الداخلي، فهي المسؤولة عن تنظيم وسائل العيش وتربية الاولاد، فقد روي عن رسول الإسلام صلّى الله عليه وآله قوله:

«الرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على أهل بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم»[3].

أما ما نراه من أن العلاقات الزوجية في عصرنا هذا أصبحت رخيّة هيّنةً بلا دوام حتى أنها أصبحت تضمحل بكل سهولة بحوادث صُغرى وبلا أهميةٍ...فذلک لعلةٍ هي أن في مثل هذه الزيجات لا تلاحظ واقعيات الحياة، وأنها إنما كانت مبنيّة منذ البداية على أساس سلسلة من الافكار والرؤى والتصورات الصبيانية غير الناضجة.

هناک الكثير من الناس لا ينظرون في زواجهم الى الانسجام في الافكار والتلاؤم في الروحيّات بين الرجل والمرأة، بل يسعون وراء الثروة والشهرة وسائر العناوين الوهمية والظواهر المغرية، ثم هم يغضّون عن القيم المعنوية والروحيةويسحقون مصالحهم الواقعية بأرجلهم؛ فطبيعيٌ أن يكون لهكذا زيجات مستقبل مظلم مؤسف، فانّ التناقض الفكري والروحي العميق بين الرجل والمرأة يجعلهما كقطبين متخالفين متقابلين متواجهين وجهاً لوجه، وسيزيد يوماً بعد يوم في عمق الانفصام والخلاف بين الطرفين، وسيولّد بينهما نوعاً من الفوضى وعدم اللالتيام. إن حصول الاستقرار الروحي والفكري في الحياة العائلية والتقوى بين

---

(١) وقد صرّح القانون الفرنسي في المادة ٢١٣ بقوله: إن زعامة الاسرة على عهدة الذكر.

(٢) سورة النساء: ١٩.

(٣) تنبيه الخواطر ونزهة النواظر المعروف بمجموعة الشيخ ورّام بن أبي فراس: ٦، ط. طهران.

الطرفين، وإنّ ملاحظة شرائط المحيط والبيئة والجوّ العائلي لتربية المرأة، والتوافق بين أفكار الطرفين وأخلاقهما، من العوامل المهمة في تحكيم بناء الاسرة جداً.

ما لم يكن للطرفين أفكار أصولية مقدّسة، وما لم تُلاحظ مسائل الحياة الحقيقية بمنظار صحيح فان الاضطراب والقلق سيزداد بينهما يوماً فيوماً.

والإسلام بالنظر الى كل المفاسد التي تحصل في هذا السبيل يطرد بشدة أسلوب التفكير هذا (الماديّ) الّذي لا ثمرة له سوى البؤس والتعاسة والشقاء والنزاع والاختلاف. إن الإسلام لا ينظر في تشكيل الاسرة الى الثروة والشهرة والظاهر المُغري والامور المادية، بل انه يقرّر الزواج على محور الإيمان والفضائل والعفة والنزاهة، فهو يلاحظ الصفات والمزايا الروحية وطهارة النفس والتقوى في الذكر والانثى بصورة خاصة.

روى الطوسي في (التهذيب) بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: «من تزوّج امرأة لا يتزوّجها إلّا لجمالها لم ير فيها ما يحب، ومن تزوّجها لمالها لا يتزوّجها إلّا له وكله الله إليه. فعليكم بذات الدين»[1].

وكما رغّبت النصوص الإسلامية في الزواج وتشكيل الاسرة على مبنى الدين حتى:

روى الصدوق في (كتاب من لا يحضره الفقيه) بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال: «ما بني في الإسلام أحبّ الى الله عزوجلّ من التزويج»[2].

وقد انكر بشدة على الذين يمتنعون عن تشكيل الاسرة لعلل غير صحيحة ولا معقولة، ويستنكر كل ذريعة تؤدي الى الضلال والانحراف في القوى الجنسية:

فقد روى الكليني في «فروع الكافي» بسنده عن الصادق عن علي عليهما السلام قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «من أحبّ أن يتّبع سنّتي فانّ من سنّتي التزويج»[3].

وروى الصدوق في (الخصال) بسنده عن علي عليه السلام قال: «تزوّجوا فانّ التزويج

---

(١) وسائل الشيعة ١٤: ٣١ عن التهذيب للشيخ الطوسي ٢: ٢٢٦.

(٢) وسائل الشيعة ١٤: ٣ عن الفقيه ٢: ١٢٣.

(٣) وسائل الشيعة ١٤: ٦ عن فروع الكافي ٢: ٥.

من سنة رسول الله، فانه كان يقول: من كان يحب أن يتبع سنتي فان من سنتي التزويج»[1].

ونقل المحدث القمي في «سفينة البحار» عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «النكاح من سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني»[2].

ولا يوافق مع إحداث العلاقة الزوجية مع مفتقدات الكمالات والفضائل النفسانية، ولا يرى من الصالح الزواج من أسر وعوائل تعوزهم النجابة والذين لا حظّ لهم من التربية الاخلاقية والدينية:

فقد روى الكليني في «فروع الكافي» بسنده عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قام خطيباً فقال: «أيها الناس، إياكم وخضراء الدمن، قيل: يا رسول الله وما خضراء الدمن؟ قال: المرأة الحسناء في منبت السوء»[3].

وطبيعي أن هكذا أزواج لا يتقيدن بالاصول والقوانين الاخلاقية والدينية سوف لا يؤمنّ سعادة الاسرة، ومن الطبيعي أن نتيجة هكذا زيجات ستكون أولاداً يفتقدون الطمأنينة والاستقرار الروحي.

فالإسلام له عناية خاصة بتأمين السعادة للطرفين، وهو بنهيه عن الزواج من الاسر المنحطة أخلاقياً والمتلوثة بالآثام حاول الحد من تواجد جيل فاسد ومنحرف. فلو أنّ الشباب حين اختيارهم لازواجهم كانوا يلاحظون الامور الواقعية والحيوية على أساس المقررات والقوانين الإسلامية بدلاً من ملاحظة الظواهر المغرية، وكانوا يجتنبون اتباع الافكار الخاطئة والاهواء الفانية، لكانوا يأمنون بذلك من البؤس والتعاسة والشقاء والاضطرابات العائلية التي قد ضيقت الخناق على الكثير من أتباع الاهواء والشهوات.

يزعم بعض شباب عصرنا هذا أنّ الطريقة الصحيحة لاختيار الزوجة هي أنهم من خلال المعاشرة والسلوك يحصلون على الزوجة الموافقة والمثالية، وبهذه الطريقة يؤمّنون سعادة الحياة المشتركة...في حين أنّ هذا السلوك الاختباري بالاضافة الى ما فيه من مفاسد وأضرار

---

(١) وسائل الشيعة ١٤: ٣ عن الخصال ٢: ١٥٧.

(٢) سفينة البحار ١: ٥٦١.

(٣) وسائل الشيعة ١٤: ٢٩ عن فروع الكافي ٢: ٥ والفقيه ٢: ١٢٦ والتهذيب ٢: ٢٢٧.

ليس طريقاً مفيداً لتشخيص الخصائص والصفات الروحية للتي يختبرونها هكذا للزواج بها، فان معرفة مزايا كل أحد وصفاته الاخلاقية تستلزم مرور زمان ومعاشرات طويلة، ولا يمكن أن نصل الى زوايا وأعماق طبائع الخلائق في طي معاشرة قصيرة غير ممتدة. ثم إن هناك إمكانيات واستعدادات وروحيات لشخصية كل فرد سوف تظهر بسبب حوادث الحياة، إن الحياة بمختلف أصعدتها وساحاتها هي التي تبدي الشخصية الروحية الباطنية لاي إنسان؛ فالصبر والحلم، والاناة والمتانة، والتحمّل والقناعة والفداء والتضحية انّما تتجلّى ضمن ضغوط الحياة ولا تحصل هذه الصفات والمزايا إلّا فيها، وإلّا فكيف ندرك هكذا خصائص أخلاقية في عهود السرور والاستقرار وتجوال الراحة والنزهة؟! فهل أن اللقاء في محيط السينما مثلًا أو المنتزهات يمكن أن يصبح مقياساً للتعريف بروحيات الطرفين بعضهما لبعض؟! بينما يسعى الطرفان في المعاشرات البدائية أن يغطّيا على ما فيهمامن نقائص ونواقص، وحتىأنهما سيصطنعان لانفسهما بعض الحالات الخيرة والجيدة والحميدة.

هل إن الشباب وهم في أشد أدوار الانفعالات الغريزية وأكثرها قلقاً واضطراباً وتموجاً وهياجاً يمكنهم أن يلاحظوا عدم وجود أية نقاط ضعف واختلاف روحي بينهم؟ بينما هم في دور من الشباب لا يفكّرون فيه بشيء سوى إشباع الاطماع الجنسية وتحقيق أحلام هي من قبيل الاوهام!

هل أن الشباب الذين يختارون أزواجهم بأساليب السلوك والمعاشرة يأمنون حتى آخر أعمارهم من الخلافات والمشاجرات فيما بينهم؟! وهل سيتمتّعون في ظل هذا الزواج بحياة سعيدة بعيدة عن أي مشاجرة وعن أيّ خلاف رغبة؟! بل إنّ حوادث الحياة وواقعياتها تثبت خلاف ذلك.

فكم من زيجات من هذا القبيل يدرك كل واحد منهم المعايب والنواقص والنقائص في الطرف الآخر تدريجياً، في حين لم يعثر أي واحد منهما في المراحل الابتدائية حتى على واحدة من تلك المعايب والنواقص والنقائص.

على كل شاب أن يعلم بحقيقة هي أنّه من المشكل جداً بل من المستحيل أن نحصل على التوافق وانسجام روحي من كل الجهات والجوانب بين نفرين من البشر، كما انّ الاتّحاد في كل الجوانب الظاهرية الشكلية بعيدٌ بل ممتنع. أضف الى أن تلك العواطف

والاحاسيس المختلفة المتواجدة في أسلوب تفكير المرأة وآرائها تبعد بها شيئاً ما عن أسلوب الفكر والعمل من الرجل سواء شئنا أم أبينا.

نعم نظراً للاهمية التي يوليها الإسلام للزواج يجوّز للرجل أن يرى ظواهر مخطوبته قبل وقوع العقد، ويسمح له أن يحصل على خصائصها الروحية والاخلاقية من خلال الناس المطّلعين عليها حتى الإمكان ويستثني ذلك من التجسّس الحرام والغيبة المحرّمة.

إن سعادة الاسرة ترتبط في الدرجة الاولى بكيفية روابط المرأة بالرجل وتعايشها السلمي، فكلما كانت الأواصر الروحية والاخلاقية بين هذين العضوين الاصليين أثبت وأوكد وأوطد، كانت السعادة في ذلك البيت أكثر بنفس النسبة.

والسعادة الواقعية تحصل على أثر الملكات الاخلاقية والفداء والتضحية بين الزوجين، وحقاً إن لين الكلام والسخاء والعفو والفداء هي التي تمنع بناء الاسرة عن التزلزل والانهدام.

إن الإسلام بالاضافة الى القوانين والقرارات الشاملة التي وضعها للرجل والمرأة في محيط الاسرة، وبالاضافة الى تعيينه المسؤليات والوظائف لكل منهما بطريقة عادلة...يسوق الاسر والعوائل بسلسلة من التعاليم الاخلاقية القيّمة باتجاه السعادة الواقعية والحقيقية.

فهو من جانب يوصي الرجل أن لا يبخل بالنسبة الى أسرته بأيّ إحسان:

فقد روى الصدوق في (كتاب من لا يحضره الفقيه) عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال:

«ألا خيركم خيركم لنسائه، وأنا خيركم لنسائي» أو قال: «خيركم خيركم لاهله وأنا خيركم لاهلي»[1].

وهو من جانب آخر يَعدّ حسن السلوك مع الزوج «جهاداً مقدّساً» للمرأة:

«جهاد المرأة حسن التبعّل»[2].

ومن العوامل المهمة في العصر الحاضر التي سببت في ركود عملية تشكيل العوائل والاسر بين الشباب وتقليل أرقام الزيجات، هي المهور الثقيلة والتشريفات الكثيرة

---

(١) وسائل الشيعة ١٤: ١٢٢ عن الفقيه ٢: ١٤٢، ١٨٣.

(٢) وسائل الشيعة ١٤: ١١٦ عن فروع الكافي ٢: ٦٠ والفقيه ٢: ١٤١ والخصال ٢: ١٦١.

والمصاريف الباهضة، فإذ لا يقدر كثير من الشباب على تحمل هكذا مصاريف يحول ذلك دون الإقدام على الزواج.

إنّ كل هذه القيود الاجتماعية الزائدة والتي لا أساس لها على صعيد تشكيل الاسرة لا تنطبق مع أهداف الإسلام، فالإسلام يسّر حصول هذا الامر الحيويّ كثيراً من أجل تحقيقه بسهولة، وكافح كل العوامل التي من شأنها أن تمنع الناس عن العمل بهذا التكليف، فيأمر بتقليل المهر وتيسير مقدمات الزواج:

فقد روى الكليني في «فروع الكافي» بسنده عن الصادق عليه السلام عن النبيّ قال:

«أفضل نساء أمتي أصبحهنّ وجهاً وأقلّهنّ مَهراً»[1].

ولا ريب أن المرأة عند حدوث الخلاف بينها وبين زوجها تعتمد على «مهرها الثقيل» فتبدي أمامه الصعوبة واللجاجة ولا تكون مستعدة للعفو والصفح، ولعل كثيراً من هذه الخلافات تؤدي إلى انحلال كانون الاسرة وواضح كم يكون هكذا زواج شؤماً.

روى الكليني في «فروع الكافي» بسنده عن الامام الباقر عليه السلام قال:

«جاءت امرأة الى النبي صلّى الله عليه وآله وسلم فقالت: زوّجني.

فقال رسول الله: مَن لهذه؟ فقام رجل فقال: أنا يا رسول الله زوّجنيها. فقال: ما تعطيها؟ فقال: ما لي شيء. فقال: لا.

ثم أعاد رسول الله الكلام، فلم يقم أحد غير الرجل.

ثم أعادت. فقال رسول الله (للرجل): أتُحسن من القرآن شيئاً؟ قال: نعم، قال: زوّجتكها على ما تُحسن من القرآن فعلّمها إياه»[2].

فالإسلام لا يرى المشاكل المالية تمنع عن تشكيل الاسرة، ولا يسبّب الحرمان المالي لحرمان آخر للطبقة الفقيرة في الحياة، بل يسمح للفقراء الذين لا مال لهم أن يفيدوا من قانون تشكيل الاسرة بما لديهم حتى ولو كان تعليم بعض السور القرآنية.

إن الاستيحاش من الفقر والمشاكل المالية من العوامل التي تسبّب في أن يتخلّى كثير

---

(١) وسائل الشيعة ١٥: ١٠٠ عن فروع الكافي، والصدوق في الفقيه ٢: ١٢٤ والتهذيب ومعاني الاخبار: ٤٩.

(٢) وسائل الشيعة ١٥: ٤٢٣ عن فروع الكافي ٢: ٢١ والتهذيب ٢: ٢١٤.

من الناس عن تحمل عبء هذا الامر الحيوي فلا يتحملوا ثقل الزواج، بينما الإسلام لا يرى هذه الذرائع حججاً مانعة عن وقوع الزواج، بل يؤمّل الناس بأن الله يجبر فقرهم بزواجهم فيقول: «وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله»[1].

لا ريب أن حاجات الحياة تدفع بالإنسان الى النشاط والسعي الدؤوب، وحينما يتعهد الفرد بمسؤولية الاسرة فانه لإدارة حياته وقضاء حاجاته وحاجات أُسرته سوف يزيد في فعّالياته ونشاطاته، ولهذا فمن الصحيح أن نرى الزواج أحد عوامل التقدم والرّقي على صعيد الحياة.

أما في بلدان الغرب من العالم المتحضّر فانّ الانحلال الجنسي قد سبّب في تقليل علاقة الشباب وميلهم الى تشكيل الاسرة وعدم اعتنائهم بفطرتهم وطبيعتهم فضلّا عن معنويتهم، وهم بذلك سيسحقون هذا الاصل الاجتماعي الضروري لسلامة المجتمع. إن انتشار وسائل العيش واللذة والحرية اللّامحدودة ورفع الحواجز قد غيّر محاور حياة الشباب وصعّد من مستوى الانحرافات فيهم كثيراً.

إن تقليل أرقام الزواج وزيادة الخلافات العائلية وزيادة الطلاق شواهد ناطقة بتزلزل كيان الاسرة في العالم الغربي.

كتب العالم الاجتماعي الشهير «ويل دورانت» يقول:

«حيث أن الزواج لايقع في مجتمعنا الحديث بمعناه الصحيح، إذ يقع على أساس العلاقة الجنسية فقط لا الشعور بالابوة، لذلك فهو ينجر الى الانحلال بسرعة، ذلك أن هكذا زيجات تفتقد العلاقة بالحياة وحبّ النوع ستنحلّ بسرعة، وحينئذٍ تصبح المرأة والرجل – وكأنهما جزءان منفصلان مستقلان – يعيش كل واحد منهما لنفسه، وبالتالي يتبدل حبّ النوع – المتمثل في العشق – الى حبّ الذّات والظواهر الكاذبة.

وعندئذ يعود الى الرجل الميل الى أن يجد كل يوم لنفسه طُعمة جديدة، حيث انه يفتقد ذلك الانس الخاص الذي كان يخفّف من همومه ويمنحه الاستقرار، لا يجد من زوجته

(١) سورة النور: ٣٢.

شيئاً جديداً غير ما كان لها وعرضته له حتى اليوم...

نحن نسبح في خضمّ التغييرات، وسينتهي مصيرنا الى حيث لا اختيار لنا فيه.

إنّ من الظواهر التي تبدو اليوم مع كل هذه الامواج العاتية في تحديث السنن والرسوم والانظمة هو أن تشكيل الاسرة قد اتّجه في مدننا الكبرى الى حيث الزوال، إن الزواج الذي كان يقنع الرجل بالتفكير في زوجة واحدة قد فقد أهميته، ولا ريب أن عدد الزيجات التي تقع على أساس اللّذّة فقط في ازدياد واطّراد يوماً فيوماً...

ومع أن الرجل هو الذي يتمتع في هذه الزيجات بحرية أكثر، لكنّ المرأة تدعم هكذا زيجات أيضاً لانها تراها أفضل من الوحدة والعُزلة بلا صديق ولا رفيق.

أجل سيحدث اختلال شديد في صعيد الزواج الاصيل، وستصبح الانثى تبعث الذكر على القلق والاضطراب وعلى أن يجرّب احدهما الآخر قبل الزواج، ثم بازدياد الطلاق سيحدث ضحايا الطلاق والاسر المنكسرة اغتشاشاً شديداً في البلدان، مما سيجعل أُسلوب الزواج على صورة حديثة لا نعرفها اليوم»[1].

إن الذين يبحثون اليوم بحرارة عن حرية المرأة في الغرب، لا علم لهم بالنهضة الفكرية الاسلامية بشأن المرأة والتي كانت قفزة ثورية حسب شرائط المحيط يومئذٍ، وإنّ من يدرس واقع هذا الدين وروحه وتاريخه بعضها مع بعض يدرك تماماً أن الحضارة الغربية ما زادت على القفزة الثورية الإسلامية شيئاً بشأن المرأة سوى الحرية الاكثر لمفاسد الاخلاق والانحلال والميوعة والمجون.

بينما الإسلام يمنع عن نشر الفساد والانحلال والميوعة والمجون والابتذال الخلقي ولكن هل أن منع المرأة عن ذلك يحول دون تقدمها وتطوّرها ؟ وأيّ هذه الامور تسبّب في كرامتها ورفعة شخصيتها وتساميها ؟!

إن الإسلام يرى أن الرجل والمرأة قد قدما الى دائرة هذا الوجود كي ينالوا المدارج الإنسانية السامية والكمالات الروحية والمعنوية، وهو خلافاً للكتب المحرّفة من اليهود والنصارى إذ تقول: لا يوجد بين كل ألف من الرجال رجل من أولياء الله، ولا يوجد بين جميع

---

(١) بالفارسية: لذات فلسفه.

نساء العالَم حتى امرأة واحدة تكون موضع عناية إلّهية خاصة[1]. هو يقول: لا ميزة لايّ من الذكر والانثى بعضهما على بعض، إنّما مقياس امتياز الافراد من الذكر والانثى المزايا الروحية والاعمال الصالحة، وسيرون ثمار أعمالهم ونتائجها يوم القيامة على قدم المساواة، وكذلك أمّل كل واحد منهما في العفو والمغفرة والإحسان:

«من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون»[2].

إنّ الذكر والانثى في نظام الاسلام يكمل أحدهما الآخر والظرافة والخشونة وسائر الاوصاف لا توجب مزيّة لاحدهما على الآخر:

«...فاستجاب لهم ربّهم أنّي لا أُضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أُنثى بعضكم من بعض»[3].

فكم هناک من النساء من نالت مراتب إنسانية سامية بل بلغت الى غاية مراحل السعادة بطاعتها لحكم العقل وامتلاكها للفضائل الاخلاقية، وفي المقابل كم هناک من الرجال مـن سقط في هوة التعاسة والشقاء باتّباعه لميوله وأهوائه وانحرافه عن أحكام العقول.

لقد تطورت شخصية المرأة بعد طلوع الإسلام الى مكانة أصبحت تشرف على أعمال الحكومات وأوامرها وسلوكها وتتدخّل في ذلک. يشهد لذلک هذا النموذج التاريخي الذي يرويه السنة والشيعة يقولون:

نقل ابن الجوزي في «المنتظم» قال: صعد عمر «رضى اللّه عنه» المنبر فقال:

«أيها الناس، لا تزيدوا في مهور النساء على أربعمئة درهم، فمن زاد ألقيت زيادته في بيت مال المسلمين» فهاب الناس أن يكلّموه.

وقامت امرأة في يدها طول فقالت: كيف يحلّ لک هذا واللّه يقول:

---

(١) بالفارسية: تمدن اسلام وعرب: ٥١٩ نقلًا عن الكتاب المقدّس.

(٢) سورة النّحل: ٩٧.

(٣) سورة آل عمران: ١٩٥.

«وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذ منه شيئاً»[1].

فقال عمر «رضي الله عنه»: «إمرأة أصابت ورجلٌ أخطأ»[2].

وحينما نقيس هذه الحادثة وما يشابهها بالوضع المؤسف للنساء قبل الإسلام ندرك جيداً مدى التفات الإسلام الى شخصية المرأة واستقلالها، حتى أن المرأة تُطلق لسانها أمام الخليفة بالاعتراض عليه وعلى قراره، حتى تحمله على أن يعترف في الملا العام بخطائه واشتباه الامر عليه، وتجعله يصرف النظر عن قراره المخالف لنصّ كتاب الله الكريم.

أجل، هذا هو الإسلام الذي سحب الرجال وأنزلهم عن رتبة مالكيّتهم لرقبة المرأة فأنقذ بذلك النساء عن قيد الاسر والرقيّة، ثم اثبت تساويهما في مرتبة الإنسانية.

إن المساواة التي قرّرها الإسلام بين الرجل والمرأة في أصل الإنسانية والحقوق المتعلقة بنفس هذا الاصل مساواة فطرية طبيعة، أما التساوي المطلق في الذّات والماهية وفي الوظائف وتكاليف الحياة وأساليبها فهي مما لا يمكن إلّا في عالَم الخيال والوهم ثم لا تتحقّق في عالم الواقع الخارجي أبداً.

إنّ الإسلام في تشريعه ناظر الى الحاجات الطبيعية والفطرية للبشر ولهذا فقد ساوى بين الرجل والمرأة في الموارد التي يكون تساويهما فيها منطبقاً مع الفطرة والطبيعة، وفيما لو كان المنطبق مع الفطرة والطبيعة تفاوتهما فيه قال بتفاوتهما فيه.

أما القوانين في الدول الاوربية المتحضّرة فقد كانت تحرم المرأة عن جميع حقوق الملكية والتصرف في الاموال:

في القانون الذي وضع في بريطانيا في سنة ١٨٥٠م لم تعد المرأة من أتباع البلاد، ولم يكن لها حق الملكية، حتى أنها لم تكن تملك الملابس التي عليها. وأصدر «هانري الثامن» مرسوماً منع فيه النساء عن قراءة الكتاب المقدس[3].

وفي سنة ١٨٨٢م صدر قانون في بريطانيا استحقت النساء به عدة امتيازات لا نظير لها

---

(١) سورة النّساء: ٢٠.

(٢) الغدير ٦: ٩٥ - ٩٨.

(٣) عن روح الدين الإسلامي لعبد العفيف طبارة: ٢٣١.

من قبل، منها أنه يحق لها أن تصرف ما تحصل عليه كيفما تريد ولا تجبر على تقديمه الى زوجها!

بينما قد أثبت الإسلام الاستقلال المالي للمرأة وحق الملكية وأنواع التصرفات منذ أربعة عشر قرناً من دون رقابة الرجل وقيمومته عليها، وأعطاها الحق في أن تعمل فيما تحصل عليه من الاموال من طريق الكسب والتجارة أو الهبة والهدية،وماشاءت من التصرفات من دون أن تكتسب لذلك اذن زوجها أو أيّ شخص آخر. وهذا حقاً من مفاخر الإسلام:

«للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبنّ»[1].

وبالإضافة الى الحقوق المتعلقة بالملكية فقد أمّن الإسلام شخصية المرأة واستقلالها وحريتها في مسألة الزواج الذي هو أهمّ مسائل حياتها وأكثرها حسّاسية، وقرّره حقاً مطلقاً من حقوها وباختيارها وإرادتها، فهي التي بإمكانها أن تختار الرجل الذي تريده.

أجل، لقد أعطى الإسلام هذه الحقوق للمجتمع النسوي منذ ظهوره، بينما حصلت نساء أوربا على هذه الحقوق والمزايا قبل قليل من السنين بحكم الضغط والضرورة.

وعلى ما مرّ نقول: ليست هناك أية مشكلة من المشكلات التي تتعلق بحياة المرأة ومكانتها وشخصيتها لم يحلّها الإسلام على أحسن الوجوه.

واليوم وإن كانت حالة كثير من النساء في الشرق حالة غير مرضية، ولكنّ هذا النقص ليس من نقص في النظام والقانون الإسلامي، بل إن عمدة الإشكال في الامر يتعلق بالاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية وكذلك النظام اللّاإسلامي الذي يسود مجتمع المسلمين اليوم، ولذلك فان علينا أن نفتّش عن منشأ هذه النقائص في تلك الامور لا الإسلام.

فالفقر العام أحد علل الاضطراب في أوضاع النساء في المشرق، وإنّ المظالم الاجتماعية جعلت جماعة في غاية النعمة والرفاهية، بينما قذفت بجماعات أخر في لهوات البؤس والتعاسة والشقاء والجوع، وهذه المظالم قد سلبت قوة المقاومة والتحمل في الرجال، فما يحملونه من عُقد الفقر في المجتمع وأحوال معيشتهم يفجّرونها بروؤس أزواجهم وأولادهم فيصبّون جام غضبهم وعنادهم في محيط الاسرة.

---

(١) سورة النّساء: ٣٢.

والمسكينة المرأة في هذا الوضع لا تقدر على أن تفيد من حقوقها فتحد دون تجاوز الرجل وعدوانه، فهي تخشى أن ينتهي أمرها الى الانفصام والطلاق، ثم لا يقدر أقرباؤها أن يجعلوها تحت حمايتهم وفي كفالتهم.

ولا ريب في أن الفضائل الاخلاقية لا يمكن أن تُراعى في مجتمع الفقراء والمحرومين، فالعواطف الإنسانية السامية تنعدم فيه، وتحتل القوة والجور كل مكان للملكات والفضائل الاخلاقية.

وعليه فانّ أول عامل جعل النساء في الشرق في هذا الوضع المأساوي هي مشكلة الفقر.

وليس محلّ أي تردّد في أنه ليس النظام الاجتماعي الإسلامي هو الذي أحدث كل هذا الاضطراب واليوم الاسود للمرأة لم يحدث من ناحية أحكام الإسلام.

إذ الإسلام هو النظام الذي يكافح الفقر والجور، ويوزع الثروات العامة بين طبقات الناس على أساس العدل، ويحرّم الإسراف والتبذير، وينفي المظالم الاجتماعية والفواصل الطبقية، ولا يدع الجور في المجتمع ويجعل الرجل تحت التعذيب بسياط الحرمان، حتى يهجم بالجور على زوجته وأولاده نتيجةً للعُقد الكامنة في نفسه، والمرأة تنصرف عن المطالبة بحقوقهاخوفاً من السقوط في لهوات الفقر والحرمان.

أفهل لعاقل منصف أن يدّعي أن هذه العُقد المتراكمة في أعماق قلوب الفقراء من الرجال والتي تسبّب في أن يجعلوا أزواجهم وأولادهم وأعضاء عوائلهم تحت ضغط الحرمان...يدّعي أن هذه من الإسلام في شيء؟!

أفلا تبتنى أحكام الإسلام على أساس تهذيب النفس ورعاية العدالة والاكرام والمحبة بكل الناس ولا سيّما أعضاء الاسرة الواحدة؟!

كان هذا هو الإسلام الذي أنقذ النسوان عن الوضع المؤسف والمنحط الذي كنّ فيه، وبذلك أحرزن في ظل نظامه مكانتهنّ ومقامهن اللائق بهنّ.

والآن لنلاحظ ما للمرأة من القيمة والمكانة في العالم المتحضّر اليوم؟

لم ترتفع موقيعة المرأة ومكانتها في عصر حضارة البشر، بل انحطّت أكثر، إذ تُعدّ المرأة في العالم المعاصر لاطفاء الشهوات الحيوانية للرجال، ويستفاد منها للدعايات المختلفة وكوسيلة للتسلية من قبل السينما والتلفزيون ولبيع البضائع.

فليس اليوم مقياس شخصية المرأة وشهرتها الفضائل الاخلاقية والمعلومات الكافية، والمتّقيات منهنّ مجهولات، والكرامة والشهرة والربح الفائض لنساء يسمين أنفسهن «بالفنانات» وهنّ لا يؤدّين أيّ عمل إيجابيّ في المجتمع، ولسن مصادر خير للناس بل يرتكبن باسم الفن آلاف المفاسد ومنافيات الفضيلة والتقوى والشرف.

وإليک بيان عالم أمريكي يشكو من ابتذال مجتمعه وتبعيته للاهواء والانحرافات الفكرية قائلًا: «إنّ المرأة التي تبدي صدرها المكشوف للناس تكتسب يومياً مليون دولاراً، والرجل الذي يقدر أن يقتل أخر بضربة واحدة يأخذ أجرة على قتله تعادل نصف مليون دولاراً...بينما الشيخ الذي شاب رأسه لإنقاذ الناس ترى وارده لمعيشته قليلًا لا يكفيه».

وكتب أستاذ علم النفس البروفسور «البرت كانلي» ضمن مقالة علمية يقول فيها:«حينما كان النساء الإنجليزيات في سنة ١٩١٩م يناضلن للحصول على حقّ الدخول في البرلمان ولا يخشين السجون والموت، لم يكن يومئذٍ من يظنّ أن الحرية التي كنّ يطالبن بها ستتبدّل بعد نصف قرن بحيث تكون سبباً في الحطّ من المكانة الاجتماعية للمرأة بصورة كلية.

والآن لو كنّ أولئک النسوة أحياء كان عليهن أن ينادين ويتظاهرن لاسترجاع هذه الحرية وحرمان النسوان منها، فقد أثبتت التجربة في الخمسين سنة الاخيرة أن النساء لم يحصلن بحريتهن على شيء، بل إنهنّ ضحين بكرامتهنّ ومكانتهنّ التي كانت لهن قبل ذلک»[1].

(١) بالفارسية: روشن فكر، العدد: ٨٢٩.

الطلاق في الاسلام

يجب أن نعلم قبل كل شيء أن الطلاق وانقطاع العلاقة الزوجية أمر غير طبيعي..وإذا توسع وانتشر الطلاق في مجتمع ما وكثر انحلال الاسر والعوائل وانفصال الزوجين أحدهما عن الآخر، فذلك يعني أن ذلك المجتمع قد انحرف في مسيرته عن مسيرة القوانين الطبيعية للحياة الإنسانية.

بما هناك من علاقة وارتباط بين قطع أواصر الزوجية وبين الشخصية الحقوقية والاخلاقية للزوجين فقد أولى علماء الحقوق والاجتماع والنفس هذا الموضوع عناية خاصة وأبدوا بشأنه آراءً ونظريات مختلفة. وبما أن ترك الزوجين أحدهما للآخر من خلال الطلاق يسدد ضربة قاصمة لكانون الأُسرة فيبدّل حرارة ذلك المحيط العاطفي الى فتور وبرود، وسيتعرض الاولاد بصفتهم ثمار تلك الزيجات المتفكّكة لانواع المفاسد والانحرافات الروحية والفكرية...لذلك يرى كثير من علماء الاجتماع والنفس أنه يجب أن لا نسمح بالطلاق الّا في الموارد الضرورية فقط، أو أن نضايق وقوعه حتى لا يتمكن الناس من أن يقدموا على الطلاق في أيّ وقت شاؤوا.

وصحيح أن الطلاق بلحاظ النظرة الاخلاقية والنفسية أمر غير محمود بل مستنكر ومذموم ولكن قد تستوجب الشرائط والاوضاع في بعض الموارد قطع العلاقة الزوجية حتماً.

فمثلًا لولم يمكن استمرار الحياة الزوجية والتعايش بين الزوجين لاسباب وعلل خاصة فما.هو التكليف؟ فهل يجب أن تحترق هذه الاسرة بحريق البؤس والتعاسة والشقاء والآلام الروحية حتى آخر أعمارها؟ أم أن نسمح لهم أن يقطعوا الرابطة الزوجية مع هكذا شروط

ليخلّصوا أنفسهم من النزاعات الداخلية والآلام الروحية؟ أيّ هذين الطريقين يؤدّي بهما الى الخلاص من جحيم الخلافات والنجاة فهو معقول لذلك؟

في هكذا موارد استثنائية شرع الإسلام قانون الطلاق ورآه جائزاً بشروط معيّنة، خلافاً للمسيحية التي منعته منعاً باتاً مطلقاً. فأعدّ الإسلام لحلّ هذا الارتباط اللّامبارك طريق الطلاق كي يمكن به قطع علاقة أصبحت غير محمودة، وبذلك فقد أقدم الإسلام على تجويز انحلال هكذا أسرة لا خير فيها؛ وذلك لان استمرار هذه الحالة بين الزوجين فشل واضح والضغط عليهما بالبقاء حينئذٍ على تلك الحالة إنما يزيد في الفشل فقط، فان الحياة الزوجية لا تستقر في هذه الحالة ولا تستقيم، ولذلك فعلينا حينئذٍ أن نستسلم للواقعية فنخضع لهذا الامر المُرّ أعني «أبغض الحلال الى الله الطلاق»[1].

ولعلّ هذا الفصل يوقظ في ضمير الزوجين ميلًا ورغبة الى حياة جديدة، تؤوب فيها المودة والمحبة الى الرجل وتلتئم عنده أحاسيسه وشعوره المجروح، فيعود ليبدأ الحياة الزوجية من جديد ما دامت فرصة «العدة» باقية.

ومن ناحية أخرى حيث أن للإسلام عناية خاصة ببقاء الزوجية وتوثيق روابط الاسرة لذلك فقد حدّد بعض أطراف حرية المرأة لغاية الحفاظ على نظام الاسرة وبالتالي المجتمع، فهو بتحديده لخيار المرأة في طلاقها ونفيه لحريتها المطلقة في ذلك أراد في الحقيقية أن لا تقع مصالحها ألعوبة بيد أهوائها الوقتية. وبديهيّ أنّ اختيار الطلاق لو كان بيد الزوجين زاد احتمال وقوعه ضعفين، والزواج فيما لو كان من الممكن انقطاعه من الطرفين تزلزل بنفس النسبة الاعتماد من الطرفين. فالافضل أن يؤدع هذا الحقّ أحدهما الذي يتمتع بقوة فكرية وتحمّل للشدائد أكثر، والذي سيتحمل من الطلاق خسارة أكثر من دفع المهر والقيمومة على الاطفال دون أمهم.

إنّ اختلاف النظام الوجودي للمرأة عن الرجل يفصل أحدهما عن الآخر في روحياتهما وأخلاقهما بصورة بارزة، ومن بين الامتيازات والخصائص الفطرية المختلفة للذكر والانثى تتجلّى القوة الفكرية الاكثر في الذكر وسيطرة العواطف والاحاسيس في المرأة.

---

(١) حديث نبوي شريف.

وقد كتب العالم الاجتماعي الشهير الدكتور «الكسيس كاريل» يقول:

إن كل واحدة من الخلايا الجسدية في الذكر والانثى وكذلك مختلف الاجهزة الجسدية لهما ولا سيّما الشبكة العصبية فيهما تحمل العلائم الخاصة الجنسية لهما. فعلى الاخصائيين في التربية والتعليم أن يلاحظوا الاختلاف العضويّ والنفسي في جنسي الذكر والانثى ووظائفهما الطبيعية، وإنّ للالتفات الى هذه النقطة الاساسية أهمية تامّة في بناء مستقبل حضارتنا. ولكنّ المدافعين عن حقوق المرأة بعدم التفاتهم الى هذه النقطة المهمة والاساليب يفكرون بل يزعمون أنّ بامكان كلا الجنسين أن يتلقّوا تربية وتعليماً واحداً، وأن يتقلدوا مسؤوليات واختيارات متساوية»[1].

إنّ الالتفات الى هذه الحقيقة يفسّر كثيراً من موارد الخلاف بين الحقوق والواجبات بين الرجل والمرأة في الإسلام، وعلى أساس هذه الحسابات الدقيقة يحكم الإسلام بأنّ «الطلاق بيد من أخذ بالساق»[2].

إذ بالنظر إلى روحية المرأة الخاصّة وظرفيتها العاطفية والمتهيّجة، لا يمكن الاعتماد – فيما لو كان لها هذا الحق – أن لا تفيد منه إلّا في موارد الضرورة وعدم إمكان استمرار الحياة المشتركة، بل يكفي لها أصغر حجّة أو ذريعة لتحطّم أساس الاسرة وتنهي الحياة المشتركة.

كما قد أعدّ الاسلام عند تشكيل الاسرة أنواع التسهيلات ورفع بل دفع المشكلات عن سبيل انعقادها، بنفس النسبة أشكل كثيراً على انحلال عقد الزوجية وتحقّق الطلاق بتشديد كثير، فالإسلام لا يرضى بالتفرقة بين أعضاء كانون الاسرة وفيما بين الزوجين، بل يهدف الى أن تأمن الاسر وتطمئن القلوب وتبقى الضمائر سليمة والزوجان منسجمين.

ولهذا فهو يسعى منذ البداية بكل جهده الى أن يجعل عقد الزوجية أقوى وأمتن، وأن يستمر ويدوم كذلك، إلّا أن ييأس من اصلاحه عند الفساد. فيخاطب الرجال بقوله سبحانه:

---

(١) الترجمة الفارسية: إنسان موجود نا شناخته: ٨٤ - ٨٧: الإنسان ذلك المجهول.

(٢) حديث نبوي شريف.

«وعاشروهنّ بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً»[1].

يدعو الله سبحانه الرجال في هذه الآية الى الصبر والاناة أمام هذا المكروه ليطفئ بذلك فيهم نيران الكراهية والنفرة، وليوقظ بذلك ضميرهم ويذهب آلامهم ويقول لهم في الحقيقة: أن ليس من الصالح أن تتركوا كل أمراة لا ترضونها أو تكرهونها، فمن الممكن أن يكون فيها خير وبركة وأنتم عنها غافلون. وبهذا يفتح لهم نافذة مجهولة من الخير فيما هم يكرهون. ولكنّه من ناحية أخرى يوصي النساء بقوله سبحانه:

«وإن خافت امرأة من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جُناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً، والصلح خير، واحضرت الانفس الشحّ»[2] أي فلا جناح على الزوجين أن يصلحا بينهما بصفح المرأة عن بعض حقوقها، والصلح بالصفح عن بعض الحقوق خيرٌ من التفرقة والطلاق.

هذا وقد عدّ أئمة الإسلام الطلاق من اكره الامور وذمّوه ببيانات مختلفة:

ففي «عوالي اللئالي» يرفعه عن النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أنه قال:

«أيّما امرأة سألت زوجها الطلاق من غير بأس فحرام عليها رائحة الجنة»[3].

وفي «مكارم الاخلاق» عنه عليه السلام قال: «تزوّجوا ولا تطلّقوا، فان الطلاق يهتزّ منه العرش»[4].

إنّ في الإسلام أحكاماً تمنع الرجل عن سوء التصرف والإفادة من الاختيار المتروك له في الطلاق وتجعل ذلك في حدود وموازين خاصة: فالرجل لا يجوز له أن يطلّق المرأة قصداً الى ظلمها وإيذائها والإضرار بها، وكذلك فيما لو كان من الآثار القطعية للطلاق انحرافها وتلوثها أو سائر المفاسد اللّامشروعة.

إن الإسلام بتشريعه لشروط الطلاق قد أوجد قيوداً وموانع في طريق الطلاق، فهي من

---

(١) سورة النّساء: ١٩.

(٢) سورة النّساء: ٩٩.

(٣) مستدرك الوسائل ١٥: ٢٨٠ ط. أهل البيت.

(٤) وسائل الشيعة ١٥: ٢٦٨ عن مكارم الاخلاق: ١٠٠ وفي مجمع البيان ١٠: ٣٠٤ عن علي عليه السلام.

العوامل الكبرى للمنع عن وقوعه أو لتقليله.

فالمحكمة العائلية – مثلًا – من أفضل السبل المنظورة لرفع الخلاف بين الزوجين قبل أن يقدم أيّ واحد منهما على أي عملٍ مفرّق، هي من مبتكرات الإسلام لرفع الاضطرابات العائلية. ولم يظفر الغربيون لحدّ الآن على وسيلة كهذه لغاية إيجاد التفاهم وحلّ الخلاف بين الزوجين وهما على أعتاب الطلاق والفراق ويختار لهذه المحكمة شخصان من الاقرباء الخيّرين والمصلحين للزوجين، لائقان مناسبان لان يكونا حكمين من قبلهما، لكي يدرسا ويبحثا ويحققا في علل حدوث الخلاف والتشويش بين الزوجين، ثم يحاولا حل الخلاف والاصلاح والتوفيق فيما بينهما.

في هذه المحكمة يدرس الحكمان عوامل الخلاف والنزاع بين الزوجين بصورة خاصة، وبما أنهما من أقربائهما فلهما أن يبحثا عن الامور الشخصية والخاصة والسرية، ولا يشعر الطرفان بألم أو خجل من إفشاء أسرارهما لديهما.

وبعد اطّلاعهما على عوامل ظهور الخلاف سيسعيان بكل اخلاص ومحبّة في إخماد الخلاف الحادث، ويوصيان الطرفين بالعفو والاغماض والتحمّل والصبر الاكثر مهما أمكن.

وبما أنهما محترمان لدى الزوجين ولهما عليهما الاعتماد والاطمئنان بهما وباخلاصهما، فهما سيقبلان في كثير من الموارد باقتراحهما ونظرياتهما الاصلاحية، وستؤدّي مساعيهما الخيّرة في أكثر الموارد الى الاصلاح ورفع الخلاف إن شاء الله تعالى:

«فان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها، إن يريدا إصلاحاً يُوفّقِ آللّهُ بينهما. إن آللّه كان عليماً خبيراً»[1].

اما إذا كانت دوافع تقارب الزوجين الى الطلاق قوية وعميقة ومتجذّرة، وكانت مساعي الحكمين للاصلاح ولبدئهما بالحياة الزوجية من جديد، لا تفيد شيئاً، فهناك يسلك الزوجان طريقهما الى الطلاق.

وقد اثبتت التجارب أن المحاكم العامّة تزيد في أكثر الاحيان في اضطراب المناسبات وتوتر العلاقات بين الزوجين وتقربهما الى هوّة المتاركة أكثر من ذي قبل؛ إذ أن تكليف

(١) سورة النّساء: ٣٥.

المحاكم العامّة إنّما هو أن يصغي القاضي فيها الى دلائل أقوى. ولا يسعى القاضي فيها أبداً الى إخماد نار الخلاف ونفي عوامل النزاع بين الزوجين.

ومن جانب آخر فان في إفشاء أسرار الاسرة لإثبات الدعوى في المحاكم العامّة وبمحضر من الاجانب، ما يوجب شرخاً في أحاسيس الزوجين ويصدمهما في شؤونهما وشخصيتهما، وبذلك يتعمق الشقاق فيما بينهما ويؤدّي الى المتاركة والطلاق.

وإن حضور شاهدين عادلين في حين اجراء صيغة الطلاق من الشرائط المشددة أيضاً: «وأشهدوا ذوى عدل منكم»[1] فلو وقع الطلاق بلا إشهاد بطل.

ومن منافع وجوب إشهاد العدول هو أنهما قبل وقوع الطلاق سيعطفان للاصلاح بين الزوجين وهما على أعتاب الطلاق ويسعيان ويحاولان، وإنّ نصحهما ووعظهما للاصلاح بينهما واجتذاب توافقهما لاستمرار زوجيّتهما ورفع ما وقع من الاضطراب بينهما لعوامل معيّنة، لمن أفضل الوسائل لمنعهما وردعهما عن الطلاق، وسينتج ذلك ويثمر خيراً في بعض الموارد على الاقل إن لم يكن الاكثر.

بينما لم يجعل الإسلام أيّ قيد أو شرط دون رجوع الزوج الى زوجته، فالامر هناك على العكس من الطلاق تماماً، ذلك أن الإسلام يهدف الى أن لا يجعل أيّ مانع أو رادع أو مؤخّر عن استقرار أو استمرار العلاقة الزوجية، بل أعد أنواع التسهيلات لتحقيق التأليف بينهما ومنعهما عن التفرقة والمتاركة فيما بينهما.

أضف الى ذلك أن تحقق شرط الإشهاد قد يتعذّر في كثير من الاحيان، وعدم تحققه دائماً سيسبّب في تقليل وقوع الطلاق بنفس النسبة ما أمكن.

وإن طهارة المرأة من «الحيض» و«النفاس» شرط آخر لتحقق وقوع الطلاق، ففي كثير من الموارد عندما يصمّم الرجل على الطلاق من الممكن أن يكون حصول الطهارة عند المرأة يحتاج الى مرور زمن، ولمرور الزمن أثر لا ينكر في تقليل ثورة العواطف والاحاسيس عند الرجل وتعلقه وتفكيره الاكثر في التصميم على هذا الخطر!

وحينما تصعب الحياة المشتركة للرجل حتى يتبرأ منها مع زوجته الحاضرة فيصمّم

---

(١) سورة الطّلاق: ٣.

على إجراء الطلاق منها، فان العلاقة الزوجية سوف لا تنقطع بهذا الطلاق رأساً، ولا ينفصل الزوجان به أبداً، فللزوج قبل إنقضاء «العدة الرجعية» أن يستأنف حياته الزوجية معها إذا شاء.

وإنّ آخر ما فعله الاسلام من أجل استمرار أو استئناف العلاقة الزوجية هو أنه كلّف الزوج بعد اجرائه لطلاق زوجته أن لا يخرجها من مسكنها ومنزلها حتى آخر العدة الرجعية (ثلاثة أشهر تقريباً) وهي أيضاً لا يحق لها أن تخرج إلّا في موارد الضرورة:

«يا أيها ٱلنبي إذا طلّقتم ٱلنساء فطلّقوهنّ لعدّتهنّ وأحصوا ٱلعدّة، وٱتّقوا ٱللّه ربّكم، لا تُخرجوهنّ من بيوتهنّ ولا يخرجن إلّا أن يأتين بفاحشة مبيّنة، وتلك حدود ٱللّه، ومن يتعدّ حدود ٱللّه فقد ظلم نفسه، لا تدري لعلّ ٱللّه يُحدث بعد ذلك أمراً»[1].

أضف الى ذلك أن لا حاجة في إعادة العلاقة الزوجية في العدة الى مراسيم خاصة، بل يكفي قليل من إبداء الميل من جانب الزوج لاستيناف العلاقة معها في تحقق الرجوع.

وهذا التساهل في استئناف الزوجية بينهما لمن الادلة على عناية الإسلام باستقرار واستمرار العلاقة الزوجية، وكراهيته لإنحلال كانون الأُسرة.

كذلك فيما لو كرهت الزوجة زوجها وبذلت له مهرها أو مالاً آخر ليطلّقها، يحق للزوج ارجاعها الى بيته فيما إذا ندمت المرأة ورجعت فيما بذلته له.

إن الإسلام بوضعه لهذه الاحكام عمل بدقة وعناية تفوق التصور لكي يحافظ على العلاقة الزوجية وبذلك يمنع من إنحلال بناء الاسرة بيُسر وسهولة، ومن أن تصبح الحياة المشتركة العوبة بيد الاهواء والميول والاحاسيس المختلفة الفانية. كثيراً ما يتّفق أن يتّخذ الإنسان قرارات مستعجلة من دون دراسة ودقّة في جوانب الامر وعلى أثر عوامل مختلفة. لذلك فان هذه القيود والموانع في سبيل إنحلال العلاقة الزوجية ووقوع الطلاق تسبب أن يفكّر المرء في عاقبة أمره بأناة ومتانة، فتسبب هذه الشروط والقيود تحديداً للطلاق بالتالي.

وعلى هذا فقد اتّضح لكل منصف غير متعصب أن الإسلام قد بذل اهتمامه للحفاظ على العلاقة الزوجية أكثر من أي دين أو نظام آخر، ولم يدع مجالاً لمن يدّعي الاصلاح من دون الإسلام.

---

(١) سورة الطّلاق: ١.

إنّ الإسلام قد ادخل المرأة في موارد الخطر على حقوقها تحت حمايته القانونية، وقد أعدّ لاستخلاصها حينئذٍ لتستطيع المرأة أن تحرز نفسها عن الحياة في جوّ لا يُساعد على سلامتها:

١- في حين عقد النكاح تستطيع المرأة أن تشترط على زوجها أن تكون وكيلة عنه فيما إذا أساء معاشرتها والسلوك معها أو امتنع عَن نفقتها أو سافر طويلًا أو تزوّج عليها، لتطلق نفسها أو توكّل عنه من يطلّقها.

٢- إذا عجز الزوج عن تأمين نفقتها أو امتنع عن ذلك أو عن سائر حقوقها الواجبة تراجع الزوجة الحاكم الشرعي، وإذا ثبت دعواها عنده يجبر القاضي زوجها على رعاية العدل وحسن السلوك وأداء حقوقها، فإذا تمرّد الزوج أو تخلّف عن العمل بأحكام القاضي ألزمه بالطلاق.

٣- فيما إذا اتّهم الزوج زوجته بخلاف العفاف أو انكر ولده منها واتهمها بغيره، يحق للمرأة أن تشتكي منه الى المحكمة الشرعية، فإذا لم يستطع الزوج إثبات دعواه فصل القاضي بينهما وفق أحكام معيّنة.

٤- إذا غاب الزوج غيبة طويلة وأصبح «مفقود الاثر» بلا خبر عنه، ووقعت المرأة لذلك أو لنفقتها في عسر وحرج، كان لها أن تراجع المحكمة الشرعية فتطالب بالطلاق والقاضي بعد رعاية المراسيم الشرعية يحلّ عقدها ويطلّقها .

٥- فيما إذا تنافر الزوجان كان بإمكانهما أن ينفصلا بصورة بسيطة هي: أن تعفي المرأة زوجها عن مهرها ونفقتها في أيام عدتها، فيقع عندئذ طلاق الخلع.

فكما راعى الإسلام كراهية الزوج لزوجته، كذلك لم يبعد النظر عن كراهية الزوجة لزوجها، فلو أحسّت المرأة في نفسها كراهية لزوجها بحيث أصبحت لا تتحمل الحياة المشتركة كان بإمكانها أن تطلب رضاه بطلاقها ببذلها مهرها أو أكثر منه:

«ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهنّ شيئاً إلّا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله، فان خفتم أن لا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به، تلك حدود الله فلا تعتدوها،

ومن يتعدّ حدود ٱللّه فأُولئک هم الظالمون»[1].

اذن فالإسلام بذل عناية خاصة لاحاسيس المرأة وميولها أيضاً، وفتح لها السبيل في هكذا موارد الى انطلاقها ونجاتها من حياة أليمة، كما اتّفق ذلک على عهد رسول اللّه:

كان ثابت بن قيس قد تزوّج جميلة بنت عبداللّه بن أبي بن أبي سلول، وكان يحبها وهي تبغضه، فتحاكما الى رسول اللّه فقال لها: أتردّين عليه حديقته؟ قالت: نعم وأزيده. قال: لا، حديقته فقط. ثم قال لثابت بن قيس: يا ثابت خذ منها ما أعطيتها وخلّ سبيلها. ففعل. فكان أول خُلع في الإسلام[2].

وفي بعض الموارد لا حاجة الى تطليق الرجل لزوجة، بل يحقّ للزوجة أن تطلق نفسها أو تبطل العقد، مع مراجعة المحكمة الشرعية في بعض الموارد وفي بعضها من دون ذلک، فمثلًا إذا أصيب أي واحد من الزوجين بالجنون استحق الآخر فسخ العقد و إبطاله[3].

و كذلک من موجبات حقّ خيار الفسخ للزوجة أن يكون الزوج أو يصبح خُصياً أو عنيناً. بالإضافة الى موارد أُخرى عدّها الفقهاء من موجبات حق خيار الفسخ لاحدهما.

لاريب أن من الادواء الكبرى اليوم في المجتمعات الغربية تفكک أركان الاسر، وهذه الحرية المفرطة في أمر الطلاق في عالم الغرب لا ريب أنه نتيجة رد فعل طبيعي لضغط الكنيسة التي كانت ترى حرمة الطلاق في المسيحية، و هذا التشديد الكنائسي جعل الدُول تضطرّ الى أن تعترف بشرعية الطلاق كضرورة.

فمثلًا في فرنسا كان الطلاق فيها على دين النصارى ممنوعاً حتى ما قبل ثورة اكتوبر سنة ١٧٨٩م وعند تنظيم قانون الحقوق المدنية سنة ١٨٠٤ أعلن عن اعتراف القانون به على أثر

(١) سورة البَقرَة: ٢٢٩.

(٢) مجمع البيان ١: ٥٧٧، ط. بيروت.

(٣) في بعض الدول الاوربية كألمانيا وسويسرا يرون الجنون من موارد حقّ الطّلاق للزوجين، ولكنهم في البعض الآخر كفرنسا لا يرون ا لجنون موجباً لحقّ الطلاق للثاني من الزوجين، بل هو ملزم بأن يباري ويمرّض زوجته أو زوجها! وهذا حكم قد يؤدّي ال ما لا يطاق تحمّله. ولكن الإسلام خيّر الزوجين في هذا الحال بين البقاء وتمريض المجنون ورعايته وبين فسخ العقد والطلاق منه.

ضغط الناس، ولكن أرقام الطلاق ازدادت بكثرة في فترتها القانونية التي دامت ست عشرة سنة، وفي سنة ١٨١٦ ألغي قانون الطلاق بضغط الكنيسة وأقر بدله قانون «التفريق الجسدي» و في سنة ١٨٨٤م اضطرت الدولة بفعل ضغط الناس أن تقرّ قانون الطلاق مرة أخرى ولكن بحدود وقيود:

وفقاً لهذا القانون يحق للزوجين الطلاق في الموارد التالية:

١- فيما لو ارتكب أحدهما جريمة حُكم عليه بموجب القانون بأحد الاحكام التالية: الإعدام، السجن المؤبد، نفي البلد، الحرمان عن الحقوق الاجتماعية، والسجن المحدود ولكن مع الاعمال الشاقة.

٢- فيما لو ارتكب أحدهما الخيانة «الزنا» ولكن إنما يحق لهما ذلك لو ثبت ذلك بمشاهدة البوليس في منزلهما.

فلو أراد أن ينفصل احدهما عن الآخر، كان عليه أن يتّفقا على الشخص الثالث، يدعو إلى دارهما، وعند مضاجعة أحدهما مع الشخص الثالث يأتي الآخر بالبوليس إلى البيت ويُثبت لهم خيانة الزوج أو الزوجة مع الشخص الآخر، وعندما يأتي البوليس مع الشاكي منهما إلى الموعد المعين ويرى الآخر منهما في المضجع مع الشخص الثالث تثبت الخيانة ويحق للآخر منهما أن يطلّق»[1].

انظروا كيف أن فتح هذا الحق بخيار الطلاق أصبح هو عاملًا من عوامل نشر الفساد والرذيلة وما ينافي العفّة. أجل هذا هو العالَم المتحضّر الذي يمنح المرأة من ناحية حق التدخل في الامور الاجتماعية والسياسية، ومن ناحية أخرى يجعل شرفها وشؤونها ألعوبة وأضحوكة ويمرّغ بعفافها في وحل الفضيحة هكذا!!

٣- فيما لو كان أحدهما يؤذي الآخر أو يهينه ويشتمه ويسبه...وموارد أخرى والذي يُعمل به حالياً في إيطاليا وفرنسا والبرتغال هو قانون «التفريق الجسديّ» وهو عبارة عن أنّ الزوجين المريدين للطلاق عليهما أن يعيش كل واحد منهما مجرّداً لوحده لفترة أكثرها ثلاث سنين، وفي هذه المدة وان كان الزوج معفوّاً عن النفقة والزوجة عن التمكين في

---

(١) بالفارسية: طلاق وتجدد: ٩٩.

الفراش والمضاجعة ولكنّ سائر آثار الزوجية باقية، وبعد انتهاء هذه المدة إن لم يستعد الزوجان لاستئناف الحياة المشتركة تحقق الطلاق!

وقد منحت أمريكا حرية أكثر في أمر الطلاق للنساء والرجال على السواء، ولذلك فان أرقام الطلاق في امريكا أكثر من أيّ مكان آخر.

إن هذه الحرية غير المحسوبة بشأن إنحلال العلاقة الزوجية، ومنح حقّ الطلاق للرجال والنساء على السّواء سبّب في تفكّك أركان الاسرة وأثمر ثماراً مرة حتى اليوم، فالنساء متى ما اشتهين يخرجن عن ظل أزواجهنّ بذرائع واهية وبخلافات على أشياء سخيفة لا قيمة لها. وفي الواقع والحقيقة فان عالم الغرب بدل أن يخدم بذلك الاسرة قد خانها أو جنى عليها، إذ بملاحظة إجمالية لارقام الطلاق في الدول التي يحق للنساء فيها الطلاق كالرجال، يبقى كل إنسان عاقل متعجباً متحيّراً من كثرة الطلاق، وهي مظهر للظلم المتزايد الذي تفعله القوانين السائدة بالاطفال والنساء والمجتمع والاسرة. إنّ ازدياد الطلاق في الدول المتحضرة والذي يقع بطلب النساء غالباً والحجج التي يتذرّعن بها لذلك، كلّ ذلك يبيّن لنا عمق نظرية الإسلام أوضح من الشمس.

وهذا نموذج واحد من علل وقوع الطلاق في الدول المتحضرة:

كتبت إحدى الصحف الاسبوعية الشهيرة تقول:

«قام رئيس المجلس البلدي في المؤتمر العام للمجالس البلدية الذي انعقد قبل مدة في مدينة استراسبورك، وأطلع المؤتمر على احصائية قام بإعدادها أعضاء المجالس البلدية في مختلف المدن والبلدان فقال:

بناءً على هذه الاحصائية فانّ ما يعادل سبعاً وعشرين بالمئة من التطليقات التي وقعت في العام الماضي بين الازواج كان من نتائج إفراط المرأة في التـقيّد بالموديلات! وهذا الرقم في ألمانيا يعادل ثلاثاً وثلاثين بالمئة، وفي هولنده ستاً وثلاثين بالمئة، وفي السويد ثمانية عشر بالمئة.

إن المرأة الباريسية التي تتابع الموديلات حتى ولو لم تكن إفراطية في تقيّدها بالموديلات فهي تصرف في السنة بصورة متوسطة مبلغاً يعادل ثلاثمئة وخمسين دولاراً على ما لا فائدة فيه سوى أنه يحمل اسم الموديل! وهذه المصارف الباهضة لا تزيدها جمالاً ولا

شخصية ومكانة، ولا تفيدها في تحسين أوضاع معيشتها هي والاسرة شيئاً.

هذا هو المصير الاسود للعوائل والاسر، فيما إذا أودعوا أمر الطلاق بيد المرأة مباشرة...وحينما يقع قسم كبير من التطليقات من أجل موضوع تافه لا قيمة له كالموديلات فللعاقل أن يدرك علل سائر التطليقات الى حدّ بعيد.

إنّ ما أصاب الاسر الاوربية من النتائج السيئة والمؤلمة من حرية المرأة واختيارها في أمر الطلاق أحدث وحشة كبرى فيما بين المسؤولين وسائر الناس بحيث أصبح المسؤولون يفكّرون في تحديد تلك الحرية وتنظيمها.

ففي العام الماضي وقع في فرنسا ثلاثون ألف طلاق، وحيث كان هذا الرقم يتزايد كل سنة طلبت فدرالية العوائل الفرنسية من الدولة أن تُعيد تنفيذ القانون الخاص لسنة ١٩٤١م الذي كان قد أُلغي في السنة ١٩٤٥م ويفيد هذا القانون أن الطلاق يُمنع في الثلاث سنين الاولى من الزواج مطلقاً وبأيّ عنوان كان»[١].

و كتب العالم الامريكي «لوسون» يقول:

« كلّ من يكون فيه شيء باق من غريزة حبّ النوع يتألم من هذا الوضع الموحش في أرقام الطلاق، ويفكّر في العلاج والحلّ. والذي يستحق إمعان النظر أكثر أنّ ثمانين بالمئة من هذه التطليقات يقع بطلب من النساء. وعلينا أن نبحث عن سر ازدياد الطلاق في هذا الامر (حرية المرأة في الطلاق) ثم نفكّر في تحديده»[٢].

ومن المناسب هنا أن نلتفت الى اعتراف «فولتر= وولتير» في تفضيل قانون الطلاق في الإسلام وشموله:

«إنّ محمداً(ص) كان مشترعاً عاقلًا يريد أن ينقذ البشرية من الشقاء والجهل والفساد، كان ينظر الى مصالح جميع الناس في الارض من الرجال والنساء والكبار والصغار، العقلاء والمجانين، الابيض والاسود والاصفر والاحمر. وليس هو الذي أشاع تعدد الزوجات، بل هو الذي حدّد العدد غير المحدود من النساء اللواتي كنّ يرتمين في فراش الملوك وأُمراء الدول

---

(١) بالفارسية: مجلة خواندنيها للسنة ٢٥ العدد: ١٠٣.

(٢) المرأة المسلمة، لمحمّد فريد وجدي.

الآسيوية...الى أربع فقط. إن قوانينه بشأن الزواج والطلاق أفضل بكثير من القوانين المشابهة في دين المسيح، أما في الطلاق فلعلّه لم يوضع لحد الآن قانون أكمل من قوانين القرآن بشأن الطلاق»[1].

(1) بالفارسية: اسلام از نظر وولتير.

الزواج الموقت

لا ريب لنا في أن الإسلام مصدر إلهام لسعادة الإنسان، ولم يأت ليلقي الناس في البلاء والشقاء ويحيّرهم في منعطفات المشاكل، لا ضعف فيه في أي شأن من شؤون الحياة، ولم يُفرّط في شيء يؤثر في سعادة البشر. وهو لهذه المزايا التي لا تحصى أفضل الاديان وأكملها.

وإن سعة وشمول الحقوق الإسلامية المنسجمة مع روح العدالة والمصالح الاجتماعية والتي تتمتّع بعمق وأصالة خاصة، تصلح لتعطى الإجابة الإيجابية على جميع حوائج العصر الحاضر.

وإن القوانين الإسلامية التي تتعلق بالزواج وتشكيل الاسرة من جملة القوانين التقدمية في الإسلام مما لا نظير له في أي دين أو مبدأ حقوقي آخر في العالم.

أما الكنيسة فقد سلكت سبيلًا متقابلًا للإسلام في الزواج وتشكيل الاسرة، فبنفس النسبة التي يهتم الإسلام بتشكيل الاسرة تمانع الكنيسة عن ذلك بتشدّد كثير، كما أن التجرّد والعزوبة كانت عند النصارى القدماء أمراً مرغوباً فيه وكانوا يتلقون الزواج كأمر مكروه، كذلك يتابع قادة العالم المسيحي اليوم نفس أُسلوب القدماء منهم. وقد تباحثوا حول هذا الموضوع في مؤتمر كبير لهم عقد قبل مدة في الفاتيكان، وبعد مداولات كثيرة قرّروا ما يلي:

«إن الزواج أمر مكروه كما كان، ولا تستطيع الكنيسة أن تسامح في ذلك»!

وبديهي أنه حينما توجد موانع على مسيرة الغريزة الجنسية التي لها أعمق العروق والجذور في الحيوان والانسان، ولا تستجاب بإجابة صحيحة، فانّها ستظهر في صورة

انحرافات جنسية. وهذا الاسلوب من التفكير المسيحي بشأن الزواج أنتج كثيراً من المفاسد وبعث على نشر الفحشاء والمنكرات الجنسية في العالم المسيحي، إذ أصبح تطبيق المسيحية المثالية على الحياة أمراً صعباً جداً ويُحتمل الناس ما لا طاقة لهم به، ولذا فرّ الناس مما في المسيحيةمن الرهبنة وقتل الشهوات تماماً كالحيوانات الهائمة من أقفاصها وأقفالها فوقعوا في فوضى شهوية غير معقولة، ومن أجل أن يكرّسوا حريتهم تماماً سحقوا كلّ شيء.

أما الإسلام الذي يرغّب الناس في الزواج المبكّر بعد بلوغ الرشد، يُبدي بوضوح كيف أنّ الإسلام أراد أن يفيد من هذه الغريزة الجنسية بصورة صحيحة ولكنّ الإسلام الى جانب ذلك يدعو الناس الى أن لا يسلكوا في التمتع بهذه الغريزة سبيل الحيوانات والبهائم، بل بما يليق بمقام الإنسانية ومرتبتها.

بما أن حبّ الزوج والولد من مُتع الحياة ومما يرغب فيه كلّ البشر، ووجود الغريزة الجنسية في طبيعة الانسان واقع لا مفرّ منه، لذلك يعترف بهما الإسلام كأمر واقع، ويرى أن الإستجابة لهذه الغرائز بما لها من أصالة أمرٌ جائز مسموح، فهو يقول:

«زُيّن للناس حبّ الشهوات من ٱلنساء وٱلبنين...ذلك متاع ٱلحياة الدنيا»[1].

إن الإسلام وفقاً للحاجات والضرورات الاجتماعية، ومن أجل سدّ الذرائع الى الفحشاء شرّع منذ أربعة عشر قرناً «الزواج المؤقت» بشروط ساذجة بسيطة، وبذلك شرّع الخير والصلاح للمجتمع البشريّ، وبذلك كذلك كافح الفساد أيضاً.

إن الفحشاء والعلاقات غير المشروعة كانت بين الناس في الجاهلية قبل طلوع الإسلام كسائر الاعمال غير المرضية أمراً اعتيادياً، وكانت مراكز الفحشاء منتشرة بين الناس...وبعد الإسلام أقدم النبي على وضع قانون «الزواج المؤقت» بغية اصلاح الافكار والأخلاق والسلوك بين الناس، والمنع عن الفوضى الجنسية والعلاقات غير المشروعة، وفي ظلّ هذا القانون قاد الغريزة الجسنية نحو المسار الصحيح.

روى الشيخ المفيد في رسالة «المتعة» بإسناده عن عبدالله بن مسعود قال:

كنّا نغزو مع رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ليس معنا نساء، فقلنا، يا رسول الله

---

(١) سورة آل عمران: ١٤.

ألا نستحصن هنا بأجر؟! فأمرنا أن ننكح المرأة بالثوب. وروى بسنده عن جابر بن عبدالله الانصاري قال: خرج منادي رسول الله فقال: إن رسول الله قد أذن لكم فتمتّعوا[1].

وروى بسنده عن سلمة بن الاكوع قال: قال رسول الله: أيّ رجل تمتّع بامرأة بينهما ثلاثة أيام، فان أحبّا أن يزدادا ازدادا، وإن أحبّا أن يتتاركا تتاركا[2].

فباستطاعة الرجل والمرأة وفقاً لهذا القانون-أن يعقدا عقد الزواج بينهما لمدة محدودة من دون أن يخضعا لزواج دائم وتعهد خالد، ثم يرعيان حريم الزوجية بينهما الى نهاية المدة المعلومة. وفي الزواج المؤقت وإن لم يكن فيه توارث ولا يتعهد الرجل بالمأكل والملبس والمسكن للمرأة، لكن تُراعى فيه سائر الاحكام كما في الزواج الدائم للحفاظ على نظام النسب الصحيح المشروع. والمرأة المعقودة بهذه الكيفية زوجة الرجل حقيقة وتجري عليها أحكام الزوجية واقعاً ولها آثارها الحقوقية. وفي القرآن الكريم:

«فما استمتعتم به منهنّ فاتوهنّ أجورَهُنّ»[3].

وبكلمة فان الزواج لو لم يكن محدوداً بحدّ معين من الزمان كان زواجاً دائماً خالداً، إلّا أن يتلاشى بالطلاق ونحوه، أما لو كانت المدة معيّنة محدودة كان الزواج مؤقتاً، وعليه فبالنظر الى مفهوم الزوجية لا تفاوت فيما بين الزواجين، وإنما الفرق هو موضوع «محدودية الزمان» و«عدم محدودية الزمان» في هذين النوعين من الزواج الشرعي.

ولا فرق كذلك أيضاً في أولاد الموقّت عن أولاد الزواج الدائم، وهم يتمتّعون من جميع الاحكام القانونية الشرعية لاي مشروع.

إنّ من العلل المهمّة لانتشار الفساد والفحشاء عدم توصل عدد من الناس الى الزواج الدائم، فان عدم المكنة المالية وتكاليف المعيشة لا تسمح بتشكيل الاسرة لكل أحد، وهذه مسألة موجودة دائماً وأبداً لا زالت ولا تزال.

وإن السفر والابتعاد عن البلاد للقيام بمختلف الامور من قبيل التجارة والاهداف

---

(١) وسائل الشيعة ١٤: ٤٤.

(٢) وسائل الشيعة ١٤: ٤٢١.

(٣) سورة النّساء: ٢٤.

العسكرية والدفاعية والدراسة وحتى للسياحة وأمثالها، من ضرورات الحياة، والزواج الدائم في السفر أو حمل العيال والاطفال في الاسفار مشكل في كثير من الموارد بل من غير الممكن.

وبالنظر الى حقيقة أن لابدّ من الاجابة الإيجابية لهذه الغريزة في هذه المواقع الخاصة العارضة أحياناً، ولا سيما أن أكثر الذين يبادرون الى الاسفار الطويلة شباب مبتلون بعنفوان الشباب وفي احتدام غرائزهم، فهل لحلّ هذه المشكلة من سبيل يمكن سلوكه سوى الزواج المؤقت ؟!

ولذلک فلو أنّ هذا القانون الاصلاحي التقدمي كان ينفّذ بضوابط خاصة وبصورةصحيحة، كان بامكانه أن يكون خير وسيلة لمكافحة الفحشاء والفساد والانحرافات الاجتماعية الجنسية والشاذّة، وكانت تُسدّ بذلک أبواب بيوت الفساد والجنس الرخيص وتتحسن الاخلاق العامة، وكن ينجين بذلک النساء الساقطات في أحضان الرذيلة.

ونحن إذ نقول: لو كان هذا القانون ينفّذ بصورة صحيحة، ذلک لان بعض الناس الجُهلاء المتحلّلين قد أساؤوا الفهم والعمل به، فاتّخذ القانون ولا سيّما بدعايات واهية لجماعة من المخالفين وقاصري الفكر وجهة غير صحيحة، وعُرف على خلاف ما هو عليه في حقيقته.

في حين أنّ الزواج المؤقت نزيه طاهر، لو يمنع من لا يعبأ بارتكاب الذنوب من سوء العمل بذريعة هذا الزواج، لكان يتغير الوضع كُلياً، ولاصبح من أنجع الوسائل المؤثرة والحاسمة لمكافحة الفساد والفحشاء.

وليس سوء الفهم والعمل خاصاً بهذا المورد، فمن الممكن أن أي حق من الحقوق يُساء فهمه والعمل به، وللمنع عن ذلک علينا أن نقوم بتهذيب أخلاق الناس والتصعيد بروحياتهم ومعنوياتهم، وقد بذل الإسلام منتهى سعيه لتوجيه الناس الى الفضائل .

ولابّد لكل قانون من أن تقف سلطة الى جانبه لتؤدّب المخلّفين عنه، وإلّا فلا فائدة في القانون بلا حماية وصيانة.

ولا شک أن هذا القانون من صالح المجتمع ولمصلحته، وعليه فلابدّ من أن تتدخّل القوة لحمايته في موارد التخلّف ولردّ المتمردين الطغاة الى جادّة الحقّ والصواب والاعتدال، ولتوفيق سلوكهم وفق القواعد والمقررات، ومن أجل تأمين منافع المجتمع ومصالحه.

روى الكليني في «فروع الكافي» بسنده عن الباقر عليه السلام عن علي عليه السلام قال:

«لولا ما سبقني به ابن الخطاب ما زنا إلّا شقي»[1] ورواه المفيد في «المتعة»[2].

وروى المفيد في رسالة «المتعة» بسنده عن الصادق عليه السلام قال:

«لولا ما نهى عنها عمر ما زنا إلّا شقي»[3].

إذ بملاحظة الكلام المعروف للخليفة الثاني عمر بن الخطاب الذي نقله علماء الفقه والتفسير السني والشيعي، لا يبقى مجال للترديد في أن الزواج المؤقت كان معمولاً ورائجاً على عهد رسول الإسلام صلّى الله عليه وآله وسلّم، إلّا أن عمر حرّمها في أواخر عهد خلافته خلال كلمته الشهيرة:

«متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أحرّمهما وأعاقب عليهما: متعة النساء ومتعة الحجّ»[4].

فهذه حقيقة واضحة أن عمر إنّما حرّمها بنظره الشخصي، بينما لم يعتن بنهي عمر كثير من أصحاب رسول الله والتابعين لانهم كانوا يعتقدون حلّها في الشريعة.

في المجتمعات الحاضرة التي تهاجم فيها الشباب عوامل الفتنة والتحريك، والصور المحركة والمهيجة والمنافية للعفّة في المجلات والجرائد والافلام الشهوانية في دور السينما والبرامج المنحرفة في الراديو والتلفزيون، والتجميل المهيّج للنساء العاريات أو نصف العاريات تهدّد الشباب كل لحظة بالسقوط الخلقي والفوضوي كل ذلك جعل الشباب في زاوية خطرة لا تخرج. فأيّ حلّ يراه قاصرو الفكر غير المطّلعين على القوانين الإسلامية الذين يسيئون النظرة الى قانون الزواج المؤقت والذين يفتعلون الضجيج والضوضاء لذلك؟!

فهل أن كل الشباب يتمتّعون بالصبر والاناة والسلطة التامة على أنفسهم؟! ويستطيعون

---

(١) وسائل الشيعة ١٤: ٤٣٦.

(٢) وسائل الشيعة ١٤: ٤٤٠.

(٣) وسائل الشيعة ١٤: ٤٤٠.

(٤) الغدير ٦: ٢٠٠ - ٢٤٠.

الصبر وتحمّل أنواع المشقّات أمام الامواج العاتية للغريزة الجنسية التي تصل الى أوج شدّتها على أثر المناظر المهيّجة والفاضحة وهم في شبابهم ؟!

وعلى افتراض إمكان ذلك وأن يبدي الشباب صبراً وإستقامة خاصة منهم في ذلك، فانّ ذلك يؤدّي أيضاً الى إهمال بعض أهداف الخلقة من هذه الغريزة في وجود الإنسان، ويؤديّ الى نوع من تحديد النسل وإعدام نطف الحياة في الاصلاب، وهذا تشديد وضغط لن ينسجم مع روح الإسلام وتعاليمه العملية الساذجة والبسيطة، كما قال تعالى:

«يُريد ٱللّه بكم ٱليسر ولا يُريد بكم ٱلعسر»[1] و«وما جعل عليكم في ٱلدّين من حرج»[2].

وإذ أدركنا هذه الحقيقة فهل لنا أن نفتح السبيل أمام الانحرافات والسيّئات الاخلاقية ؟ ونعلن السماح للفحشاء هذه الظاهرة الاجتماعية التي ملات مفاسدها والشقاء الناتج عنها جميع العالم بكل ما لها من صور مخزية، كي تنجرّ البشرية نحو السقوط في الشهوات وفوضى الحيوانات والغرق في الاهواء والمتاهات، كما قال اللّه تعالى:

«أتستبدلون ٱلذي هو أدنى بالذي هو خير ؟!»[3].

أم هل ننقذ بالعمل بقانون الزواج الموقت ملايين النساء المطلقات والعازبات المجرّدات والارامل الثيّبات اللواتي هنّ في عسر وحرج لتأمين تكاليف معيشتهنّ ؟!

وعلى افتراض أن هذه النسوة يستطعن تحصيل مصاريفهن باشتغالهنّ ولكن هل أن تحصيلهن لمعاشهنّ يرضي شعورهن وجوانبهن الروحية ؟ وهل لما يحصلن عليه من دخل أن يجيب على نداء أعماقهنّ بعلاقتهن بالرجل بإجابة مقنعة ؟ إنها إن أُخمدت فيها شعورها الفطري وغريزتها الجنسية ولم تحصل لميولها على إجابة إيجابية صحيحة، كان من الممكن أن تظهر فيها هذه العلاقة والميل الشديد بصورة منحرفة فتجرها نحو السقوط والتلوّث والضياع والضلال.

إنّ العلاقة غير الشرعية بين النساء والرجال قد احتلت اليوم في الدول الغربية محل

---

(١) سورة البقرة: ١٨٥.

(٢) سورة الحجّ: ٧٨.

(٣) سورة البقرة: ٦١.

الزواج الموقت، والمجتمع بذلك يواجه فوضى جنسية. والمفكّرون الغربيون بمشاهدتهم لهذا الوضع من انتشار الفحشاء أخذوا يشعرون بالحاجة لمثل هذا القانون وهم يرون الزواج المؤقت ضرورة حاسمة وإجابة لحاجة بشرية ملحّة.

فقد كتب الفيلسوف الإنجليزي «برتراند راسل» يقول:

«إن الضرورات اليوم والمشاكل الاجتماعية والاقتصادية قد أخّرت زواج الشبان والشابات على خلاف ما نميل إليه ونريده، إذ الشاب قبل قرن أو قرنين كان يُنهي دراسته فيما قبل العشرين من عمره، فكان مستعداً للزواج في بدايات ضغوط الغريزة، وقليلًا جداً كان أولئك الذين كانوا يضطّرون الى أن يستمرّوا في دراستهم في الفروع العلمية الاختصاصية حتى الثلاثين أو الاربعين من أعمارهم، فلا يستعدون للزواج قبل إنهائها...أما اليوم فان الشباب يدخلون الفروع الاختصاصية لتوهم فيما بعد العشرين، وبعد فراغهم من الدراسة يقضّون فترة يبحثون فيها عن عمل مناسب لهم يؤمّنون به معاشهم، وبعد الخمسة والثلاثين من أعمارهم غالباً يستعدون للزواج وتأسيس الاسرة، ولهذا فان على الشباب اليوم أن يقضوا فترة طويلة فيما بين البلوغ والزواج كيفما كان وعلى أي حال، بينما هي الفترة الحسّاسة وعهد رشد الغريزة الجنسية وطغيانها وصعوبة المقاومة أمامها ومغريات الحياة.

ليس لنا أن نحذف هذا الشطر الحسّاس من حساب العمر أو نظام المجتمع البشري، ولو أردنا أن لا نفتح حساباً خاصاً لهذه الفترة الطويلة والحسّاسة من العمر ولا نفكّر بهذا الشأن كان نتيجة ذلك شيوع الفساد وإهمال الصحة والنسل والاصول والاخلاق بين مختلف طبقات المجتمع رجالًا ونساءً، فماذا نعمل ؟!

الرأي الصحيح هو: أن تسمح القوانين المدنية لحلّ هذه المشكلة نوعاً من «الزواج الموقت» لهذه الفترة الحسّاسة من العمر، بحيث لا يستوجب تحمّل ثقل مشاكل الحياة العائلية ولا يكون زواجاً دائماً، في نفس الوقت يحفظهم عن مختلف المفاسد والاعمال غير المشروعة وتحمل الالم الروحي للذنوب والتخلف عن الاصول والاحكام، وكذلك عن الامراض المختلفة».

وكتب الاستاذ في الجامعات الامريكية «ديليان وان لوم» يقول:

«إن التجربة والقوانين العلمية النفسية أثبتت أن الرجال بعد انقضاء مدةمن زواجهم لا

يشعرون بجدّة ذات لذّة من أزواجهم، ولذلک فهم يميلون الى الإنحراف الجنسي، كما تبدي أرقام الاحصائيات الموجودة أن خمساً وستين بالمئة من الرجال المُحصَنين يخونون أزواجهم (في الدول الغربية).

ومن أجل إنهاء هذه الانحرافات من جانب، ومن جانب آخر لتخفيف أعباء الزوجية نرى الدولة مضطرة الى أن تقبل بقانون «الزواج المؤقت» بحيث يختار الطرفان أحدهما الآخر بحريتهما ويبقيان أوفياء لتواقيعهما على العقد حسب المدة المعيّنة كيفما يشاءان»[1].

---

(١) بالفارسية: بهداشت ازدواج از نظر اسلام: ١٧٥ للدكتور صفدر صانعي.

تعدد الزوجات

إن القوانين التي توضع لنظام المجتمع إنما تكون نافعة ومتقدمة وكاملة فيما لو كانت تتلاءم وتنسجم مع المطاليب الفطرية للإنسان ومع السنن الطبيعية، وفيما لو كانت ناظرة برؤية مستقبلية لكل الضرورات البشرية، ولجميع الحالات والشؤون المختلفة لكل مجتمع؛ وإلّا فانّها لن تتمتّع بالبقاء والدوام والتقبّل الطبيعي في المجتمع الإنساني.

إن الانظمة الإسلامية المتينة والقوانين الثابتة فيه لا تخصّ منطقة أو عدة مناطق خاصة من العالَم، بل انها وضعت وشُرّعت لكافة أنحاء العالَم ولجميع الازمنة وكل الامكنة، ومنسجمة مع السنن والنواميس الطبيعية ونظام الخلقة، وقد دعت كل المجتمعات الإنسانية دائماً وأبداً الى اتّباع هذه السنن الجامعة والاصول الشاملة، ولذلک فهي في كل عصر تستجيب لجميع الحاجات لكل المجتمعات البشرية ولم تضمحلّ ولم تنعدم في طول التاريخ ومع كل جزر أو مدٍ لمختلف الحوادث، وانها لن تنعدم أبداً، بل لن تفقد جدتها وقيمتها ما عاش إنسان على هذه الارض .

ومن الوسائل والذرائع الدعائية للكنيسة والمبشرين المسيحيين ضدّ الإسلام طرحهم لمسألة «تعدد الزوجات» في الإسلام، والذي أخذوا يطرونها في خضم التحوّلات والتطورات العلمية والاجتماعية في العصر الحاضر. إن الكنيسة من أجل الحفاظ على موقعيّتها الخاوية تلقّن الناس الجهلاء — ومع آلاف التهم والافتراءات ـ بأنّ تعدّد الزوجات قانون ظالم جائر بالنسبة للمرأة، فان الرجال ـ كما يقول ـ بامكانهم وكلّما شاءت إرادتهم الهوجاء والفوضوية أن يعقدوا دائماً على عدد كثير من النساء من دون أي قيد أو شرط، ويجعلونهنّ مطيعات

لاوامرهم الجائرة ويحملوهن ما يشاؤون!

هذه دعوى تختلف مع الحقيقة والواقع يرفعها الذين يخالفون موضوع تعدد الزوجات في الإسلام، ومن ورائها أحكام جائرة يصدرونها ضد هذا القانون. ولكنّهم لو تركوا التعصب جانباً وأخذوا يفكّرون في تشريع هذا القانون بصورة واقعية وبمنطق وعقل متحرّر، ومع تأمل في طبيعة المجتمع البشري والحوادث الكثيرة فيه، ومع ملاحظة مجموعة التحولات والتطورات في شؤون حياة الامم والشعوب. وأرادوا أن يحكموا فيه بالعدل والإنصاف، فلا ريب لنا في أنهم سوف يفهمون أن تشريع هذا القانون كان ولا يزال وفق الاصول والمنطق.

إن اتّخاذ الزوجات المتعددة بل الكثيرة كان أمراً متداولاً معمولاً به قبل طلوع الإسلام في مختلف المجتمعات البشرية، بل كان ذلك يُعدّ – ولا يزال – بين بعض الشعوب من سمات الشخصيّات والاشراف.

إنّ دراسة تاريخ الانبياء السابقين وكتبهم توضّح لنا حقيقة تحكي لنا أن تعدد الزوجات كان قبل الإسلام أمراً رسمياً ومرسوماً بين الناس، ولم يكن أمراً أحدث لاول مرة متزامناً مع ظهور الإسلام؛ بل:

«كان للرجل في دين اليهود أن يتزوّج مئات النساء، ووفقاً لقانون «ليكى» في الصين كان يحق لكل رجل أن يتزوّج الى مئة وثلاثين امرأة»[1].

وقد كتب المؤرخون عن «أردشير بابكان» و«شارلمان» أن كل واحد منهم كان يمتلك في حرمه أربعمئة امرأة!

والإنجيل سكت ولم يصدر حكماً في خصوص هذه المسألة مع أن التوراة كانت قد أباحتها علناً، ولذلك فقد كان حتى النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي أي على عهد شارلمان ملك فرنسا معمولاً به في اوربا النصرانية المسيحية، ولم تكن الكنيسة تخالف ذلك.

وفجأة في عهد هذا الملك نسخت الكنيسة قانون تعدّد الزوجات في جميع أنحاء البلاد النصرانية، واضطر الرجال الذين كانت لهم نساء متعددات أن يختاروا واحدة منهن كزوجة شرعية ويطلّقوا سائرهن، وكان من نتيجة هذا المنع والتحريم أن انجز أتباع المسيح

---

(١) بالفارسية: حقوق زن در اسلام و اوروبا: ٢١٥.

نحو الفساد والفحشاء بشدة وتصاعدت المنكرات والفسق والفجور بين الرجال ذوي الزوجات المنفردات بصورة تصاعدية.

إن تعدّد الزوجات كان معمولًا به في الجاهلية وبين مختلف القبائل العربية بصورة خشنة غير مستحسنة، فالرجل من دون أن ينظر الى وضعه المالي والاقتصادي وعدالته بين نسائه كان يختار ما يشاء من النساء كلما دفعته أهواؤه الفوضوية. فكانت قيمة المرأة – والحال هذه – مستهانة، وكان التعدي عليهن وظلمهن في الحقوق المشروعة لهنّ كأنه أمر اعتيادي، و كانت الإرادة المطلقة للرجال قد ضيّق مجال الحياة على المجتمع النسوي فيما بينهم.

وجاء الإسلام فمنع عن هذا الإفراط في الشهوة والتفريط في حقوق المرأة، وأنهى هذه الفوضى في حقوق النساء، ولكنّه قبل بتعدد الزوجات وفق شروط خاصة معيّنة، وحدّد عددهن في أربعة حسب مقتضى الحاجات الطبيعية في المجتمع وبالنظر الى مصالح النساء والرجال جميعاً.

لم يُشرّع الاسلام هذا القانون للشهوة غير المشروطة ولا المحدودة للرجال، بل لابدّ في تحقّقه من شروط مشروطة. وعلينا أن نعلم أن الاصل فى الزواج في الإسلام ليس التعدد، بل إن هذا القانون كأنه قانون وقائي اجتماعي ترفع به مخاطر عديدة، فقد يحدث ما يوجب أن ندفع ضرراً بتحمّل ضرر آخر، فماذا نفعل عندئذٍ.

وليس ذلک على كل رجل مسلم كأمر ضروري لازم وواجب، حتى إذا سمحت له شروطه الخاصة وخصوصيات حياته العائلية أن يتزوّج بأكثر من واحدة، وكان بإمكانه أن يراعى العدالة في الاحتفاظ بهن، ولكنه امتنع عن ذلک كان كأنه ارتكب حراماً.

وفي نفس الوقت جعل النساء في حرية تامّة في الإرادة والعمل حتى إذا رضين بمثل هذا الزواج وتمايلن إليه أقدمن عليه، ولم يوجب على أي امرأة أن تستجيب لذلک.

والإسلام بتجويزه لتعدد الزوجات لم يرتكب إهانة الى شخصية المرأة، بل للمرأة أن تستجيب لذلک في المواقع والحالات الضرورية لها، نعم لا يجبرها على تحمّل الوحدة والتجرّد والضغوط النفسية من جرّاء ذلک، بل لها أن تنظّم بذلک وضعها وحياتها ومعيشتها.

لو كان عدد النساء والرجال البالغين متساوياً ومتوازياً عندئذ لم يكن لاي رجل سوى

امرأة واحدة وكانت المسألة محلولة حلّاً طبيعياً ولم تكن تبقى كمشكلة. والخلاصة أن هذا الزواج لا يقع إلّا عند وجود الحاجة الاجتماعية وعندما تسمح به الحاجات الاجتماعية، فلو اختلّ لامر ما هذا التوازن الاجتماعي وقلّ عدد الرجال البالغين عن عدد النساء فما هو تكليف النساء الاكثر من الرجال؟

ففضلًا عن أن الرجال أقل مقاومة من النساء في الامراض والحوادث، هناك علل أخرى مختلفة كالحروب والاعمال الثقيلة والعمل في المعادن مما يؤدّي الى خسائر في الارواح كثيرة تسبّب في زيادة عدد النساء عن الرجال وتخرم ما بينهما من توازن. وهنا نستمدّ العون من الارقام والاحصائيات، فهي الحَكَم ولها الحُكم هنا:

وفقاً للاحصائيات الموجودة النساء في العالَم أكثر من الرجال قطعاً، وهذه الزيادة مسبّبة عن علل مختلفة من الحوادث الاجتماعية وغيرها مما هي موجودة في جميع أدوار حياة البشر كانت ولا تزال. وهذه حقيقة لا مفرّ منها، ولا يبقى معها أي مجال للقول الجُزاف.

«وفقاً للاحصائيات يولد في فرنسا مئة وخمسة من البنين بازاء كل مئة من البنات، ومع ذلك فان النساء في فرنسا أكثر من الرجال بأكثر من مليون وسبعمئةوخمس وستون ألفاً، ومع أن جمعية فرنسا كلّها لا تتعدى أربعين مليوناً. والسبب في ذلك أن البنين أقل مقاومة في الامراض من البنات، ولذلك فإن خمساً بالمئة منهم يموتون قبل سن العشرين ثم ينقصون ولا سيّما بعد سن الخمس والعشرين سنة، حتى لا يبقى في سن الخمس وستين سنة منهما (الذكر والانثى) إلّا سبعمئة وخمسين رجلًا بازاء مليون ونصف المليون امرأة»[1].

وكتب البروفسور «بيتر ملاوار» أستاذ التشريح بجامعة لندن، يقول: «لذلک ولامور أخرى نرى أن الرجال في العالم يقلّون عن النساء في العدد بصورة مستمرة»[2].

«وفي أمريكا اليوم أكثر من عشرين مليون باكرة لم تتزوج ولذلک فقد تلوّثن بالمخدّرات»[3].

---

(١) عن الجريدة الإيرانية: اطّلاعات بتاريخ ١٣٣٥/٩/١١هـ. ش.

(٢) عن المجلة الايرانية: خواندنيها للسنة ١٤ العدد: ٧١.

(٣) عن الجريدة الإيرانية: كيهان بتاريخ ١٣٣٨/١٢/٣ هـ.ش.

كما أن المرأة تشعر بالحاجة بالنسبة الى الامور الضرورية المعاشية كذلك تجد في نفسها حاجة عميقة عريقة متجذّرة باطنية بالنسبة الى البعل والنسل وتربية الاولاد، ولا تقضي هذه الحاجة في نفسها إلّا بالزواج الصحيح القانوني وتشكيل الاسرة، وإنّ تأمين وسائل الحياة المادّية وحدها لا تقدر على رفع الالتهاب الباطني لها وإسعادها نفسيّاً. وكذلك شعور الرجل. وبصورة عامّة فان الصفاء المعنوي والعواطف المتبادلة بين الرجل والمرأة مما لا يمكن التنكّر له.

ووكالات الانباء أحياناً تشرح العلل لزيادة النساء في العالم، فتذكر:

«لماذا يزداد عدد النساء يوماً فيوماً؟ السبب في ذلک هو طول العمر النسبي للإناث على الذكور، فلا شک أن الذكور يعمّرون أقل من الإناث، ووفقاً للاحصائيات وجد بازاء كل رجل مجرّد عشرون أرملة، وعدد النساء المجرّدات غير المتزوّجات كثير أيضاً أي اللواتي بقين بلا أزواج لزيادة عددهن على الحاجة. أضف إليهن المطلقات أيضاً.

إنّ عيشة المرأة لوحدها أمر صعب ومُملّ؛ إذ النساء في ترتيب عيشة مجرّدة أقلّ دلالة ومهارة من الرجال. إنّ النساء العزبات غير المتزوّجات دائماً ينتظرن شريكاً لحياتهنّ وهنّ يعشن دائماً في غرفة الانتظار لذلک.

أترى لماذا يحرمن النساء المجرّدات المفردات أنفسهنّ حتى عن الطعام الشهي المُعدّ بدقة كافية؟ ذلک أنهنّ يفكّرن أنّ العمل لانفسهنّ وحدهنّ أمر عبث، في حين أنهنّ يسعين نفس السعي لازواجهنّ أو لاولادهنّ بكل شوق ورغبة. حتى أن تسعاً من عشرة من النساء المفردات غير المتزوّجات أو الارامل إنّما يأكلن كما يقول المثل: مرحباً بكلّ ما يحصل! وأكثرهن يبدأن أيامهن بلا هدف، وحتى حضورهنّ عند الاحبة والاقرباء بما يرين فيهنّ من النساء ذوات الاسر التي تعيش بحرارة المحبة، يشكّل لهنّ عذاباً مؤلماً»[1].

والطريق الوحيد الذي أعدّه الإسلام لهذه النسوة اللواتي يزداد عددهنّ على الرجال هو تعدّد الزوجات، بأن يحق للنساء الزواج وتشكيل الاسرة مع رجال لهم أزواج أُخرى، وبذلک يتمكنّ من أن ينقذن أنفسهنّ من آلام الوحدة ومختلف أنواع الحرمان.

---

(١) وكالة الانباء الفرنسية عن الجريدة الإيرانية: إطّلاعات، العدد: ١٢٢٣٩.

إن خاصة الغريزة الجنسية وتوليد النسل في الرجال أمر دائم بدوام أعمارهم، بينما النساء يفتقدن قابلية الحمل والولادة في سنّ الخمسين سنة، وعليه فحينما تفتقد المرأة هذا الاستعداد والامكانية لا تزال القوة الجنسية في الرجال على يقظتها وقوّتها، فلو كان الزواج الثاني للرجال خلافاً للقانون كان لازم ذلك أن يحرم الرجل عن الإفادة من خاصته هذه في المدة الباقية من أعمارهم أكثر من عمر الإخصاب في المرأة.

وكثيرات تلك النسوة العقيمات اللواتي لا يرضين مع ذلك بمفارقة أزواجهنّ لما بينهما من المودّة والرحمة، ومن ناحية أخرى فان الميل الى الاولاد وبقاء النسل حاجة طبيعية، وعليه فلماذا يبقى الرجل الى آخر عمره يحترق في نار الحسرة على افتقاد الاولاد ولا يصل الى بغيته هذه ؟!

كتبت جريدة «إطلاعات» بعنوان: «ثلاثة زوجات دائمات وافقن لزوجهنّ على زواجه الرابع» تقول:

«بعد الزوال من يوم أمس راجع رجل مع ثلاثة زوجات له دائمات، محكمة الاسرة في مدينة «رشت» وطلب من قضاة المحكمة أن يصدّروا له جوازاً بناءً على موافقة زوجاته الثلاثة الحاليات بأن يتزوج بامرأة أخرى رابعة قد رضى بها وأرادها، والطريف أن زوجاته الثلاثة أعلنّ عن رضاهنّ بذلك في محضر القضاة. أما الرجل فقد وضّح وضعه للمحكمة وقال: هؤلاء عقيمات، ولكنّهن يساعدنني في أمور الزراعة ولذلك لا أريد أن أطلّقهنّ، ولكنّي أريد مع الاحتفاظ بهنّ أتزوج بامرأة أخرى لعلّها تلد لي ولداً.

وكانت الزوجة الجديدة بنتاً باكراً وقالت هي بدورها لمندوبنا في مدينة «رشت»:

إنّ زوجي هذا من الرجال الصالحين في قريتنا «سفيد كُتِل تپه» وفيها ألفان امرأة وأربعمئة رجل فقط، بل مئتا رجل ومئتان من البنين غير البالغين السادسة عشرة من أعمارهم، وعليه فلان يكون سهم كل امرأة في قريتنا من الرجال سوى خُمس رجل لكل امرأة! إذن فلا عجب أن أرضى بزواجي بهذا الرجل»[1].

فهل أن القانون الذي يحاول أن يمنع الرجل عن بلوغه الى غايته أي أن يحصل على ابن

(١) عن الجريدة الإيرانية: إطّلاعات، العدد: ١٣١٦ بتاريخ ١٣٤٨/١١/٢٠هـ.ش.

له أو ولد، ليس قانوناً ظالماً بشأن أولئك الرجال ؟!

وفي هذه الاوضاع الاجتماعية كيف يواجه القانون الذي يراد له أن يكون مراعياً لمصالح الرجل والمرأة هذه الحالة الاجتماعية غير المتوازنة بالنسبة الى النساء الاضافيات ؟ وأي حلّ عادل بامكانه أن يقدّم لذلك سوى تعدّد الزوجات، ليسدّ ذلك الخلل من خلاله، ويقرّر التوازن بين الجنسين.

هذه ضرورة حياتية روحية واجتماعية، وعلينا أن نواجها في حدود الحقيقة والواقع لا التصورات الواهية والخيالات والقصص.

ومن الممكن أن تُصاب المرأة بأمراض مزمنة وغير ممكنة العلاج بحيث يكون الجماع معها مضراً بالرجل، بينما القوة الجنسية لا تزال في الرجل يقظة، ومن جانب آخر قد أعلن الإسلام أن الغريزة الجنسية لا يجوز إشباعها إلّا من طريق الزواج الشرعي. فأيّ طريق أفضل وأنسب من قانون تعدّد الزوجات لإرضاء الغريزة الجنسية لهؤلاء الرجال ؟!

(طبيعي أن المرأة أيضاً فيما إذا ابتلى زوجها بأحد الامراض المُعدية التي لا تعالَج، بحيث يكون الجماع معه مُضراً بالمرأة ويخاف أن تصاب هي أيضاً بذلك الداء، كان لها أن تراجع الحاكم الشرعي فيلزم القاضي الشرعي زوجها بطلاقها، فاذا لم يطلقها الرجل كان للقاضي الشرعي أن يحلّ عقد زواجها بالطلاق وفق الصلاحيات التي فوّضها إليه الإسلام).

أفليس الاحتفاظ بالمرأة المريضة في كفالته وقيمومته والزواج بأخرى أفضل من طلاقها وأن يضيفها بإهمالها على أمثالها ؟ أفهل يقضي الضمير والانصاف بأن يتقبّل الرجل المرأة في أيام سلامتها بصفتها شريكة حياة، ثم يطردها عن نفسه ويتركها على أثر عارض من مرض لا يزال الإنسان في معرض ذلك دائماً، وهي قد قضت شطراً من عمرها في دار زوجها وكانت شريكة أفراحه وأتراحه، وهي اليوم مريضة، فهي بأمسّ الحاجة الى القيمومة والكفالة والمحبّة والعطف أكثر من أي شيء آخر، فما هو حكم العقل والإنسانية هنا ؟

ولو كان جماعة من المجتمع مصابين بالفقر لعلل مختلفة، وكان بينهم وبين سائر الطبقات فواصل مالية عائقة، فالذين لا يملكون إمكانية مالية لا يستطيعون الزواج ولا يقدرون على تشكيل الاسرة، وبالتالي فان التوازن بين النساء والرجال البالغين سيختلّ طبعاً. فلماذا لا يحق لمن لهم إمكانية مالية من الرجال أن يتزوّجوا زوجات عديدات يكفلونهنّ وبذلك

ينقذوهنّ مما هنّ فيه من الفقر والفاقة والحاجة ؟

إن من الاساليب المؤثرة التي اتّخذها الاسلام لمكافحة الفحشاء والحفاظ على العفاف العام هو قانون تعدّد الزوجات، الذي يفتح السبيل لإنقاذ ملايين النساء عن السقوط الخلقي والانحراف ولإيصالهن الى حاجاتهن المشروعة أي الزوج والولد.

في الحرب العالمية الثانية إذ ذهب ملايين من الرجال ضحيّة الموت والفناء والدّمار، وأرمل جمع كثير من النساء وأصبحن بلا أزواج ولا قيّم ولا كفيل، تشكلت جمعية منهنّ وطلبن من حكومة ألمانيا بعد الحرب أن تعلن عن السماح بتعدد الزوجات. ولكن الكنيسة خالفت في ذلک. وحيث لم تقدر أن تقدّم المسيحية طريقة منطقية لحلّ هذه المشكلة، تلوّث المجتمع بأنواع من المفاسد الاخلاقية والانحرافات الجنسية، وزيادة الفحشاء والعلاقات غير الشرعية سبّبت في ازدياد الأولاد غير الشرعيين. وكتبت الجرائد تقول:

«بعد الحرب العالمية الثانية طلبت جمعية النساء غير المتزوّجات من حكومة ألمانيا أن تعلن عن السماح بتعدّد الزوجات، وبذلک تساعد النساء لوصولهن الى حاجاتهن الطبيعية الشرعية أي الزوج والولد القانونيّين. وخالفت الكنيسة في ذلک، وكلنا يعلم أن مخالفة الكنيسة أصبح يساوي إصابة كل اوربا بكل ما ينافي العفّة العامّة»[1].

«إن الاستيحاش من الإنفراد والبقاء منفرداً في العيش شايع حتى بين الفتيات ذوات العشرين عاماً فضلًا عن النساء في الثلاثين والاربعين من أعمارهن. وإن حرية الرجال والنساء اليوم لم تستطع أن تذهب بحلم الزواج من أعماق وجود المرأة في العالَم، فانّ عيون «حوّاء» تتوجّه دائماً الى «آدم» ومع كل الإمكانيات المعدّة للعمل والتقدم للنساء في ألمانيا الفدرالية لا زلن بنات حوّاء يبحثن عن الامن في أحضان الازواج.

ولعلّ الفتيات ذوات العشرين حتى الخامسة والعشرين من أعمارهن لا يواجهن المشكلة إلّا قليلًا ولكن النساء ذوات الثلاثين حتى الاربعين يعانين أكثر من المشكلة، أما من الخمسين فصاعداً فهن يائسات أو آيسات. ووفقاً لاحصاء رسمي عُلم أن خمسين بالمئة من النساء في حدود الثلاثين وعشرين بالمئة من النساء في حدود الاربعين يحضين بالزواج فقط، أما من

---

(١) عن الجريدة الإيرانية: إطّلاعات، بتاريخ ١٣٤٠/٨/٢٩هـ.ش.

ذوات الخمسين فان خمسة بالمئة منهن فقط يمكنهنّ أن يحتفظن بهذا الامل في نفوسهنّ!

وعلى أثر هذا الوضع نرى ستة ملايين من النساء في سنّ الاربعين فصاعداً بلا أزواج في ألمانيا، وبازاء هذه الستة ملايين من النساء بلا أزواج إنّما نجد ثلثا من المليون من الرجال بلا زوجات فقط، أي لكل أربع نسوة رجل واحد فقط!

وحيث أن ثلاثة عشر بالمئة من الرجال المذكورين من المتقاعدين المجرّدين، وبازائهم سبع وتسعون من النساء بلا أزواج لا زلن يأملن في ذلك، فقد أصبح التوازن والتناسب بين المؤهلين للزواج وطالبات الازواج كأنّها مسألة عويصة على الحلّ.

وحيث أنّ الإمكانيات للزواج بالفتيات محدودة، ولا يمكن أن تُحلّ مشكلة الستة ملايين من النساء الالمانيات غير المتزوّجات بما يقع من الزواج، فانّ عدداً كثيراً من النساء قد أقبلن على السفر الى خارج ألمانيا، حتى أن ما يقرب من خمسين بالمئة من الالمانيات المهاجرات هنّ نساء يطلبن الزواج»[1].

إنّ قانون «تعدد الزوجات» هو القانون الوحيد الذي بإمكانه أن يُجعل مورد التنفيذ في ألمانيا كأصل للحلّ غير منكور الاثر لحلّ مشكلة كثرة النساء في ألمانيا الغربية، ولكي يُنهي هذه الفوضى النسوية هناك، ويمنع عن إنحراف الرجال والنساء بطغيان الغريزة فيهن.

إنّ الغرب يدعي أنّه عمل بالرأفة بالنسبة الى النساء وأعطاهن حرية تامّة كاملة، فلماذا أحدث سدّاً أمام طلباتهن الشرعية وانتظام حياتهنّ العائلية؟ وهو يُعطّلهنّ عن وظائفهنّ الاصلية في التوليد والتربية؟ لماذا لا يدع المرأة والرجل – وهما متوافقان ومتراضيان ومتعاطفان يريدان العيش المشترك وتشكيل الاسرة – ليصلا إلى ما يريدان من هدف مشروع؟ ولينتهين عن هذه الحالة بلا كفالة ولا قيمومة. وماذا يقول الغرب في مصير هذه النسوة غير المتزوّجات؟ أفهل لنا أن نحرمهنّ للابد عن تشكيل الاسرة وعن الاولاد وعن إرضائهن لغريزتهنّ؟ هل أن تعدد الزوجات الذي شُرّع في الإسلام للاستجابة للحاجة الطبيعية في المجتمع...هل هو بضرر النساء أو بنفعهنّ؟ وهل أنّ هذا القانون أعطى المرأة حرية أكثر أم حدّد حريتها وحاجاتها الطبيعية؟ نحن نترك الإجابة على هذه الاسئلة الى

(١) عن الجريدة الإيرانية: إطّلاعات، بتاريخ ١٣٤٩/٣/٣هـ.ش.

ضمير القرّاء الكرام.

إنّ قبول عيشة مشتركة مع نساء أخريات على رجل واحد من قبل امرأة واشتراكها مع امرأة أو نساء أُخريات في بيت رجل واحد، لخير دليل على أنها ترى هذا الوضع أفضل من العدم والانفراد والتجرّد والعزوبة والوحدة، والرجل باختياره لزوجات متعددات يتعهد بمسؤولية أكثر وهو الذي عليه أن يتحمّل ما في ذلك من ألم ومشقّة وتعب.

لسيّدة مثقّفة هي دكتورة في فرع الحقوق، اعتراف منصف وصريح بهذا الخصوص، إنها كتبت تقول: «إن أي امرأة، سواء الزوجة الاولى أو الثانية لا تتضرر من عمل زوجها بقانون تعدد الزوجات، بل من المسّلم به أن المتضرر بما في تعدّد الزوجات من القرارات إنما هم الرجال، فهم الذين يثقل حملهم وعبؤهم وتكاليفهم، ذلك أن الرجل إذ يتزوّج امرأة فإنّه سيكون موظفاً مسؤولاً عنها قانوناً وأخلاقاً وشرعاً وعرفاً، وعليه أن يُعدّ لها ما يلزم لها من وسائل المعيشة حتى آخر عمرها مما يناسب شأنها وشخصيتها في أُسرتها، وأن يضمن علاجها فيما إذا عرض لها عارض من مرض أو حرج، وأن يدافع عنها أمام المخاطر ويحميها أبداً.

وإذا ما قصر الزوج في ذلك فان القوانين والاعراف تقوم بعقوبته وتجبره على قيامه بتكاليفه، أضف ذلك الى أنه مسؤول أمام دينه وربه وسيؤاخذه على ذلك يوم الحساب.

وتعتقد الكاتبة أن كل الاعتراضات والانتقادات التي تطلق على لسان النساء في مورد «تعدّد الزوجات» إنما هي تخرج من حلقوم الرجال وإنما هي من فكر الرجال يُلقى الى النساء ويلقّن به والنساء يحكينه تماماً كالببغاء! فالرجال هم الذين يحولون دون أنفسهم والزواج الشرعي القانوني بإلقاء هذه الشبهات ويفتحون على أنفسهم إمكانية العلاقة غير الشرعية!

ولو كان للرجل زوجتان فلا ضرر في ذلك على المرأة بالنظر الى العلاقة الجنسية أيضاً، وإنّما يمكن أن تشعر المرأة بالضرر الروحي والمعنوي حيث تفكّر في أن لزوجها زوجة أُخرى غيرها فتتألم روحيّاً، ولكنه ليس أمراً واقعياً وإنّما هو أيضاً من إلقاء الرجال وتلقينهم ذلك الى النساء، فتعدد الزوجات كان موجوداً ولا يزال تعيش الزوجتان وحتى الثلاث معاً في بيت أو دار واحدة وفق الاحكام الشرعية ولا تتألم أيّة واحدة منهن ولا تشعر بعدم الرضا، ولكنّ اليوم أصبح حتى تصوره مؤلماً بفعل إلقاء الرجال وتلقينهم للنساء، بينما لو كان هذا التألم طبيعياً

وواقعياً للزم أن لا يتحقق العمل به في القديم كثيراً»[1].

أجل، إن الغرب قد سمح بالحرية والإباحية والتحلّلية والفوضوية بينما منع عن هذه الحاجة الطبيعية والشرعية. والإسلام أعطى للناس حريتهم المعقولة ولا يقبل بهذه الحرية المضرّة والتي هي على خلاف مصلحة الفرد والمجتمع.

وحيث أن العدالة ضمان لسعادة الفرد والمجتمع وهي مورد عناية خاصة من الاسلام، لذلك كان تعدد الزوجات في الإسلام مشروطاً بالعدالة، وقد تقرّر في الفقه الاسلامي أحكام كثيرة مبنيّة على بيان كيفية رعاية العدالة بين الزوجات في مختلف الامور، وقد تأمّن بذلك استقلال النساء وكيانهنّ وتساويهن في حقوق الزوجية على أحسن الوجوه.

هنا ك كثير من النساء يرخّصن لازواجهنّ في اختيار زوجة أُخرى بكل رغبة، ومن هنا يبدو أن قانون تعدّد الزوجات منسجم مع فطرة الإنسان، ولو كان ذلك يخالف فطرتها لما كانت تستعدّ برضايتها أن تتزوّج برجل له زوجة قبلها. وإن أكثر النساء اللواتي لا يرضين أن يختار أزواجهنّ زوجات أُخرى إنّما العلّة في ذلك أنهنّ يخشين أن لا يراعي زوجهنّ الاصول والاحكام الزوجية بصورة صحيحة وكاملة بالنسبة الى زوجاته جميعاً فيُنقص من حقوقهنّ شيء ويُنقض.

وما يظهر في كثير من الاسر والعوائل من الاختلافات إنما هو على أثر وجود التمييز غير الشرعي والاعتداء على حقوق بعض النساء، وبكلمة: لعدم رعاية العدالة بينهنّ. وقد قال الله:

«فانحكوا ما طاب لكم من ٱلنساء: مثنى وثلاث ورباع، فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة»[2].

والخلاصة: أن الاعمال غير الصحيحة والسلوك الخشن لبعض الرجال ينتج ظهور كثير من هذه الاختلافات في العوائل والاسر، وإنّ انحرافهم عن العدالة وعن العمل بالتكاليف الشرعية والاخلاقية بالنسبة الى الزوجات يُبدّل كانون الاسرة الى جهنّم وحريق بينما

(١) بالفارسية: ازدواج در اسلام: ١٥٠ - ١٥٢.

(٢) سورة النساء: ٣.

المفروض أن تفيض بالمودة والمحبّة والصفاء والإخلاص. وعلينا أن ندرس الأفكار الإسلامية السامية وقوانينه الرصينة وأحكامه الاصيلة والعميقة غوراً من دون النظر الى هؤلاء الافراد من المسلمين، حتى نشاهد الصورة الواقعية والاصيلة للاسلام في قيادته للمجتمع السليم بعيداً عن أي انحراف أو فساد.

وفي الإسلام أحكام تُلزم الزوجَ برعاية شروط العدالة بين الزوجات، بالإمكان أن نحول بالعمل بتلك الاحكام دون ظهور تلك المشاكل.

فلو امتنع الزوج عن دفع النفقة المناسبة لشؤون الزوجة ولم يراع العدالة في العلاقة الزوجية وتخلّى عن عبء المسؤوليات والتكاليف الثقيلة عليه فان الشرع سيؤاخذه وتعاقبه القوانين المقرّرة.

ولكن علينا أن نفهم أن المودة والعلاقة القلبية خارجة عن حدود الإنسان، فمن الممكن أن تكون لزوجة من المزايا والامتيازات ما تفتقدها سائر الزوجات، ولذلك فانّ أحكام الإسلام إنّما هي بشأن تنفيذ العدالة في حقوق الزوجية كالنفقة والمسكن والمضاجعة وتأمين كافة الحاجات المالية والبدنية والروحية، وبكلمة فيما ليس خارجاً عن حدود اختيار الإنسان، ولا يسمح في ذلك بأي انحراف من تمييز ظالم. وها هو الإسلام قد ضمن هذه الحقوق التي لها أهمية كبرى في الحياة الزوجية.

وهناك حقيقة واضحة تقول: إن حقوق المرأة إنّما تنتقص فيما لو كان الزوج يرتّب على علاقته القلبية أثراً عملياً، أما فيما لو لم تؤثّر علاقته القلبية في العلاقة الزوجية وبالنظر الى الملبس والمطعم والمسكن وسائر لوازم المعيشة فلا أهمية لذلك في ميزان العدل في الفقه. نعم لا ينبغي أن تظهر آثار عدم الرغبة في كانون الحياة الزوجية، كما يقول القرآن الكريم:

«فلا تميلوا كلّ ٱلميل فتذروها كالمعلّقة»[1].

فلا يحقّ لاي رجل أن يتعامل مع بعض زوجاته مُبدياً لها عدم اعتنائه بها وعدم رغبته فيها وميله إليها، فيتركها بذلك كالموجودات المعلّقة، إذ لا تتمتّع حينئذٍ لا بحقوق الزوجية ولا من مزايا العزوبة والتجرّد.

---

(١) سورة النّساء: ١٢٩.

ومع تشريع هذا الحكم على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله ألزم من كانت له أربع زوجات فيما لو لم يكن قادراً على تنفيذ العدالة وتطبيقها بينهنّ أن يكتفي بزوجة واحدة، وفيما لو كان ينفّذ العدل أيضاً لا يحق له أن يحتفظ بأكثر من أربعة منهنّ...وهكذا منع الإسلام تعدد الزوجات بصورة غير عادلة، ومنع عن عدم الاعتداد والاعتناء بحقوق النساء، ومنع عن الإباحية والتحلّلية والحرية المطلقة في ذلك، وأذهب بكل ظلم وجور كان يجري عليهنّ من قبل.

ونجد بين المسلمين الملتزمين بالقوانين الدينية نماذج كانوا يراعون العدالة بين الزوجات حتى بعد وفاتهنّ:

فقد روى: أن مُعاذ بن جبل كانت له امرأتان ماتتا في الطاعون، فأقرع بينهما أيتهما تُدفن قبل الأخرى[1].

ويوجد بين علماء الغرب من يدرس مسألة تعدّد الزوجات برؤية منصفة وواقعية وبدقة وقد خرجوا من ذلك بأنه ضرورة اجتماعية:

فقد كتب الفيلسوف الالماني الشهير «شوبنهاور» يقول:

«حينما يكون تعدد الزوجات في مجتمع ما قانونياً مسموحاً به، فمن الممكن القريب من الواقع أن الاكثرية الساحقة من النساء يكون لهن أزواج وأولاد، وذلك يعني أنهنّ مقضيات الحاجات الروحية والغريزية، ولكن في أوربا حيث لا تسمح لنا الكنيسة بهذا العمل فسوف تبقى النساء بلا أزواج أكثر بكثير من النساء المتزوجات جداً، وما أكثر النساء والبنات اللواتي يحترقن لسنين وأعوام من أعمارهن في حسرة الازواج والاولاد بل حتى اختفين ونمن في بطن الارض من دون أن تقضى لهنّ هذه الحاجة الملحّة والطبيعية، وما أكثر النساء والبنات اللواتي خسرن ما لديهنّ من عفافهنّ بإجبار الغريزة الجنسية ثم قضين أعمارهنّ وهنّ منكّسات الرؤوس ومع وخز ضمائرهنّ ووجدانهنّ الاخلاقي، وهنّ لم يبلغن بذلك الى الزوج والولد وهما من الحاجات المشروعة والمصيرية لكل امرأة.

أنا كلّما أفكّر وأفتش وأبحث فاني لا أتمكّن من أن أجد دليلًا مقنعاً على أن الرجل لو

---

(١) مجمع البيان ٣: ١٨٥، ط. بيروت.

أصيبت امرأته بمرض مزمن، أو كانت عقيمة، أو عاجزة عن الحبل والولادة لماذا لا يحق له أن يختار امرأة أخرى ؟! وعلى الكنيسة أن تجيب، ولكنها أيضاً غير قادرة.

والقانون الجيّد هو ما يتكفّل العمل به بحياة سعيدة، لا الذي يحدث العقد والحرمان أو يجعل الايدي والارجل في الاغلال والسلاسل، أو يزيد في الضلال والفساد والضياع والفحشاء وما ينافي عفاف النواميس».

ويقول قائد الحركة العرفانية «آنى بيزانت» الإنجليزي:

«إنّ الغرب يدّعي أنه لم يقبل قانون تعدّد الزوجات، وحقيقة الامر هي أنّ تعدّد الزوجات موجود في الغرب ولكن بدون مسؤولية! بمعنى أن الرجل حينما يحصل على شهوته من رفيقته فانّه سوف يطردها عن نفسه، وبالتدريج تصبح امرأة متروكة في الشوارع والازقّة متحيّرة لا تدري الى أين تأوي، ذلك أنه لا مسؤولية على عُهدة صاحبها عنها. وإنّ حالة هذه (الخالة الضائعة)! أسوأ مئة مرّة من المرأة التي قد أصبحت زوجة قانونية ثم أماً بل جدّة، تعيش في الاسرة تحت حماية الزوج والولد.

نحن حينما نرى ألوفاً من النساء البائسات قد تجمّعن في شوارع المدن الغربية طوال الليل وهنّ تائهات ضائعات لا يدرين الى أين يذهبن، نطمئن الى أنّ على الغربيّين أن يسدّوا أفواههم عن لوم الإسلام بشأن تعدّد الزوجات! إن المرأة حتى في حالة تعدّد الزوجات إذ هي مع زوجها وأولادها القانونيين وبصورة محترمة في بيتها...أفضل بكثير ومن جميع الجوانب وأسعد وأكثر كرامة وحرمة من مرأة تعيش متحيّرة متردّدة في الشوارع والازقّة، والتي أصبحت ضحية شهوات الرجال وهي تحمل طفلًا لا شرعية له ولا قانون يدافع عنها».

وكتب الدكتور «غوستاف لوبون» الفرنسي يقول:

«لم يوصف شيء من تقاليد الشرق أسوأ مما وصف به موضوع تعدّد الزوجات، ولم تخطئ أوربا في شيء كما أخطأت بشأن هذا الموضوع. حقاً أنا متحيّر ولا أدري ماذا يختلف تعدّد الزوجات الشرعي في الشرق عن تعدد الزوجات غير القانوني في الغرب؟ ما الذي يعوزه؟ ولماذا؟ بل أنا اعتقد أن تعدّد الزوجات الشرعي أفضل وأليق من جميع الجوانب»[1].

---

(١) عن الترجمة الفارسية: تمدن اسلام وعرب: من ٥٢٦ - ٥٢٧.

المحتويـات

مقدمة المؤلف ٥

القسم الأوّل: سير الحياة، والحضارة الإنسانية ٩
تقييم الحضارة الغربية القائمة ١٣
عوامل انتشار المسيحية ٢٣
نظام قيادة الكنائس وما فيها من فجائع! ٢٥
دعايات النصارى ضد الإسلام ٣٧
الاخلاق في عالم الغرب ٤١
العبادة في الكنائس ٥١
الانتشار المذهل للكحول ٥٥
تناقضات الحياة في عالمنا المعاصر ٦١
التوحش في عهد التمدن ٦٥
التمييز العنصري ٧٣
تضعضع نظام الاسرة ٧٩
حماية الحيوانات ٨٥
آثار فقد المحبة، والشعور بالخلل ٨٩

القسم الثاني : ما هي إجابة الإسلام على مشاكل العالم المعاصر؟

لنتساءل عن الإسلام ٩٧
القاصرون ١٠٩
الإسلام والمشاكل الاقتصادية ١١٧
دور الإسلام في الحضارة الغربية الحديثه ١٢٠
الثورة الثقافية ١٣٣
الطبابة والصحة ١٣٩
صنع العقاقير الطبية ١٤٣
المستشفيات ١٤٥
الكيمياء ١٤٧
الصناعات ١٥١
العلوم الرياضية ١٥٣
الجغرافيا ١٥٥
الفنون الجميلة ١٥٧
الإسلام والمشروبات الكحولية ١٦٥
الإسلام وأنواع التمايز ١٧٣
دوافع الجهاد الإسلامي ١٨٩
مكانة الاسرة في الإسلام ١٩٦
الطلاق في الإسلام ٢٢٩
الزواج الموقت ٢٤٣
تعدد الزوجات ٢٥١

محتويات الكتاب ٢٦٧

وتمّ التعريب بعون الملک الوهّاب
بتاريخ ٤/٤/١٤١١هـ.ق